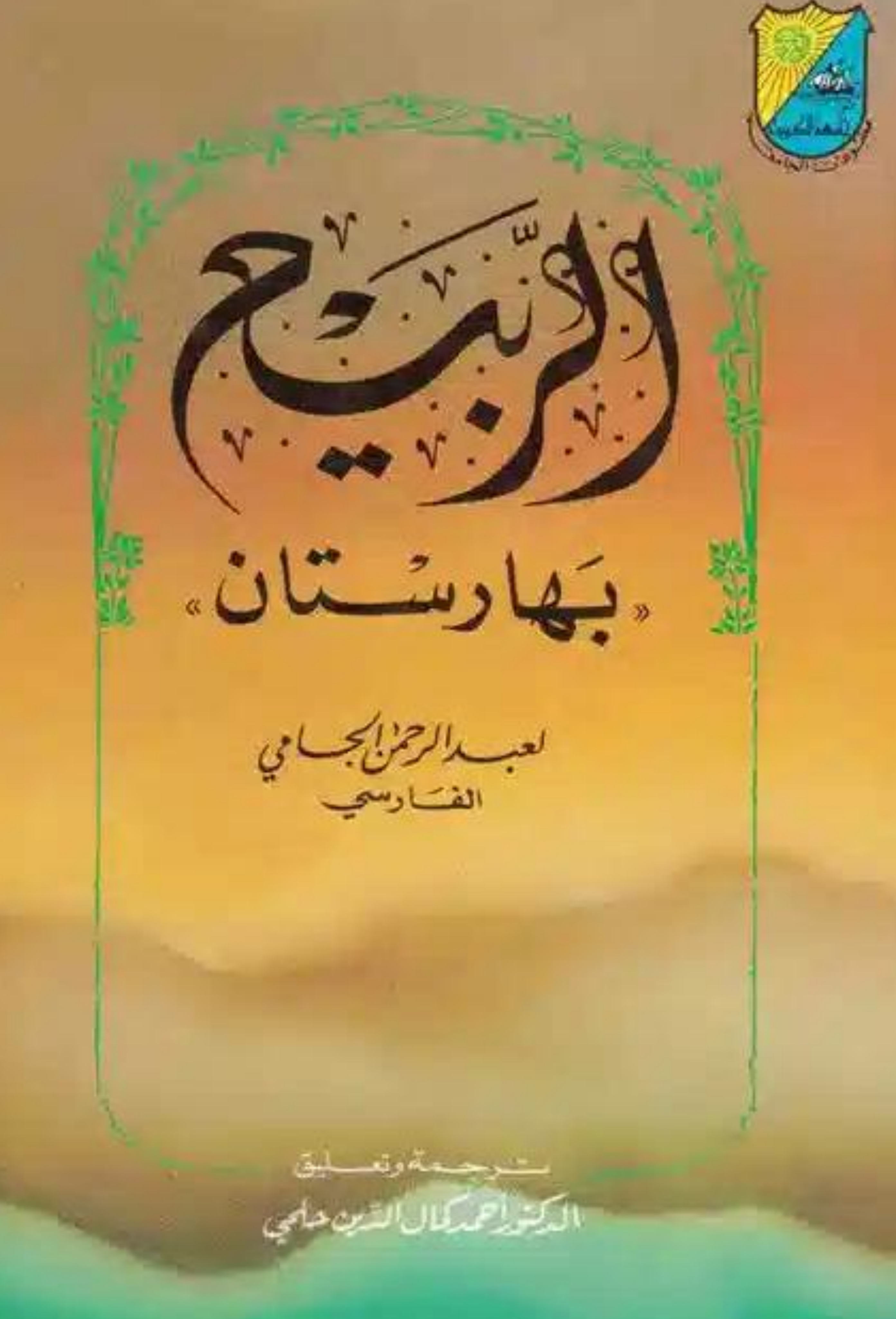

الربيع
«بهارستان»
لعبد الرحمن الجامي
الفارسي
ترجمة وتعليق
الدكتور أحمد كمال الدين حلمي


الربيع
"بهارستان"



الربيع

"بهارستان"

لعبد الرحمن الجامي
الفارسي

ترجمة وتعليق
الدكتور أحمد كمال الدين حلمي
أستاذ الفارسية وآدابها
جامعة الكويت



١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

طبع وتصميم

ذات السلاسل

للطباعة والنشر - الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى قرّائي الأعزّاء ...

راجياً أن يجعل الله أيامهم كلّها ربيعاً



مُقَدِّمَةُ المُتَرجِم

الدكتورُ أحمد كمال الدّين حلمي



بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارىء:

كان لزاماً عليّ حين شرعت في ترجمة «بهارستان» - أحد مؤلّفات الجامي النثرية - أن أفاضل بين النسخ العديدة الخطيّة والمطبوعة، الموجودة بالمكتبات، فاطّلعت في سبيل ذلك على عدة نسخ بيانها كالآتي:

١ - نسخة مخطوطة في مجلد، ترجع كتابتها إلى أواخر شهر جمادى الآخرة من سنة (١٠٣٥هـ - ١٦٢٦م)، وتقع في ١٠٩ ورقة، وتوجد بدار الكتب تحت رقم ٧ - م أدب فارسي.

٢ - نسخة خطيّة أخرى بنفس الدار تقع في ٦٣ ورقة، لا يرد فيها تاريخ يحدّد زمن كتابتها، وهي تحت رقم ٢٧ أدب فارسي.

٣ - نسخة خطيّة ثالثة، تمّت كتابتها سنة (٩٥٠هـ - ١٥٤٣م)، وتقع في ٦٩ ورقة، تحت رقم ٤٢ أدب فارسي.

٤ - نسخة خطية رابعة بنفس الدار، كتبها من يدعى إبراهيم بن صالح بمدينة بلغراد، في رمضان سنة (١٠٥٥هـ - ١٦٤٥م)، وتقع ضمن مجموعة من الورقة الأولى حتى السابعة والثمانين، تحت رقم ٣٨ مجاميع فارسي.

٥ - نسخة مطبوعة في ڤينا، طبع سنة (١٢٦١ هـ/١٨٤٥ م - ١٢٦٢ هـ/ ١٨٤٦ م)، ومعها ترجمة ألمانية لشلشتاوسارد.

٦ ـ نسخة مطبوعة في استانبول بالمطبعة العامرة، سنة (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م).

٧ ـ نسخة مطبوعة في بمباي في يونية سنة (١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م)، بنهايتها المعاني الإنجليزية لبعض المفردات مرتّبة وفق الروضات.

٨ ـ نسخة مطبوعة في طهران، ترجع إلى سنة (١٢١١ هـ ـ ١٧٩٦ م)، ومعها مقدّمة بقلم السيد محمد طباطبائي.

وقد استبعدت النسخ المخطوطة لصعوبة الحصول عليها بصفة دائمة، وللاختلافات العديدة بين نسخها، ولرداءة بعضها أوراقاً وكتابة، واستقرّ رأيي بصفة نهائية على النسخة المطبوعة في طهران لحسن طبعتها، وقرب زمن طبعها، واحتوائها على عمل الجامي كاملاً.

وكانت معي نسخة بمباي أثناء ترجمتي لنسخة طهران، فلم أجد كبير اختلاف في المضمون بين النسختين، اللهمّ إلّا في بعض العبارات القليلة التي سقطت من إحدى النسختين ووجدت في الأخرى، أو في بعض المفردات التي لا تحقق تغيّراً يذكر في المعنى، أو تخلّ بالسياق.. وقد أثبتُّ هذه الاختلافات ـ في موضعها ـ بهامش ترجمتي.

وبهارستان الجامي تقليد «لگلستان السعدي» الذي ألّفه عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م وقدّمه «لسعد بن أبي بكر بن سعد زنكي»، ولي نعمته. وقد نال گلستان شهرته وكثر تقليد الأدباء له لسهولة أسلوبه. وهو كتاب نثري مطعّم بالشعر، يكشف عن صلة السعدي بالعربية وآدابها، تغلب عليه روح الفكاهة، ويرسم صورة للمثل الأعلى في كل طبقة من الطبقات. وقد تُرجم الكتاب إلى أكثر من لغة، ووُضِعت له شروح بالعربيّة والتركيّة والهنديّة.

وقد جعله السعدي في مقدّمة من خمسة أجزاء وأبواب ثمانية. وهو في الجملة كتاب أخلاقي تعليمي ترفيهي.

ويمتدح الجامي گلستان، ويعترف بتقليده له، ويذكر في مقدمته أنه كان عند كتابة بهارستان يتبرّك بأنفاس السعدي.

وقد كتب الجامي كتابه لوحيده «ضياء الدين» ليشحذ نفسه، كما أراد أن يجعل منه للأحياء مثلاً وحكمة، ولمن سيأتون للحياة هديّة وعطيّة.

وقد أهدى الجامي كتابه للسلطان حسين بايقرا ـ سلطان الوقت ـ وقسّمه بدوره إلى ثمانية أقسام، أطلق على كل قسم منها اسم: «روضة».

وتسير الروضات وفق ما يلي:

الروضة الأولى:

يرد بها الكثير من كلمات كبار الصوفيّة، ويصل عدد الشخصيّات فيها إلى ٢١ شخصيّة. وقد انتقى الجامي تلك الكلمات بعناية، وكأنّه يعبر بها عن أحاسيسه هو، وأخذ يؤكّدها بأبيات شعريّة من إنشائه تركّز معناها وتبرزه، وتدلّل على قدرته الفائقة على النظم في عدة ضروب شعرية كالقطعة والرباعي والملمّع وغيرها[١].

ويلاحظ في هذه الروضة أن الجامي يأتي بأبيات من الشعر العربي، ثم يترجمها إلى شعر فارسي فيأتي غايةً في الجودة شاملاً للمعنى بلا إخلال، مما يدل على معايشته لفنون العرب وآدابهم، وإتقانه التام للغة العربية، ومهارته كمترجم.

وقد حثّ الجامي قُرّاءه في روضته هذه على ترك الكِبر، والتوجّه إلى الحُب للحُب، وطالبهم بالإعراض عن الدنيا والتقرّب إلى الله، وتقديس الصداقة، ومداومة الذكر، ومجانبة الأغنياء، والتواضع، ونبذ الطمع، والرضا بالمقسوم، وترك الفخر بالأنساب.

فالروضة الأولى إذاً لم تكن تأريخاً لشخصيّات صوفيّة أو تعريفاً لها،

---

(١) قمت بترجمة الأشعار الفارسية (التي أنشأها الجامي في كل روضة من الرياض الثمانية) إلى اللغة العربية نثراً، وكتبت ترجمتي النثرية لكل بيت في سطرين (في الغالب). وللتفرقة بين الشعر والنثر وضعت العلامة (*) أمام كل بيت فارسي قمت بترجمة إلى نثر عربي. أما الشعر العربي فكتبته على طريقة كتابة الأشعار العربية دون وضع أي علامة مميزة.

وإنما كانت استغلالاً لكلمات كبار الشخصيّات الصوفيّة في مجال نفع الناس كافة.

وقد قمت بالتعريف بهذه الشخصيات والتاريخ لها ـ وعددها تسع وعشرون ـ وذلك في فصل مستقل بعد انتهائي من الترجمة.. تحت عنوان: (شخصيّات بهارستان)، ولم أترك اصطلاحاً صوفياً في هذه الروضة ـ وما تلاها من روضات ـ إلاّ وذكرت معناه ومدلوله والأقوال التي دارت حوله. وقد رتبت الشخصيات وفق أولوية ورودها عند الجامي في الروضة.

الروضة الثانية:

يرد بها الكثير من الحكم والأقوال المأثورة التي نطق بها بعض العظماء. ويعمد فيها الجامي إلى الوعظ بصورة لا تكلّف فيها، مستفيداً من كثرة قراءته لكتب الفرس والعرب.. الحافلة بالحِكم والأمثال. فهو ينبّه إلى الاهتمام بالمَخبَر دون المَظهَر في قوله:

الجسد قراب والروح سيف، والسيف يعمل لا القراب.

ويُظهر رأيه في الكريم والبخيل عندما يقول:

كل ما يصل إلى يد الكريم ينثره بأكمله تحت أقدام أصدقائه..

وكل ما يجمعه الوضيع البخيل يبقى بعد موته في أيدي أعدائه.

ويُحذّر من مجاراة السِفلة في مزاحهم إذا ما قال:

فلا تهزل مع السفلة وتمزح معهم، وإلاّ ذهبت عظمتك وزالت هيبتك.

ويقتبس مضمون القول الشائع: (الذكر للإنسان عمر ثان)، فيقول:

صفحة الدهر دفتر عمر كل شخص، هذا ما قاله عاقل بعد طول تدبّر وإعمال فكر.

والسعيد من يسجّل في هذا الدفتر ـ الخالي من الكلام ـ كلمات طيّبة وأعمالاً طيّبة.

ويظهر رأيه في المرأة بما لا يخرج عن ظاهر قول الرسول الكريم:

«النساء ناقصات عقل ودين».

وينصح بعدم الاغترار بالمال والسلطان، والبوح بالأسرار، قبل أن ينتقل إلى نصح الملوك ومطالبتهم بالعدل، وتوصية الرعية بإتقان الأعمال وإطاعة الأوامر والأقوال.

ويتنقّل الجامي بين العظات.. وينتهي إلى أن أقبح الأشياء ثلاثة: تسرّع المَلِك، وحرص العالِم، وبخل الغني. ويختتم الروضة ببيتين من الشعر يقرر فيهما القول المأثور: زُر غِباً تزدد حُباً. وهكذا يظهر بمظهر المعلّم القدير الحريص على نفع قرّائه، الحافظ للقرآن الكريم والكثير من الأحاديث النبوية والأمثال الشائعة، الكثير الاطّلاع على آداب العرب والفرس، العليم بخفايا النفوس البشرّية.

الروضة الثالثة:

خصصها الجامي للحديث عن الإنصاف، وبدأها بالحديث عن كسرى أنوشيروان باعتباره شخصاً اتّصف بالعدل، وقرّر أن العدل بلا دين أفضل لنظام العالم من ظلم ملك متديّن، وأن الأحمق من يسير على قاعدة الطبع، ويطبّق قانون الفطرة، وتصدر آدابه كلها عن طريق الصدق والصواب، فالعاقل من يعمل وفق قانون العقل وحده.. والجامي عندما يسجّل مبدأه هذا يطالب ـ كما طالب السعدي ـ باتّباع آداب غير متعارف عليها.

وقد تطرّق الجامي في هذه الروضة إلى التحذير من مخالطة الملوك والاقتراب منهم والارتباط بهم، ونصح الملوك بتفقّد أحوال رعاياهم، والتجاوز عن هفوات المذنبين، وبذل المال للمحتاجين. ثم انتقل إلى العدالة في الصداقة، وأوضح أن الإنصاف يقتضي من المرء ألا يسبّ صديقه أو يذكره بسوء إذا ما سلك سبيل الهجران، وأن عليه أن يكتفي بمقاطعته، وأن يتوقّع الصلح ويستعدّ له.

وكان الجامي يرى أن المرء يستطيع أن يجرّد الظالمين من ضمهم

بلطف الكلام وحُسن الخطاب. ويرى أن كرامة المَلِك تحتّم عليه ألّا يعمل ـ لكسب معاشه ـ ما يعمله العامة كالبيع والشراء. وأن الحاكم يجب أن يعمد إلى القوّة لردع الوقحين المتهوّرين، وإلى الرأفة ـ حتى مع المذنبين ـ إن علم فيهم خيراً، ورأى في رأفته صلاحاً.

وقرب انتهاء الروضة، ذكر الجامي قصّة امرأة ذكرت رأيها في الحجاج دون خوف، وهي قصة لا تخرج عما جاء في (العقد الفريد)، بل إن الجامي قد ترجمها عن هذا الكتاب دون تغيير أو تحريف، وفي هذا إثبات كاف لكثرة اطّلاعه على آداب العرب، وتمكّنه من صنعة الترجمة.

وفي النهاية نراه يجعل من السيرة الحسنة ابناً للحكيم، يمكنه أن يستغني بها عن الزواج والإنجاب، فليس ذِكر المرء في ولده، وإنّما في السنن الطيّبة والسيرة الحميدة.

الروضة الرابعة:

يمتدح فيها الجود والكرم ويشيد بالجواد الكريم الذي لا يبغي من وراء جوده عوضاً، ولا يريد ممن يأخذ العطاء جزاءً ولا شكوراً.

وهو يروي ـ في سبيل تحقيق هدفه ـ عدداً من القصص الهادفة، ويورد ذكراً لرجال اشتهروا بالجود والكرم. ويؤكدّ في تلك القصص ـ ضمن ما يؤكّد ـ أن قيمة الرجل في عمله وأدبه وفضله لا في غناه وثرائه، وأن المحسن لا يعدو أن يكون آلة لإعطاء الحسنة، أما العاطي الحقيقي فهو الله سبحانه، وأن المِنّة تُفقد الكرم قيمته.

والجامي يخوّل للأديب الحقّ في مدح المَلِك السخي.. إذا ما كان في حاجة إلى المال. ويرى أنه من الواجب على المَلِك في هذه الحالة أن يكرمه، ويغدق عليه من المال أضعاف ما يتوقّعه. وبدراستنا لشخصية الجامي نستطيع أن نؤكد أنه كان يَعنى بمدح الملوك.. ذلك اللونَ من المديح الذي لا يتّسم بالرياء، ولا يتسربل بالنفاق.

وهو يرى في التسامح والصفح من جانب القوي القادر بُعداً آخر.. فالتسامح والصفح في ظلّ القدرة لون من الكرم والمروءة.

والروضة في مجموعها روضة هادفة، ذات أثر إيجابي فعّال في نفس القارىء.

الروضة الخامسة:

تدور حول العشق والمحبّة، وتفضّل العشقَ العفيف على العشق الذي تخالطه الشهوة وتسيّره الرغبة. ويستند الجامي في بدايتها إلى حديث الرسول: «من عشق فعف فكتم فمات، مات شهيداً» ـ وهو حديث ضعيف الإسناد ـ في إثبات شهادة العاشق العفّ الكتوم.

وهو في سبيل امتداح العشّاق من الصوفيّة.. يورد عدداً من الحكايات القصيرة تبرز عمق تضحية العشّاق، ذاكراً بعض الآيات القرآنية التي يبني عليها استشهاداته.

وفي نهاية الروضة يشيد الجامي بأربعة أشياء، يرى فيها الراحة للمحبّ والمحبوب بعد العذاب والعناء، وهي:

الوصل بعد الفراق، والوفاق بعد الشقاق، والصلح بعد الغياب، والصفح بعد العتاب.

الروضة السادسة:

يتحدّث فيها الجامي عن الشعر والشعراء، ويبدؤها بتعريف الشعر، ويدافع عنه دفاعاً مجيداً.

ويفسر الآيتين الكريمتين: ﴿بل هو شاعر...﴾ و﴿وما علّمناه الشعر...﴾ تفسيراً لصالح الشعر وأهله، ويتحدّث عن ضروب الشعر وتطوّرها.

ثم يتحدّث عن مشاهير الشعراء في إجمال، مع التمثيل لهم بشيء من أشعارهم. وقد بلغ عدد من ذكرهم في هذه الروضة ٣٧ شاعراً.. معظمهم

سابق عليه. أما من ذكرهم من معاصريه، فقد جاءت معلوماته حولهم مختصرة اختصاراً شديداً، يمكننا أن نعزوه إلى كراهيته لهم كشعراء مديح متملّقين مرائين، أو إلى تعصّبه كصوفي سنيّ نقشبندي يكره الرافضة. وقد حاولتُ رأب هذا الصدع. . فأرّخت لشخصيّات هذه الروضة من الشعراء بعد الانتهاء من الترجمة. وقد رتّبتُ الشخصيّات وفق أولوية ورودها عند الجامي في الروضة.

والحقّ أن الجامي في كلامه عن الشعر لم يبرز دور العناصر: العاطفة والفكرة والصورة واللغة والموسيقى ـ كل عنصر على حدة ـ في تكوين النصّ الفني الشعري، ولم يتحدّث عن وجوب تكامل هذه العناصر داخل العمل الشعري الممتاز، وإنما أخذ يردد أقوال قدامى الحكماء ومحدثيهم، فيقول إن صدق المعاني وعدم صدقها لا يهمّ. . المهمّ أن يحمل الشعر إلى خيال السامع معاني تستوجب إقباله على محتوى النص أو إعراضه عنه. ويقول إن الشعر كلام موزون مقفّى، وأنه لا اعتبار في حقيقة ذلك للتخيّل وعدم التخيّل، والصدق وعدم الصدق. ويبدو من عدم تعقيبه على هذه الآراء أنه كان مقتنعاً بها.

كما أنه عندما ترجم لحياة الشعراء في هذه الروضة كان يفتقر إلى الحماس والعاطفة، وكان سطحي الأفكار، يعتمد على عبارات بعيدة عن التحليل، لا أثر فيها لاستخدام موازين دقيقة للحكم على الشخصيّة التي يترجم لها. ولم يعن أي عناية بسبر غور هذه الشخصيات أو التعبير عن الخواطر المتّصلة بها، وكان يلجأ إلى التعميم على نحو يجعل الوصف عاماً لا يخصّ شخصاً معيناً. ولافتقار كلامه في هذا القسم إلى التحديد جاءت نتائجه مفتقرة إلى التحديد، وجاءت أحكامه مفتقرة إلى الموضوعيّة.

ونتيجة لدراستنا لحياة الجامي وانفعالاته النفسية، ودراستنا لهذه الروضة. . يمكننا أن نؤكد أن الجامي لم يكن يكره الشعر والشعراء ـ كما يقول بعض الدارسين ـ كراهية مطلقة، وإنما كان يذمّ الشعر والشعراء

ـ أحياناً ـ لضيقه بتصرّفات المادحين المتزّلفين، أو لكراهيته لهذا اللون من الشعر الحافل، بالذلّة والتملّق. ولعلّنا نذكر أنه كان يعطي للأديب الحقّ في مدح الملك السخي ـ كما جاء في الروضة الرابعة ـ بشرط أن يبتعد عن التزلّف الممقوت. كما أننا بالعودة إلى بداية الروضة السادسة (هذه) نجد مدحاً في الشعر والشعراء بصفة عامة. وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه، ناهيك بأنه كان شاعراً ينظم بالفارسيّة والعربيّة.

وفي غمرة إظهار مشاعر الوفاء، يعمد الجامي في نهاية هذه الروضة إلى التحدّث حديثاً طويلاً ـ نوعاً ما ـ عن صديقه ومريده الوزير «عليشير نوائي»، ويمتدحه كما لم يمتدح أحداً من الشعراء.

الروضة السابعة:

يسرد فيها الجامي عدداً من القصص على لسان الحيوان ليقرِّر ـ عن هذا الطريق ـ كثيراً من المبادىء الأخلاقيّة والقيم الإنسانيّة.. وقد وُفِّق فيما قصده في معظم الأحيان. ومن المبادىء التي تزخر بها هذه الروضة:

١ ـ لا يتحقق الخلاص من الشرّ بغير الخلاص من الأشرار.
٢ ـ الكريم يأسره الكرم، واللئيم يعضّ اليد التي تحسن إليه.
٣ ـ القناعة مفتاح الراحة والسعادة، والحرص مجلبة للتعب والشقاء.
٤ ـ تُستَحب صداقة العدوّ تجنّباً لعداوته، وتُكرَه معاداة الصديق خوف انضمامه للأعداء.
٥ ـ لا تتوقع الخير من السِفلة.
٦ ـ لا تبد عجزك لعدوك طلباً لنواله.
٧ ـ الخوف مما هو خفيّ أبلغ من الخوف مما هو ظاهر جليّ.
٨ ـ إذا اتفقت الطباع صحّت الصداقة والألفة.
٩ ـ من يُرِد العيش على رزق حلال فليتجنّب كثرة العيال.
١٠ ـ مجاورة القوي تمنح الأمان، وتوحي بالاطمئنان.
١١ ـ يفعل الرجال ما يفعلون بقوّة هممهم لا بقوّة أجسادهم.

١٢ ـ يوم المعركة.. تكون الطعنة من الحربة، والدعوى من الرجل.
١٣ ـ لا أحد يعرفك أفضل من نفسك.
١٤ ـ إعرف قدرك والزم حدّك.
١٥ ـ الطمع والحسد أصل البؤس والألم.
١٦ ـ إذا لم يفد الكلام المعسول في كسب خصمك، فالجأ إلى ما يسوءه.
١٧ ـ إدفع أذى الشرّير بالحكمة لا بالتضرّع والتذلّل.

ونحسّ في بعض هذه المبادىء والقيم بروح الحِكَم والأمثال والأشعار العربيّة، على نحو يجعلنا نقرّر أن الجامي كان كثير القراءة في كتب العرب، يستفيد منها أيّما فائدة.

الـروضة الثامنـة:

خصّصها الجامي للفكاهة وحشدها بألوان الدعابات، وأجاز ذلك عقلاً وديناً. وبدأها بالدفاع عن ضرورة وجود المزاح في حياة الآدميين لإزالة الأحزان والأتراح، وذِكر ما أُثِر عن الرسول عليه السلام وعن علي كرّم الله وجهه في هذا السبيل من أقوال. ويمكننا أن نستنتج مما أورده من دعابات الرسول أنه قد اطّلع على كتب السيرة وتثقّف بها.

والجامي في هذه الروضة يذكر مغزى كلّ فكاهة يأتي بها.. في عدد من الأبيات ينظمها في نهاية الفكاهة، ويحاول أن يخرج منها بعظة تفيد القارىء، وتؤكّد الهدف في ذهنه.. وقد وفّق في ذلك.

وقلّ من النكات ما هو طريف أو يثير الضحك. وقد يكون في حكمنا هذا غبن للجامي، إذ أن ظروف عصرنا تختلف عن ظروف عصره، وروح شعبنا تختلف عن روح شعبه. وأنا أسلّم معه بوجوب الترويح عن النفوس، لكنني آخذ عليه انسياقه ـ وهو الصوفيّ المتديّن ـ وراء مسلك معاصريه، ولجوءه مثلهم إلى طرق باب الأدب المكشوف، وإيراده بعض النكات الخارجة عن حدود اللياقة. لقد قمت بترجمة هذه النكات مراعاة مني للأمانة

العلميّة، ولكني استعملت من الكلمات والعبارات ما يجعلها مقبولة معقولة.

وبعض النكات من أصل عربي، واطّلاعنا على المصدر الذي أُخذت منه يؤكّد لنا أنها مترجمة عنه دون تحريف يذكر.

كما أن الجامي يورد حكاية منظومة تعتمد في مغزاها على رأي لفقيه كبير، وهذا يدل ـ إلى جوار الكثير مما أورده ـ على اطّلاعه على كتب الفقه وفهمه في أمور الدين.

* * *

وانتهى الجامي من الروضة الثامنة، فأخذ يحدّث قرّاءه تحت عنوان: «خاتمة الكتاب»، وأكدّ لهم أن ما كتبه كان متعة لعقله وترويحاً عن قلوبهم، وأنه ناظم كل ما ورد بالكتاب من أشعار، وامتدح نفسه كشاعر، ثم رجاهم أن يتجاوزوا عن أخطائه ولا يفشوا عيوبه. وأنهى كتابه ببيتين من الشعر ذكر فيهما تاريخ التأليف، وهو عام (٨٩٢هـ ـ ١٤٨٧م).

وبعد. . فكتاب «بهارستان» كتاب متوسّط الحجم، يتخلّل نثرَه الشعرُ دون تكلّف أو افتعال، إذ الغرض من إيراده توضيح المعنى النثريّ وتركيزه.

أما السجع فقد التزمه الجامي ما أمكنه، فجاء متكلّفاً إلى حدٍ ما، ويمكن للقارىء أن يحسّ ذلك مع أوّل صفحات الكتاب.

وقد ابتعد الجامي عن الإطناب الممل، والإقلال المخل، والتشبيهات الخيالية، والمقارنات الشاذة، والنعوت، والألقاب الوصفيّة. . وكان أسلوبه في الجملة سهلاً بسيطاً غير معقّد.

وقد استعمل أكثر من ضرب من ضروب الشعر. ودلّل ـ من خلال استعماله لفن المُلَمَّع ـ على براعته في الصياغة وإتقانه التام للغة العربيّة. كما أن كثرة استشهاده بالآيات والأحاديث، واقتباسه القصص والأقوال والحكم والطرائف عن الكتب العربية، يدلّ على كثرة اطلاعه على كتب العرب الأدبية وغير الأدبية.

والكتاب في جملته كتاب أخلاقي تعليمي تـرفيهي فلسفي أدبي. وتتناسب روضاته الخمسة الأولى مع السابعة في طولها، أما السادسة والثامنة فإنهما تفوقان الجميع طولاً.

وإني لأرجو مخلصاً أن أكون قد وُفّقت في ترجمتي ودراستي، وأضفتُ لبنة متواضعة في صرح الدراسات الشرقية بصفة خاصة، والدراسات الإنسانية بصفة عامة.

«والله وليّ التـوفـيق»

أحمد كمال الدين حلمي

١٥/٦/١٩٨٥م





تَعريف بالمؤلف



سيرة الجامي . . مؤلف بهارستان

الجامي: هو نور الدين عبد الرحمن بن نظام الدين أحمد بن شمس الدين محمد الدشتي. لقّب بعماد الدين، واشتهر بنور الدين، وعرفه كتّاب التراجم بـ «ملاّجامي»[١].

تخلّص في بداية حاله بدشتي نسبة إلى دشت، مسقط رأس جده، ثم غيّر تخلّصه إلى جامي نسبة إلى ولاية جام ـ حيث وُلِد ـ وإلى شيخ الإسلام أحمد الجامي المتوفى سنة (٥٣٦هـ ـ ١١٤١م)، كما صرّح بنفسه[٢]. وُلِد في عام (٨١٧هـ ـ ١٤١٤م) في جو علمي ديني؛ فالجدّ عالم شهير يتولّى أمر الفتوى والقضاء في جام، وجدّته حفيدة الإمام الشيباني، ووالده مفتي قصبة خرجرد، يجيد العربيّة إجادته للفارسيّة، وعلى بد والده تعلم اللغتين، وأتقن مبادىء النحو والصرف، قبل أن يصحبه إلى هراة ليدرس في نظاميّتها على يد أفضل أساتذة عصره[٣].

يضاف إلى ذلك أن أخاه محمداً كان عالماً صوفياً يجيد معرفة علوم الظاهر، وله مهارة في علم الأدوار والخط والموسيقى، أما ابن أخته فشاعر يدعى هاتفي. . صار له وزنه في بلاط الشاه إسماعيل الصفوي، وصهر الجامي هو الكاشفي الواعظ العالم، ومرشده الروحي وجدّ زوجته إمام ومرشد، وأبوها حافظ عالم عارف، وعمّها نادرة زمانه حفظاً وعلماً ورشداً[٤].

وقد أنجب الجامي أربعة ذكور. . . عاش أحدهم إلى ما بعد وفاة

الجامي، ويدعى ضياء الدين يوسف، ويشتهر بذكائه ونبوغه.

لقد أثّر هذا الجو في الجامي كثيراً، فنشأ متديّناً عاشقاً للأدب محباً للعلم والمعرفة. كما أن ثراء والده وجاهه ورفعة منزلة سائر أفراد عائلته.. جعله زاهداً في المتع، عزيز النفس عازفاً عن المناصب.

وقد أهّله سعيه وأوصلته كثرة أسفاره إلى الإحاطة بكثير من العلوم والفنون، مما جعل كتاباته تتميّز بالتنوّع والعمق والنضوج الفكري، ومنحه القدرة على الاستيعاب والنقاش.

ونظراً لتفوّق الجامي على أقرانه في علوم الظاهر والباطن، وإجادته النحو والصرف والمنطق، والحكمة الطبيعية والإشراقيّة والرياضيّة، والفقه والحديث والتفسير والقراءات والموسيقى.. نجده يشيد بقدراته، ويقرّ بأفضليّته على الجميع. ورغم أن الإحاطة بتلك العلوم وإجادتها لا يتيسّر لأحد بغير الاستماع والاطّلاع والتلقين.. فإنه يصرّح بأنه لا أستاذ له سوى والده الذي علّمه اللغة. وإذا بدا هذا التصريح غريباً، فإن الأغرب منه أن يعترف أساتذة عصره بتفوّقه عليهم، ويرجعوا تبحّره في العلوم الظاهرية إلى قدرات يملكها.. خارجة عن قدرات البشر.

ويرسم الجامي صورة لتفوّقه حين يقول إن من جلس منهم جلسة الطالب كانوا يقلّون عنه علماً، أو أنه كان يمكنه الاستغناء عن علمهم في أيام معدودات. ويؤكّد أنه كان يملك من وجهات النظر ومن الآراء الصائبة ما تتضاءل أمامه وجهات نظرهم وآرائهم.

ويأتي هذا التصريح من الجامي في قوله:

«ما قرأت على أحد درساً على نحو يجعل له الغلبة عليّ.. بل كنت غالباً على الجميع في الأبحاث، أو كان بعضهم مساوياً لي أحياناً، وليس لأحد حقوق الأستاذية في ذمّتي، فأنا في الحقيقة تلميذ والدي الماجد، لأني تعلّمت منه اللسان»[٥].

ويُرجع الأساتذة قدرته هذه على الاستغناء عنهم إلى امتلاكه لقوة ذهنيّة

خارقة، ويؤكدون أنه ملهم لا حاجة به لأستاذية أحد، وأنه إنما يحضر دروس بعض أكابر الوقت لكون بعض العلوم الرسميّة متوقّفة على السماع ومنوطة بالاستماع. . وإلاّ فإنه في غير حاجة إلى التتلمذ.

وإذا رجعنا إلى كتّاب السير لمعرفة رأيهم في هذه القضيّة، وجدناهم يكتفون بتأكيد نبوغه وعبقريته الفذّة، ويشيدون بعِظَم اطّلاعه.

أما الباحثون المحدثون فإن منهم من يردد قول كتّاب السير، ومنهم من يُرجع اعترافه إلى غروره وكبره. . كالمستشرق ناسوليز[٦].

وبعد ثلاثين سنة من التبحّر في علوم الظاهر. . أصولها وفروعها، مال الجامي إلى العلوم المرتبطة بالتصوّف، وصار مريداً لسعد المِلّة والدين محمد الكاشغري، وتلقّى الذِكر عنه عن المولى نظام الدين خاموش عن خواجه علاء الدين العطّار عن خواجه بهاء الدين المعروف بنقشبند.

وهكذا حصّل الرياضيّات ومجاهدات الفقر والسلوك، ونال مقاماً عالياً في التصوّف، وأجيز لاحتلال مسند الطريقة وصار مقصد طلّاب المعاني.

وكان الجامي في طريق الدروشة تابعاً لشيخ الفرقة النقشبندية في عصره: عبيد الله أحرار. وقد أظهر لأساتذته الروحيين ولاء منقطع النظير، وصار بفضل إخلاصه لهم أحد عظماء هذه الطائفة، ولقيت آثاره رواجاً بينهم.

وقد عمل الجامي بالتدريس فترة، فكان يدرّس علوم الظاهر (العقليّة والشرعيّة) في مدرسة شاهرخ ميرزا بهراة. وكان يدرّس في رواق جامع هراة مبادىء الآداب والدين، ويحضر الأمراء التيموريون مجلسه للاستفادة[٧].

ورغم فضائله الصوريّة والمعنويّة ورغم كفاءته، نجده يرفض المشيخة ولا يقبل المريدين، إما لعدم ثقته في وجود المريد المخلص، أو رغبته في التفرّغ لإنقاذ المسلمين من شر الظَلَمة المتجبّرين. وقد اكتفى في هذا السبيل بهداية المرشدين إلى الطريق إمّا كتابة أو تلميحاً. وكانت الكتابة

وسيلته في الحديث عن آرائه ومعتقداته، وفي الترويج لفرقة النقشبنديّة. . . لهذا يُدخل النقشبندية آثاره في عداد الأدب الصوفي النقشبندي، ويعتبرونها من أهم وأقدس الآثار الصوفيّة.

وممن كان يعاملهم معاملة المريدين ـ إلى حدٍ ما ـ السلطان حسين بايقرا والوزير مير عليشير نوائي والعالم الأديب العارف عبد الغفور اللاري.

ويؤثر عنه أنه لم يكن يقرأ إلاّ النافع من الكتب، ويفضّل كتب الشرع والأدب ودواوين الشعر الصادرة عن بلغاء فصحاء على غيرها من الكتب، ولا يكفّ لحظة عن الاشتغال بعلوم الظاهر والباطن، أو يمضي أيام عطلته في فراغ وراحة بال.

وكان الجامي متديّناً متمسكاً بأحكام الشرع، يرجّح الحياة المعنويّة على الحياة الماديّة، لذا لم يكن يتذلّل طلباً لوظيفة أو يمتدح شخصاً بما ليس فيه. كما كان متواضعاً صريحاً خالص العقيدة لله، تشغله الأفكار والرياضات النفسيّة. . لكنها لا تلهيه عن الضروري من شؤون الحياة.

كان يرجّح عقيدة التصوّف على مبادىء المتكلمين، ويرى أن عقائد الفلسفة لا وزن لها فهي لا تعادل مبادىء المتكلّمين ولا تعاليم الصوفية، وما الفلاسفة إلاّ جماعة منحرفة عن صراط الشريعة المستقيم لا يجب أن يقتدى بها، إذ أن نور الحقيقة لا يوجد إلاّ في قانون الدين.

وكان يجلّي تفاسير المفسّرين ويناقشها، ويضع تفاسير من لدنه تستند على أسس عقليّة وتدلّ على دراية وفهم. . مستهدفاً خدمة العِلم والمسلمين.

ويرى أتباعه أنه كان يكثر من الحج ويؤدي الشعائر دون شعور منه، وأنه كان يمتدح ساكني الأماكن المقدّسة من سنّة وشيعة لكي يخفي مذهبه، وليؤكّد كراهيته للتعصب.

وكان الجامي يتغنّى بالفضيلة، ويحذّر الرياء والنفاق، ويذمّ الخمر

وشاربيها، والمخدرات ومتعاطيها[8]، وكان يتغنى بالخمر. . لكنّه كان يعني الخمر الإلَهية.

وكان يرى ألّا يقتصر الإحسان على الأخيار دون الأشرار، وينفق ابتغاء وجه الله في سخاء، ويرى أن حبّ الإنسان لأخيه هو الوفاء، وأن المحبّة الذاتية أسمى أنواع الحب.

ويحثّ على الإخلاص في العمل، والاعتراف بالجميل، ويفخر بالقناعة وعزّة النفس، ويجيز المزاح والمداعبة البريئة، ويتّخذ من الفكاهات ـ ككاتب ـ فرصة للنقد ومهاجمة الأدعياء والتعاطف مع الأوفياء[9].

وقد أثّر التصوّف في حياته بعمق. . فكان إلى جانب تسخير وقته لخدمة الصوفيّة والحديث عن كبار المتصوّفة ـ خاصة النقشبنديّة ـ وشرح كلماتهم والدفاع عن مبادئهم ومهاجمة المنحرفين. . كان إلى جانب ذلك، يثبت أصول مبادىء العرفان وفق رؤيته، ويشرحها ويبسطها بعبارات خاصة تعبّر عن أحاسيسه وتعكس أفكاره. فله أقواله في العشق والعاشق والمعشوق، وفي مراحل وصول العاشق بمعشوقه وفي أهل الوصول، وأهل السلوك والزهّاد والفقراء، والخُدّام، والعبّاد. وله أقواله حول التوحيد ومراتبه، وحول الجبر والاختيار. وله تعاريفه الخاصة لبعض المصطلحات الصوفيّة. . كالولاية، والفناء، والبقاء، والأصالة، والحزن والغم.

وله حديث طيب عميق الدلالة حول المحبّة الذاتيّة والشباب، والشيخوخة، والذِكر الخفي، وذِكر الجهر، وكلمات أولياء الله.

وكان يتوجّه إلى التصوّف بمعناه الأصلي والباطني لا بمعناه المجازي الذي لا يعدو تقليد الرسوم والآداب الظاهرية لطائفة المتصوّفة، لذا نجده يعيب بشدة على من يقبعون في الزوايا ويرابطون بالصوامع وأماكن العبادة. . . بينما تسيّرهم أهواؤهم.

ومما قاله حول هذا الأمر في منظومة وردت بالدفتر الأول من سلسلة الذهب:

* إحذر صوفية المدينة والديار، فكلهم جبناء يكلل هاماتهم العار.
* لا همَّ لهم سوى النوم وملء البطون، لا يشغلهم التفكير في الموت والمنـون.
* في وجوه المعاش يفكّرون، وإلى كل مائدة وطعام يتّجهون.
* استبدلوا منازلهم بمكان أسموه الخانقاه أو التكيّة.
* نثروا فيه أثمن الآنية، وبسطوا فيه الفرش السندسية.
* وأعدّ كلٌ منهم الكانون وآلة الطهي والوعاء، وبات تراوده الآمال...
* عيناه على الباب.. في انتظار من يأتي من القرية أو المدينة.. من الرجال.
* ليحضر رطلين من اللحم أو ثلاثة، ويحضر مع اللحم دقيقاً.
ليمكّنه شيخ الزمان من الجلوس بين يديه، ويتّخذه رفيقاً.
* فيفخر على زملائه ويتطاول، ويكيل لهم اللغو. ويُلبس الحق بالباطل.
* ليست هذه صوفية وحريّة.. بل هي مجرد قوادة وبليّة.
* والشيخ والصوفي بهذا وأكثر منه يوصمان.. فاعفني من الكلام..
وليس للحقير الحق في أن تطلق عليه مثل هذه الأسماء، ويُدرج بين الأعلام(١٠).

وكان يعمد إلى الإقلال من الكلام في التصوّف إلّا مع أهله، ويعتبر الإعراب عنه لغير ذائقه ستراً وتلبيساً، والإظهار لغير واجده إخفاءً وتدليساً، لكنه أكثر من الكتابة حوله.

ولانتسابه إلى فرقة النقشبنديّة السنيّة المعتدلـة التي اجتذبت كبـار السلاطين وعظمـاء التيموريين، وانتشـرت دعوتهـا في بخارى وسمـرقند وخراسان والهند.. كان دائم المدح للطريقة وأتباعها، دائم الذمّ لأعدائها، ومما قاله في حقّها:

تمحو بصحبتها عن قلب سالكها هم الرياضات والخلوات والهمم
لها سلاسل من نظم الأسود فهل يحتـال ثعلبة في حـلّ نظمهم

إن ينسب القاصر الفهم القصور لها فحاش لله أن يجري بذاك فمي[11]

وقد اختلف الباحثون والدارسون حول عقائد الجامي، فمنهم من عده صوفياً مخلصا، ومنهم من عدّه ناصباً[12]، ومنهم من اعتبر تعاليمه من مقولات الكفر والزندقة، ومنهم من عدّه من خيرة علماء المسلمين وأسند إليه مرتبة الولاية.

وعن طريق أشعار الجامي وأقواله.. أثبت البعض تشيّعه وأثبت آخرون سنيّته، وأكد الكثيرون أن مبادئه في علوم الظاهر مبنيّة على أصول عقائد المتكلمين من الأشاعرة وفقهاء الشافعية. غير أن الجميع قد اتفقوا على أنه كان يسلك في علوم الباطن مسلك العارفين، ويقطع مراحل طريق التصوّف وينخرط في سلك مريدي السلسلة النقشبنديّة في ما وراء النهر.

ولقد أمضى الجامي الجزء الأساسي من حياته في هراة حيث كانت تمتزج عقائد شيعة خراسان والعراق بعقائد سنّة أفغانستان وتركستان، ولهذا جمع في كتاباته بين إجلال الخلفاء الراشدين والصحابة وبين ذكر فضائل الأئمة الإثني عشر، ولم يجعل نفسه طرفاً في النزاع بين الشيعة والسنّة، ولم يشارك في المشاجرات الدائرة بين المتكلّمين والأشاعرة، وتخلّص من عداوة غلاة الشيعة والرافضة بحسن منطقه وسلامة تفكيره.. فدلّل بذلك على صفاء باطنه ورجاحة عقله.

وكان الجامي يبني آراءه في مسألة الجبر والاختيار على عقائد الأشاعرة، ويرى أنه ما أصاب الإنسان من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه.

وإذا كان قد أثبت استياءه من العداء الناشب بين السنّة والشيعة في محاولة لإخفاء موقفه منهما، وذلك في قوله مثلاً:

* يا ساقي الدهر أعطني كأس خمري..
فقد تقيّأت لما بين السنّة والشيعة من نزاع.

* يسألونني: ما مذهبك يا جامي؟

الحمد لله كثيراً، فما أنا بكلب السنّة ولا حمار الشيعة[١٣].

.. فإن هذه المحاولة لم تفلح في إخفاء مطابقة أصول عقائده لمبادىء المتكلّمين عامّة، وأهل السنّة والجماعة خاصّة. ولقد تنبّه العالم الشيعي القاضي الشوشتري إلى هذا فجوّز طعن الجامي ولعنه وذمّه، لأنه إلى جوار مدحه آل البيت والأئمة الإثني عشر.. قد كفّر أبا طالب، وساوى بينه وبين أبي لهب.

والحقّ أن في كتاباته ما يرجّح هذا.. ففي «نفحات الأنس» نجده يحجم عن ذكر مشاهير مشايخ العرفان والتصوّف من الشيعة، ولا يخطّ سطراً واحداً في شرح حالهم، بينما يسهب في الحديث حتى عن أتفه الشخصيّات السنيّة، ممن وصفهم بأنهم كانوا فاقدي الشعور، وعاب عليهم عدم مراعاتهم شروط الطهارة والنظافة وستر العورة، ونسب إليهم إهمال الفرائض والنوافل.

وفي مؤلّفاته الأخرى يذكر اسم بعض صوفيّة الشيعة.. وقد يكتفي بالاسم أو يردفه بالتافه من الأخبار.. فيقول مثلاً حين يذكر آذري:

هو آذري أسفرايني، وفي أشعاره الكثير من المباهاة التي لا أساس لها.

وحين يحسّ بأن موقفه سوف يفسّر على أنه كاره لصوفيّة الشيعة.. يذكر من الأقوال ما يبدي اعتراضه على تصرّفات المغالين منهم لأنها لا تساير تعاليم الدين.

وقد استند البعض في إثبات تشيّعه إلى مدحه عظماء الشيعة.. لكنه على ما يبدو كان في هذا الأمر مجارياً لأهل السنّة الذين يكنّون لهؤلاء العظماء كلّ احترام، كما أنه كان يستخدم العبارتين: (رضي الله عنه) و(كرّم الله وجهه)، ولا يستخدم عبارة: (عليه السلام) كما يفعل الشيعة.

* * *

وُلِدَ عبد الرحمن الجامي عام (٨١٧ هـ ـ ١٤١٤ م) ـ كما ذكرنا ـ وطال به العمر فشهد اندثار وقيام أكثر من دولة وأدرك ثلاث فتن دمويّة.

أولاها: فتنة نشبت بعد وفاة شاهرخ (٨٠٧ / ٨٥٠ هـ ـ ١٤٠٤ / ١٤٤٧ م)، وهو الحاكم الذي أكثر من الفتوحات، وأرسى قواعد ملكه على شريعة الإسلام[١٤]... والذي أدّى موته إلى سقوط الدولة بسرعة كبيرة في يد القره قوينلو، ومن بعدها الآق قوينلو، ثم الأوزبكيين فيما وراء النهر.. قبل أن يديلها الشاه إسماعيل بصفة نهائية[١٥]، ولهذا يعتبر المؤرخون موته فاصلاً بين عهدين: عهد القوة وعهد الضعف.

ثانيتها: فتنة نشبت بعد وفاة أبي القاسم باير بن بايسنقر بن شاهرخ (٨٥٦ / ٨٦١ هـ ـ ١٤٥٢ / ١٤٥٧ م)[١٦].

وثالثتها: فتنة نشبت بعد وفاة أبي سعيد (٨٧٣/٨٨٥هـ ـ ١٤٦٨/ ١٤٨٠م)[١٧].

وقد كانت إيران ـ في حياة الجامي ـ مقسّمة بين دولتين:

١ ـ التيمورية في الشرق، وعاصمتها سمرقند.

٢ ـ تراكمة القراقوينلو ومن بعدها الآق قوينلو في الغرب والجنوب.. وعاصمة كل منهما تبريز. وكان عدم الاستقرار هو السِمة الغالبة آنذاك.. غير أن الأمان عمّ البلاد فترة أربعين سنة تقريباً عندما تسلّم السلطان الأديب[١٨] حسين بايقرا مقاليد الحكم عام (٨٧٥هـ ـ ١٤٧٠م). وقد استفاد الجامي من فترة الأمان هذه مدَّة خمس وعشرين سنة تقريباً، إلى أن وافته المنيّة، إذ وفّرت له المناخ المناسب لكتابة معظم أعماله النثريّة والشعريّة.

وساهم في ذلك أيضاً أن الاستقرار في النصف الغربي والجنوبي من إيران كان في هذه الفترة لا يقلّ عنه في القسم الشرقي.. نتيجة وجود حاكمين قويين هما: أوزون حسن وابنه يعقوب. كما كان الاستقرار أيضاً

يسود العراق وأذربيجان وفارس وما بين النهرين.

وجادت قريحة الجامي بأعمال أدبية رائعة فروى غلّة عشّاقه ومريديه، ولفت أنظار السلطان حسين فكرّمه وبالغ في احترامه، وصار يقبل شفاعته للوزراء والعظماء والدراويش في أي أمر من الأمور. وارتبط به بروابط معنويّة، وكان يهمّه أن يمنحه بركته قبل الحرب وتوجيهاته عند الصلح. وفي كتابه: (مجالس العشاق)، أفرد المجلس الخامس والخمسين لشرح حال الجامي، وإيراد حكايات وأبيات حول عشقه، وتسجيل غزليّاته.. وقال في حقّه:

«كان من لا يفي الحديث بوصف كلامه السامي مولانا عبد الرحمن الجامي، أوحد عصره في علوم الظاهر والباطن، وقد ترك وراءه مصنفات كثيرة خالدة على صفحة الزمن، وأجاد في كل ضروب الشعر من قصيدة وغزل ومثنوي ورباعي وقطعة ومعمّى[١٩]، وألّف على طريقة الصوفيّة أمثال حضرة الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ صدر الدين القوينوي»[٢٠].

وقد بادله الجامي المدح والاحترام والحبّ، وصدّر العديد من كتبه باسمه. وقد توفي الجامي في عهد هذا السلطان، فسيَّر خلف جنازته من ينوب عنه من الأمراء لمرضه وأخذ يبكيه وينهنه بصوت مسموع.

والحقّ أنّ الجامي[٢١] كان شديد الولاء للتيموريين، كارهاً لأعدائهم، وثيق الصلة بوزرائهم خاصة الوزير العالم الأديب مير عليشير نوائي، الذي يرجع إليه الفضل في رواج سوق الأدب والعلم في أواخر القرن التاسع الهجري، وبروز الآثار الأدبية الكبيرة ومن بينها آثار الجامي، ورعاية الفقهاء والصوفيّة[٢٢]، والعناية بالنقّاشين والموسيقيين[٢٣].

وكان ميرعليشير نوائي ينزل الجامي منزلة الصديق والشيخ، ويسلك وادي التصوّف تحت إرشاده، وينتمي إلى طريقته النقشبنديّة، ويبادله المديح، ويقبل منه كتبه التي يصدّرها باسمه.

وقد مات الجامي في حياته، فخصّص كتابه: (خمسة المتحيّرين) في

وصف مراسم عزائه والتغنّي بمآثره. ورثاه بمنظومة تتألف من ٧٠ بيتاً[٢٤].

كما كان الجامي على صلة وثيقة أيضاً ببابر، يكثر من مديحه، وقد صدّر أكثر من كتاب باسمه. وكان على صلة بخلفه السلطان أبي سعيد بن محمد بن ميرانشاه بن تيمور (٨٦١/٨٧٢هـ - ١٤٥٧/١٤٦٧م)... وكانت الصلة من القوّة بحيث كان غياب الجامي عن المجلس السلطاني يتسبّب في تكدير الجو وتعكير مزاج السلطان[٢٥].

وكان للتيموريين بلاطهم في دهلى، وقد وصلت شهرة الجامي إلى تلك الديار فوجدت في مجموعة مراسلاته فقرات من خطابات كان يرسلها إلى جلال الدين غياث الملك المقيم بتلك الديار، وهو شخصية بارزة يلقّب صاحبها بلقب «ملك تجّار الهند».

ومن الدول التي عاصرها التيموريون، وساهمت في توجيه أحداثهم:

أ ـ دولة التركمانيين في العراق وأذربيجان. والثابت من رسائل الجامي وأشعاره أنه كان على علاقة وطيدة بأبرز حكّامها، وبواحد من كبار وزرائها.. وهو القاضي عيسى الساوجي. وكان من بين حكّام هذه الدولة ووزرائها من ينظم الشعر ويتذوّق المعارف ويؤلّف الكتب.

ب ـ دولة السلاطين العثمانيين، وكان الجامي على علاقة بسلطانين كبيرين في هذه الدولة، هما: محمد خان (٨٥٥/٨٨٦هـ - ١٤٥١/١٤٨١م) وبايزيد خان الثاني (٨٨٦/٩١٨هـ - ١٤٨١/١٥١٢م). بالإضافة إلى صلته بالعديد من الأئمّة والقضاة في هذه الديار[٢٦]. والثابت أن أهل الروم كانوا يعتقدون في صحّة حكمه على الأمور، ويستشيرونه ويأتنسون برأيه[٢٧]. وعلى أي حال، فقد أثّر هذا الجو ـ بكل أحداثه وشخصياته وما فيه من وسائل التشجيع ـ على إنتاج الجامي كماً ونوعاً، وساعد على انتشار مؤلّفاته، وعدّد الأسواق أمام آثاره.

وقد برع في اتخاذ موقف محايد من كل هذه الدول والأُسَر التي ارتبط بها، فلم يُبد تعصباً لإحداها دون الأخرى. بل إنه قد سار في طريق التصوّف

ليكتسب ثقة الحكّام ممن يجلّون الصوفية، وليسخّرهم لخدمة الرعايا والرأفة بهم، إلى جانب استفادته الشخصيّة منهم أدبياً ومادياً ومعنوياً.

والدارس لهذه الفترة يتأكد له أن محيط الجامي كان يزخر بالأدباء، فبلاط محمد خان وحده ـ على سبيل المثال ـ كان يضم تسعة وثمانين أديباً. كما يتأكّد له أن عدّة مراكز علمية وأدبية قد استُحدثت، وأن بعض الآثار العلمية والأدبية التي تمّ تأليفها كانت تتميّز بالجودة، بينما حفل معظمها بما يعيب.. من نقص في البيان، وقصور في العبارة عن أداء المعنى نتيجة سوء التعبير، واتّسام بالطول والفتور، وثقل في اللفظ، وضعف في الاصطلاحات والإضافات اللفظية، وإطناب في الكلام، وضعف في الإبداع، وقلّة في الابتكار، وإفراط في إيجاد المضمون، وتكلّف وكثرة صناعات بديعية يضيع معها صفاء الأسلوب وسلامته.

ويرى البعض أن تدنّي مستوى الشعر ـ في تلك الفترة ـ يرجع إلى كثرة الشعراء[٢٨]، غير أني أرى أن السبب الأساسي في ذلك هو التكلّف والاهتمام بالاستعارات، بالإضافة إلى عدم التخصّص.. فقد ظهر من بين من ينظمون الشعر من يمتهنون حرفاً صغيرة، وظهر من بينهم الجنود والعلماء والقضاة والأطباء ورجال الدين والأمراء والوزراء والسلاطين.

وبالنسبة للشعر العربي، يمكننا أن نؤكّد أنه قد فقد رونقه السابق، وقلّ من القصائد ما وجدناه في نفس المستوى الجيد الذي وجدنا عليه قصيدة شاه نعمت الله ولي على سبيل المثال[٢٩]. ولقد بات تركيز الشعر منصبّاً على الشعر الملمّع الذي تميّز بالركاكة والضعف وسوء العبارة في معظم الأحيان.

وقد دخلت الشعر الفارسي ألفاظ مغوليّة وجغتائيّة نتيجة الفتوحات، وجاءت فيه بعض المعاني والموضوعات الجديدة.. لكنّها لم تكن من الكثرة بحيث تمنح الشاعر شخصيّة مستقلّة. بل إن كمال أستاذية الشعراء كانت تتمثّل في حسن تقليدهم لمشاهير الشعراء السابقين.

وفي هذه الفترة، كُتب الرواج للشعر المذهبيّ والأفكار العرفانيّة، وقلّت

المنظومات الحماسيّة، وزاد شعر المديح على نحو كان يُخفي شخصية الشعراء في معظم الأحيان[٣٠].

وقد تبدّى هذا كله في مؤلّفات الجامي، وإن تميّز على معظم معاصريه برفضه التزلّف والرياء.

وينظر النقاد إلى الجامي كواحد من أكبر شعراء الإسلام المتصوّفين الذين ظهروا في القرن التاسع الهجري، ويقرّون بذوقه اللطيف وحبّه الفطري للجمال. وينسب البعض إليه تغزّله بالمنظور، وعشقه الوجه الجميل والشعر الجيد، مما جعله يلجأ إلى قريحته الوقّادة وخياله الخصب ليثبت على الأوراق أبياتاً خالدة تبقى مع الزمن، وتتميّز بخلوّها من الدناسات. والحقّ أنه كانت تغلب على أحواله جذبات العشق والمحبّة، فإذا ما تناول الحبّ بالوصف كتب عنه كأروع ما يكون الحبّ، وأفضل ما تكون الكتابة؛ إذ كان منشأ المحبّة عنده يرجع إلى لمسات الفيض الروحاني لا إلى وسوسة الأهواء النفسيّة. والهدف منها لديه هو حصول آلام الهوى وتباريح الجوى، وليس التفكير في راحة القلب وسعادته مبتغاه من ورائها.. فما طلب الراحة وتحصيلها من المحبوب إلاّ مِن هوى النفس كما يقول.

ونتيجة لطبع الجامي الوقّاد وقريحته المتوثّبة.. صار رائداً في عالم الشعر، خاصّة في تلك الفترة التي كان يطوي فيها وادي السير والسلوك، ويتّخذ فيها من صنعة الشعر ومن الشاعريّة ساتراً لأحواله وحجاباً لسرّ حاله. لقد كان يهرب آنذاك إلى الشعر متّخذاً صورة الشاعر.. إذا ما اتفق له أن صاحب الخواص.

ونتيجة لذلك الطبع وتلك القريحة أيضاً تمكّن من إنتاج العديد من المؤلّفات المنظومة التي توضع في مصافّ أفضل آثار العشق والغرام، والتي يراها البعض من أفضل ما يُتوقّع من أشعار غنائية في اللغة الفارسيّة «ولا يملك الدارس إلاّ أن يسلّم برأيهم.. خاصة عندما يقرأ منظومتيه ليلى والمجنون ويوسف وزليخا»... وهما نتاج عقله الثائر وخاطره المستجيب

للجمال، وميله إلى التصوّف في شرخ شبابه.

ولا شك أنه كان يعرف رفيع منزلته في دنيا العشق، مما جعله يردّد في مقدّمة مثنويّته: «يوسف وزليخا» أن أولى خطواته في الدنيا كانت في طريق العشق، وأن القابلة قد قطعت سرّته بسيف العشق، ثم أرضعته أمّه العشق عنوة، ثم يقول مناجياً نفسه:

* ما دمت يا جامي قد هرمت في العشق...

فكن خفيف الروح، وافنَ في العشق(٣١).

وتمتاز مؤلّفات الجامي المنظومة ـ إلى جانب روعتها ـ بالكثرة وتعدّد الأغراض، ومما وصلنا منها:

١ ـ ثلاثة دواوين غزليّة تعليميّة، عناوينها:

أ ـ فاتحة الشباب.

ب ـ واسطة العقد.

جـ ـ خاتمة الحياة.

٢ ـ سبع مثنويات، يطلق عليها (هفت أورنگ)، عناوينها

أ ـ سلسلة الذهب.

ب ـ سلامان وأبسال.

جـ ـ تحفة الأحرار.

د ـ سبحة الأبرار.

هـ ـ يوسف وزليخا.

و ـ ليلى والمجنون.

ز ـ خردنامهٔ إسكندري.

٣ ـ ترجمة أربعين حديثاً نبوياً.

٤ ـ رسالة في المعمّى.

٥ ـ رسالة في تجنيس الخط.

وإلى جانب هذه الآثار الشعريّة الخالصة، توجد آثار للجامي يختلط فيها الشعر بالنثر بطريقة موضوعيّة لا تكلّف فيها، منها:

١ ـ نقد النصوص في شرح نقش الفصوص لمحيي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي، ويرجع تأليفه إلى عام (٨٦٣هـ ـ ١٤٥٩م).
٢ ـ اللوائح، وهي رسالة في التصوّف يرد النثر فيها مسجوعاً، وتدخل الرباعيّات في تركيبها.
٣ ـ أشعة اللمعات: شرح لكتاب (اللمعات) الذي وضعه ابن عربي في التصوّف.
٤ ـ رسالة منشآت: تجمع الرسائل المتبادلة بين الجامي وعدد من كبار الشخصيات. ويدخل في تركيبها قطعات منظومة، ويستعمل فيها فنّ المعمّى البلاغي.
٥ ـ بهارستان: كتاب يبدو فيه التناسب في القسم المنظوم أكثر منه في القسم المنثور، تأتي فيه الأبيات الشعرية لتعميق المغزى وتجلية المعنى، وتخصّص فيه الروضة السادسة للحديث عن الشعر والشعراء.
٦ ـ ني نامه (رسالة الناي): في شرح البيت الأول من «المثنوي المولوي» لشاعر العرفان: جلال الدين الرومي:

بشنو ازني چون حكايت ميكند وز جدائيها شكايت ميكند[٣٢]

٧ ـ رسالة في شرح الرباعيّات: رسالة في التوحيد ومعرفة ذات الحق، وشرح الجلوات المختلفة لجماله بطريقة صوفيّة. وفيها يشرح الجامي ٤٤ رباعيّة كان قد نظمها قبل وضع هذه الرسالة.
٨ ـ لجّة الأسرار: قصيدة في التصوّف.

وللجامي إلى جوار ما ذكرنا رسالات حول الشعر، من بينها:

١ ـ الرسالة الوافية في علم القافية.
٢ ـ رسالة في العروض.

ومن التواريخ التي ذكرها الجامي والتي تحدد زمن تأليف منظوماته،

نستنتج أنه قد ألّف أفضلها في أواخر عمره، وأنه لم ينظم في دور الشباب وأواسط العمر سوى غزليّاته التي ضمّنها ديوانيه الأول والثاني، وأنّ معظم مؤلفاته كانت في عهد السلطان حسين بايقرا.

وقد رتّب الجامي ديوانه للمرة الثالثة في عام (٨٩٧هـ ـ ١٤٦٢م)، وأضاف إليه أبياتاً جديدة. . . وهذا يدل على أنه ظلّ يؤلف إلى ما قبل وفاته بعام، ولم يكفّ عن ذلك ـ كزعم البعض ـ ويكرّس الفقرة الأخيرة من عمره للكتابة في علوم ما وراء الطبيعة، أو يقصر جهده على كتابة شروح وتفاسير وتآويل على المذهب الصوفي. . «بحجّة أن نظم الشعر مطلب طائش لا يستحق اهتمام المتأمّل في قوانين الحكمة المرتبطة بالطبيعة»[٣٣].

وكان الجامي يجمع إليه كل مميزات الشاعر الناجح: موهبة، وحساسية مفرطة، وعقلية ناضجة، وثقافة عميقة. وكان في قرارته يميل إلى الابتكار والتعفّف في القول، ويملك طلاوة الأسلوب وحسن الأداء. . . مما جعل أصحاب اللسان الفارسي في إيران وتركستان والهند يسلّمون له بالأستاذيّة في هذا الفن، ويلقّبونه بخاتم الشعراء، مؤكّدين أن آلات الشعر والشاعريّة ـ التي كانت تعمل بأسلوب قدامى الأساتذة في خراسان وفارس والعراق ـ قد توقفت بموته، وأنه لم يعد هناك من بعده إدراك وفهم ومعالجة للشعر والشاعريّة بنفس الأسلوب الذي كان يسير عليه هو ومن سبقوه من الأساتذة الذين عاشوا في الأماكن المذكورة.

ومن مادحي الجامي الأديب الفارسي علي أصغر حكمت الذي يقول: لم يطلع في أفق الأدب الفارسي نجم له ما لنجم الجامي من سطوع وبريق مذ كان القرن التاسع الهجري وحتى القرن الثالث عشر الهجري على الأقل»[٣٤].

ومنهم أيضاً المستشرق الإنجليزي براون الذي يقول: «وإذا لم يكن الجامي خاتم الشعراء فهو بالتأكيد من كبار أساتذة الشعر. وإذا كان هناك من بين الأساتذة من يضارعه أو يفوقه في بعض المواضع، فإنه لا يوجد من بين

أساتذة الكلام والمتحدّثين بالفارسيّة من الشعراء والكتّاب من بلغ درجة كماله من حيث تنوّع الموضوعات التي طرقها، وابتكاراته في فنون شتى. ولم ينجح أحدهم نجاحه في تلك الحقول التي أجرى فيها تجاربه.. على كثرتها»[٣٥].

وهناك من يعترضون على وصفه بخاتم الشعراء وآخر العظماء من شعراء الفرس القدامى، فهذا أحدهم يقول:

«الجامي من أشعر شعراء فارس، بزّ أفضل الشعراء بالكثير من أحكامه الصائبة. ويرى الكثير من نقّاد الأدب الفارسي أنه كان آخر العظماء من مؤلّفي الفرس القدامى، وأنه لم تعد هناك بعده مادّة تضاف للأدب الفارسي.. وهذا القرار ليس صائباً ولا ثابتاً على طول الخط. ويدحضه انتعاش المنشآت والآداب الفارسيّة ونهضتها في منتصف القرن التاسع عشر الهجري.

وإذا لم يكن هناك خلاف أساسي حول أساليب المنشآت الأدبيّة وموضوعاتها، فهناك العدد الكبير من النثّار والشعراء الذين تجمّعوا في بلاط الفاتح علي شاه، وبلاط نصر الدين شاه.. من سلالة القاجاريين، في حوالي النصف الثاني من القرن ١٩م، ممن أكّدوا التقاليد المرعيّة عند الفرس القدامى وساروا على نفس أصولها باذلين في ذلك جلّ اهتمامهم.

ويستحقّ كل من (نشأت) بين ناظمي الغزل، و(قا آني) بين منشئي القصيدة إلى مقارنة دقيقة.. تعقد بينهما وبين أكبر زعماء الغزل والقصيدة.

فالقرار ـ بناءً على ذلك ـ ليس صحيحاً بصفة مطلقة، وليس فيه سوى القليل من الصدق.. فهو صادق حين يؤكّد أن الأدب الفارسي قد بلغ قمّة الإتقان ـ في كل فروعه وألوانه ـ على يد الفردوس، ونظامي، والأنوري، والرومي، وسعدي، وحافظ، والجامي، وهو خاطىء تماماً حين يؤكد أن الأعمال الأدبية العظيمة التي خلّفها الجامي ليست أعمالاً قيّمةً محترمةً، أو أن

منبع الإلهام لأمزجة الفرس قد جفّ بعد الجامي، وأن العقليّة الفارسية قد أجدبت»[٣٦].

ورأيي فيما يتعلق بهذا الأمر أن الجامي لا يمكن أن يكون آخر عظيم بين الشعراء ما دامت هناك حياة وما دام هناك عشّاق للشعر. وإني لأرجو أن تتاح لي الفرصة لدراسة الأدب عامّة والشعر خاصّة في عهد القاجاريين.. لأتمكن من إعطاء رأي أدقّ فيما يتعلق بهذه النقطة. غير أني أستنتج من تلك الخلافات وهذه الآراء المتباينة أن الجامي كان شاعراً عظيماً يستحق أن يثور حوله الجدل ويحتدم النقاش. كما أستشف منها أنّه قلّ من بين الشعراء الإيرانيين من استطاع أن يحقق ما حققه من احترام وإجلال وثروة وجاه، أو أن يحظى بشهرة تعادل شهرته الواسعة. ولعل هذا ما جعل طباطبائي يقول:

«الجامي هو عالم الشعراء، وشاعر العلماء، والعارف في كلتا الطبقتين»[٣٧].

وقد استفاد الجامي من إجادته اللغة العربيّة فنظم بها ونثر، ودبّج قلمه المؤلّفات التالية:

١ ـ الدرّة الفاخرة في تحقيق مذهب الصوفيّة والمتكلّمين والحكماء.
٢ ـ رسالة التوحيد.
٣ ـ رسالة في تحقيق مذهب الصوفيّة والمتكلّمين والحكماء والمتقدّمين، وتقرير قولهم في وجود الواجب لذاته وحقائق أسمائه وصفاته.
٤ ـ شرح الجامي على نصوص الحكم لابن عربي.
٥ ـ شرح الجامي على كافية ابن الحاجب (الفوائد الضيائيّة).
٦ ـ شرح دعاء القنوت.
٧ ـ شرح الرسالة الوضعية لعضد الدين عبد الرحمن الإيجي.

وانعكست الأفكار والآداب العربيّة في قصائده الأخلاقيّة ومثنويّاته السبع بوضوح، فكأنما ألبس الكثير من أعمال شعراء العرب كسوة اللغة الفارسية بأفضل لسان وأحلى بيان. ويمكن القول بأنه أعظم وأمهر كاتب ـ بعد سعدي

الشيرازي ـ نقل الآداب العربية إلى الفارسية.

ومن مؤلفاته الشعريّة ذات الأصل العربي:

١ ـ ترجمة الأربعين حديثاً النبويّة.

٢ ـ مثنوي يوسف وزليخا.

٣ ـ قصة سلامان وأبسال.

٤ ـ مثنوي ليلى والمجنون (مقتبس عن ديوان قيس العامري وما فيه من حكايات وأشعار عن قيس مأخوذ عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني).

٥ ـ هناك أكثر من موضع في مثنوي «إسكندر نامه» يدلّ على أن النتاج العربي هو الأساس.

وهكذا اغترف الجامي من كنوز العربيّة لآلىء نثرها على بساط علومه، فأشعّت في صفحات كتبه الخالدة. وأقدم على الترجمة من العربيّة إلى الفارسيّة، ونجح في أن يلبس أصل المعنى في ترجمته ثوباً آخر، وأن يترك الإيجاز ـ في الغالب ـ إلى الإطناب، وأن يضيف من لدنه ما يضفي على الموضوع جلالاً وبهاءً.

وقد اتّسمت كتاباته بالتنوّع والعمق. ويرجع أقدم مؤلّفاته، ونعني به حِلية الحلل، إلى عام (٨٥٦هـ ـ ١٤٥٢م)، وهو في التاسعة والثلاثين من عمره. وقد ظلّ يؤلف إلى ما قبل وفاته بعام.

وقد اجتهد البعض في حصر هذه المؤلفات، فأوصلها سام ميرزا إلى ٤٥ مؤلفاً، وضع بها فهرساً[٣٨]. أما بسوديِ فإنه يؤكد أنها تسعة وتسعون بعدد أسماء الله الحسنى، ويقول: «لقد صنّف الجامي تسعة وتسعين كتاباً، يتقبّلها أهل العلم والعرفان في إيران وتوران والهند ولا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك»[٣٩] ونلاحظ أن بسودي لم يُعن بذكر أسماء هذه الكتب.

ويقول عبد الغفور اللاري أن عدد كتب الجامي ٤٧، ويورد أسماء ثلاثة كتب لا وجود لها في فهرست سام ميرزا، وهي: شرح أبي رزين

عقيلي، ورسالة في الواحد، والصرف الفارسي المنظوم والمنثور. ويرى البعض أنها توافق العدد الناتج عن لفظ (جامي) بحساب الجمل، وهو العدد ٥٤[٤٠].

ويضيف حكمت إلى فهرست سام ميرزا كتاباً رآه بنفسه، وهو: تجنيس اللغات أو تجنيس الخط. وأستطيع أن أضيف بدوري كتاباً رأيته ـ أثناء كتابتي حول الجامي حال دراستي للماجستير ـ وهو: الدرّة الفاخرة.

وفي نوفمبر سنة (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م) أصدرت دار الكتب المصرية فهرساً بمؤلفات الجامي، عنوانه: «نور الدين عبد الرحمن الجامي، فهرست بمؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة التي تقتنيها الدار» ويشتمل هذا الفهرست على خمسة وأربعين كتاباً ورسالة، من بينها سبعة كتب بالعربيّة ويستفاد مما ورد بالفهرست أن بالدار أربع مخطوطات للجامي كتبت في حياته، وستاً وعشرين مخطوطة كتبت في القرن العاشر الهجري، وسبع مخطوطات كتبت في القرن الحادي عشر الهجري، ومثلها في القرن الثاني عشر الهجري، وثمان مخطوطات كتبت في القرن الثالث عشر الهجري.

ومن المخطوطات العربيّة خمس مخطوطات ترجع إلى القرن العاشر الهجري، وثلاث عشر مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر الهجري.

ومن بين هذه المؤلّفات توجد مخطوطات ثمانية مزدانة بالصور الملوّنة، كما أن بالفهرست كتباً لم تَرِد في الفهارس الأخرى[٤١].

ويمكننا أن نجمل آثار الجامي المنظومة والمنثورة في الفهرست التالي[٤٢]:

١ ـ رسالهٔ كبير در معما (حلية الحلل).
٢ ـ الرسالة الصغيرة في المعمّى.
٣ ـ رسالهٔ متوسّط در معمّى.
٤ ـ رسالهٔ منظومهٔ أصغر در معمّى.

٥ ـ رسالة في فن القافية.

٦ ـ نقد النصوص في شرح فصوص الحكم.

٧ ـ شواهد النبوّة.

٨ ـ اللوائح.

٩ ـ أشعة اللمعات.

١٠ ـ اللوامع (في شرح الخمرية).

١١ ـ رسالة أركان الحج (مناسك الحج).

١٢ ـ جهل حديث (الأربعون حديثاً).

١٣ ـ تفسير الجامي.

١٤ ـ رسالة تجنيس خط (تجنيس اللغات).

١٥ ـ الدرّة الفاخرة.

١٦ ـ رسالة منشآت (منشآت جامي).

١٧ ـ الفوائد الضيائيّة.

١٨ ـ رسالة في العروض.

١٩ ـ نفحات الأنس من حضرات القدس.

٢٠ ـ بهارستان.

٢١ ـ مثنوي سلسلة الذهب (ثلاثة دفاتر).

٢٢ ـ مثنوي سلامان وأبسال.

٢٣ ـ تحفة الأحرار.

٢٤ ـ سبحة الأبرار.

٢٥ ـ يوسف وزليخا.

٢٦ ـ ليلى والمجنون.

٢٧ ـ خرد نامهٔ إسكندري.

٢٨ ـ دواوين الجامي الشعريّة (ثلاثة دواوين).

٢٩ ـ نَـي نامـه.

٣٠ ـ شرح بعض از (مفتاح الغيب منظوم ومنثور).

٣١ ـ رسالة شرح رباعيّات.
٣٢ ـ شرح حديث أبي ذر العقيلي.
٣٣ ـ سخنان خواجه پارسا.
٣٤ ـ رسالة (مناقب شيخ الإسلام).
٣٥ ـ رسالة في الوجود.
٣٦ ـ رسالة في التوحيد.
٣٧ ـ شرح دعاء القنوت.
٣٨ ـ شرح الرسالة الوضعيّة (لعضد الدين عبد الرحمن الإيجي).
٣٩ ـ اعتقاد نامه.
٤٠ ـ رسالة قطبيّة.
٤١ ـ ساقي نامه.
٤٢ ـ سرخاب ورستم.
٤٣ ـ رسالة تحقيقات.
٤٤ ـ رسالة در اصطلاحات صوفيّة.
٤٥ ـ لجّة الأسرار.
٤٦ ـ شرح البيت:

زدرياي شهادت چون نهنگ لا برآرد سر   تيمم فرض گردد نوح را در روز طوفانش

وإذا كانت هذه أهم الكتب العربية والفارسيّة التي ثبت ثبوتاً قاطعاً أنها من تأليف الجامي، والتي يوجد معظمها بين أيدينا، أو اطّلع عليها أناس يوثق بهم.. فإن هناك عدداً آخر من الكتب يدلّ مضمونها على أنها للجامي رغم نشرها تحت أسماء أخرى. كما أنّ من بين الناشرين من انتخب أجزاء من كتب الجامي، وقام بنشرها تحت أسماء وقع عليها اختياره.

ومن الكتب والرسائل التي يُعدّ مضمونها للجامي، والتي كتبها أشخاص غيره:

١ ـ از سخنهاي مولانا جامي

٢ ـ المنشآت العربيّة والفارسيّة للجامي.
٣ ـ رباعيّات جامي وغيره.
٤ ـ منظومة فارسيّة.
٥ ـ معميّات جامي.
٦ ـ وزن الرباعي.
٧ ـ منتخبات من أشعار فارسيّة.
٨ ـ ازگفتار مولانا جامي في شرح اصطلاحات الصوفيّة.
٩ ـ أبيات وعبارات عربيّة وفارسيّة استعملها نور الدين الجامي في رسائله ومنشآته[٤٣].

وهناك من الكتب ما يُشَك في صحّة نسبتها إلى الجامي، أمثال:
١ ـ رسالة في التصوّف وأهله وتحقيق مذهبهم.
٢ ـ رسالة في السلسلة النقشبنديّة: «رسالة نورية».
٣ ـ رسالة نوربخش[٤٤].

ولأهميّة أعمال الجامي قام العديد من الدارسين بكتابة حواش عليها، خاصّة على كتابه العربي الشهير: «الفوائد الضيائية». كما ترجم بعضها إلى العربيّة؛ فترجم الدكتور محمد غنيمي هلال «ليلى والمجنون»، وترجم تاج الدين بن زكريا «نفحات الأنس». وترجم بعضها إلى التركيّة، فقام بهشتي بترجمة «رسالة في فنّ المعمّى»، ولامعي بترجمة «شواهد النبوّة»، ونشأت أفندي بترجمة عنوانها: «شرح دوبيت ملاجامي»، وجعفر الطيار بترجمة «عروض الجامي»، وأحمد بن محمد بترجمة عنوانها: «رسالة الصفائح في ترجمة اللوائح». وهناك ترجمة لرسالة وحدة الوجود، وأخرى لـ «سلسلة الذهب».. والمترجمان مجهولان.

أما عن الشروح، فإن هناك شرحاً بالتركيّة لبهارستان، وآخر لسبحة الأبرار.. قام بهما البرزيني. كما أن هناك في هذه اللغة شروحاً لكل من: شواهد الكافية، وقصيدة جلاء الروح، ونفحات الأنس، والعروض، ولجّة

الأسرار، وچهل حديث، والفوائد الضيائية، وسلامان وأبسال، ويوسف وزليخا.

وإذا تركنا العربيّة والتركيّة إلى الأوروبية وجدنا ترجمة إنجليزية لكتاب «لوايح» قام بها وينفيلد وميرزا محمد كازروني، وترجمة ألمانية لبهارستان قام بها شلشتاوسارد، وأخرى إنجليزية قام بها خودارام. أما «سلامان وأبسال» فقد ترجمها إلى الإنجليزية فيتزجيرالد، وإلى الفرنسية أوجست بريكتو Auguste Bricteux.

وقد ترجم أ. روجرز «يوسف وزليخا» إلى الإنجليزيّة، وترجم براون أجزاء منه، وترجم هارتمان «ليلى والمجنون» إلى الإنجليزيّة[٤٥].

وقد توفي الجامي عام (٨٩٨هـ - ١٤٩٢م)، عن عمر يناهز الثمانين، ودفن في مواجهة قبر مرشده الروحي سعد الدين الكاشغري، بمقبرة تخت مزار.. وكان قد أوصى بذلك.

وبعد وفاته بأقلّ من عشرين سنة أمر الشاه (الشيعي) إسماعيل الصفوي بهدم قبره وانتهاك حرمة إسمه، والانتقاص من قيمة آثاره.. فكان أتباعه يزيلون نقطة الجيم من اسمه حيثما وجدوه، ويغيّرون من وضعها، فتنقلب (جامي) إلى (خامي) أي خامل وتافه. وقد تسببت هذه المعاملة في توقّف آثاره عن الرواج في إيران مدة ثلاثة أو أربعة قرون[٤٦].

وفي عام (١٣٢٩هـ - ١٩١١م) وبأمر من السلطان الأعظم حبيب الله خان بهادر، تمّ تعمير الروضة والحديقة وإصلاح الإيوانات والأراضي والشبّاك الرخامي والمسجد والحوض وغيرها.. والآن، يعتبر مزاره بهراة قبلة الحاجات وكعبة المزارات. ويعتقد الناس أن زيارته نهار السبت وليلته لها آثار خاصّة.. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

هركه آيد يوم شنبه در طواف مولوي   هر طواف مولوى هفتاد حج اكبر ست

والمعنى: كل من يأتي يوم السبت ليطوف بمزار الجامي..

يكون كل طواف له بمثابة سبعين حجة كبرى[٤٧].

* * *

الهوامش

(١) شذرات الذهب، ٣٦٠؛ الفوائد البهية في تراجم الحنفيّة، ٣٨؛ الأنوار القدسيّة ١٥٢؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ ١، ٣٢٧؛ الحدائق الورديّة، ١٥١؛ جامع كرامات الأولياء، جـ ٢، ٦١.

(٢) صرّح بذلك في أبيات شعريّة..

انظر: تاريخ الأدب الفارسي (الترجمة العربية)، ١٨٢.

(٣) مجالس النفائس، ٢٣.

(٤) الأنوار القدسيّة، ١٥١، ١٥٢.

(٥) رشحات عين الحياة، ١٠٨.

(٦) مقدّمة ناسوليز على نفحات الأنس، ٥.

(٧) مقدّمة بهارستان للجامي، ٥.

(٨) الرشحات ١٢٢، ١٢٣.

(٩) يوجد كثير من الفكاهات في الفصل الثامن من بهارستان، كما يوجد الكثير منها في سبحة الأبرار، العقد ٣٢، وهناك ٣٠ طرفة.. سجّلها فخر الدين علي الكاشي في كتابه (لطائف الألطاف)، المؤلّف عام ٩٣٩هـ، وذكر أنها للجامي.

(١٠) جامي، لعلي أصغر حكمت، ١٥٥ (نقلاً عن سلسلة الذهب ـ الدفتر الأول).

(١١) النص الفارسي:

أزدل سالك ره جاذبه صحبتشان مي برد وسوسه خلوت وفكر جله را
همه شيران جهان بسته اين سلسله اند روبه از حيله چسان بگسلداين سلسلة را
قاصري گر زند اين طايفة را طعن قصور حاش لله كه بر آرم بزبان اين گله را

(١٢) الناصبية والنواصب وأهل النصب الذين ينصبون لعلي كرّم الله تعالى وجهه. (أساس البلاغة، مادة نصب، ٩٦٠).

(١٣) النص الفارسي:

أي مغبچـۀ دهـر بـده جـام ميم كـامـد ز نـزاع سني وشيعي قيم

گـويند ،كـه جاميـاچـه مـذهب داري صد شكر كه سگ سني وخر شيعى نيم

(١٤) عجائب المقدور في أخبار تيمور، ٢٢١.

(١٥) تاريخ أدبي إيران - از سعدي تاجامي، ٤٢٩.

(١٦) إقرأ الكثير حول هذه النقطة في المرجع السابق، صفحة ٤٢٠ وما بعدها،

Lane Pool, Mohammedan Dynasties, London, 1894. p. 268.

(١٧) هو أبو سعيد بن محمد بن ميرانشاه بن تيمور. عمرت في عهده ممالك التركستان وتوران وخراسان وزابلستان وسجستان ومازندارن. وقد لقي مصرعه عام ٨٧٢هـ بأمر من أوزون حسن تركمان، فحلّ محلّه ولداه: أحمد وسعيد، لكنّهما قتلا بدورهما. (روضة الجنّات في أوصاف مدينة هرات، تحت وقائع سنة ٨٧٠هـ).

(١٨) كان السلطان حسين بايقرا أديباً ذوّاقة مشجّعاً للأدب والأدباء والعلماء، شاعراً بالفارسيّة والتركيّة، يتخلّص بحسيني.. وكان يرعى العلم ويكثر من إنشاء المدارس. وقد بلغ عدد العلماء في عهده ١٢ ألف عالم، خصّصت لهم المناصب والألقاب.

وقد خلّف لنا العديد من المؤلّفات، وأهمها «مجالس العشّاق». (تحفة سامي، ١١).

(١٩) للوقوف على تعريفات تلك الضروب، إرجع إلى: المرجع في قواعد اللغة الفارسيّة، ٥٦٩، ٥٧٤.

(٢٠) مجالس العشاق، المجلس الخامس والخمسين.

(٢١) جامي، ٢٩، ٣٠.

(٢٢) تذكرة الشعراء، ٤٩٤ - ٥٠٩.

(٢٣) بابر نامه، ١٠٨.

(٢٤) حبيب السير، جـ ٣، مجلد ٣، ٣٣٤.

شعر فارسي در عهد شاهرخ (آغاز انحطاط در شعر فارسي)، ١٤.

(٢٥) مقدّمة بهارستان للجامي، ٤.

(٢٦) منشآت فريدون بيك، جـ ١، ٣٦١ وما بعدها. الرشحات (ترجمة القزّاني) ١١٨.

(٢٧) الشقائق النعمانيّة، جـ ١، ٣٨٩.

(٢٨) تذكرة الشعراء، ١٥.

(٢٩) ديوان شاه نعمت الله ولي، ٣١٢.

(٣٠) انحطاط الشعر في عهد شاهرخ، ٢٠١.

(٣١) كه جامي چون شدى در عاشقي پير سبك روحي كن ودر عاشقي مير

(مقدّمة يوسف وزليخا للجامي).

(٣٢) تعارف الإيرانيون على تسمية المثنوي المولوي بالقرآن البهلوي. والمثنوي المذكور منظوم بأكمله على وزن الرمل المسدّس المحذوف. أما ترجمة البيت فهي:

استمع للناي يحكي قصّته يشتكي الفرقة يبدي لوعته

(٣٣) تذكرة الشعراء، ٤٨٣ - ٤٩٤. ولما كان دولتشاه قد فرغ من تأليف كتابه عام ٨٩٢هـ - أي قبل موت الجامي بست سنوات - فإنّا لهذا نرى أن اعتماد الباحثين عليه في هذه النقطة اعتماد خاطىء كما أن رأيهم بناء على ما ذكرنا يعدّ رأياً خاطئاً.

(٣٤) جامي، ١١١. والأدب هنا بمعناه الواسع يشمل الشعر.

(٣٥) تاريخ الأدب في إيران، جـ ٣، ٥٩٧.

(٣٦) Irani A. Khodaram, Beharistan of A.R. Jamy. Translated into English. With the life of the outher, Notes... published by Homee, Bombey 1913. P. IV. (life of the auther).

(٣٧) مقدّمة طباطبائي على بهارستان، صفحة ٨، باب مقام الجامي ومنزلته.

(٣٨) تحفة سامي، صحيفة پنجم، ٣، ٤.

(٣٩) مرآة الخيال، ٧٣.

(٤٠) جامي (بحساب الجمل) = ٣ + ١ + ٤٠ + ١٠ = ٥٤.

(٤١) نور الدين عبد الرحمن الجامي - فهرست بمؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة التي تقتنيها دار الكتب ج. ع. م.

(٤٢) تحدّثتُ حول هذه المؤلفات بشيء من التفصيل في رسالتي للماجستير. وعنوان الرسالة: «تعريف بعبد الرحمن الجامي وإنتاجه». والرسالة ما زالت مخطوطة لم تنشر بعد، وقد قدّمتُها لقسم اللغات الشرقيّة، بكلية الآداب، بجامعة عين شمس.

(٤٣) انظر رسالة الماجستير: «تعريف بعبد الرحمن الجامي وإنتاجه، ٢٠٣، ٢٠٤»، حيث ترد معلومات مفصّلة حول كل مؤلّف.

(٤٤) المرجع السابق، ٢٠٥، يرجع إليه لمعرفة بعض المعلومات حول كلّ مؤلّف.

(٤٥) نفس المرجع، صفحة ٢٠٥ - ٢٠٧، حيث يرد ذكر للتواريخ وأماكن الطبع، وغير ذلك.

(٤٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ ٧، ٣٦٠، ٣٦١؛ الشقائق النعمانيّة جـ ١، ٣٨٩.

(٤٧) جامي، ٢١٦، ٢٢٥. نقلاً عن رسالة مزارات هرات (نسخة خطيّة) لمولانا عبد الله بن أبي سعيد الهروي، المؤلّفة عام ١١٩٨هـ. ونقلاً عن المعلومات والمشاهدات التي ذكرها عبد العليخان - رئيس مجلس هراة الأدبي بشأن مزار الجامي.



مُقَدّمة المؤلف





مقدّمة الجامي على كتابه بهارستان

* إذا طار طائر لأمرٍ ذي بال دون أن يستعين بقوة الحمد[١]..

* سقط ريشه قبل أن يبلغ مقصده.. وسقط هو بحيث لا يستطيع النهوض.

ألف قصّة حمد وثناء على لسان طيور ربيع العشق[٢] والوفاء، التي تغرّد دوماً على منابر أغصان الفضل والإحسان[٣]، بأعذب الأصوات وأطيب الألحان، فتوصلها إلى مسامع حاضري مجامع القدس، وناظري مناظر الأنس[٤]، على مرّ الشهور والأعوام.

* للصانع الذي تُعدّ حديقة العالم ورقة من باقة صنعه، وذرّة من خلق أياديه.

* للخالق الذي ينثر طَبَقاً مليئاً بالدرّ والجوهر على حامديه ومسبّحيه.. جلّت عظمة جلاله، وعلت كلمة كماله.

وآلاف من أهازيج المدح والاحترام، والتحيّة والسلام.. من أفواه عنادل بستان الفضل والجود[٥]، مطربي حفل الشهود[٦]، ومنشدي محفل وجد الوجود[٧]..

* على ورد روضة الإبلاغ، الذي خلق ورد حديقة الوجود من عرق وجهه ونداه[٨].

* وليس للطيور على أوراق الخميلة إلّا التباري في أوصاف جماله وبهاه. وعلى أصحابه وآله، المقتبسين من مشكاة علومه وأحواله.

أما بعد. فلما كان ولدي العزيز «ضياء الدين يوسف» ـ عصمه الله مما يفضي به إلى التلهّف وما يدعوه إلى التأسّف ـ يشتغل ـ في فترةٍ ما ـ بتعلّم مقدّمات كلام العرب، وادّخار قواعد فنون الأدب. . . ولأنه غير خافٍ على أحد أن الناشئة والصغار الذين لم يجابهوا المتاعب، يستقرّ على قلوبهم حمل الوحشة، ويعلو أذهانهم غبار الدهشة، نتيجة تعلّم مصطلحات لم تأنسها طباعهم، ولا ألفتها أسماعهم. . فقد كنت أقرأ بين الحين والحين ـ طلباً لهدوء البال، وشحذ نفس ضياء الدين ـ عدّة أسطر من كتاب «گلستان»[٩]. . الذي هو أثرٌ من آثار الأنفاس المباركة للشيخ الشهير والأستاذ الكبير: «مصلح الدين سعدي الشيرازي» رحمة الله عليه.

* ليست حديقة فيحاء فحسب، بل هي روضة من رياض الجنّة، ترابها وأشواكها عبير الوجود وشذى الفطرة.

* أبوابها أبواب الجنّة، وتفيض قصصها (عذوبة) كأنهار الكوثر[١٠]. . .

* طرائفها من وراء ستار، تثير غيرة الحور العين[١١] ذوات الدلال. .

* أشعارها جذّابة، ومن ندى لطفها تجري من تحت أشجارها الأنهار.

فخطر ببالي ـ وأنا أقرأه ـ أن أنشىء عدّة أوراق على نهجه، أتّبع فيها أسلوبه تبرّكاً بأنفاسه الشريفة، وتتبّعاً لأشعاره اللطيفة. وأن أنجز عدّة أجزاء على نمطه لتكون للأحياء مَثَلاً وحكمة، وتكون للقادمين هديّة ونعمة. وحين تمّ لي ما قصدت، وتحققت الصورة التي أردت. .

* قلت لعقلي: بماذا أزيِّن تلك العروس الجديدة وأحلّيها، حتى تزداد جمالاً وحُسناً في عيون خاطبيها. . في كل آن؟.

* قال لي العقل: إجعل زينتها وحليتها درر الثناء. . على الملك المظفّر نصرة الدنيا معزّ الدولة، كهف الخافقين، ناشر الأمان.

* نجم برج الجلالة، وجوهر منجم الشرف، شمع المحفل، السلطان حسين حفيد تيمور خان[١٢].

* إن السماء رغم مكانتها وإحاطتها بالكون، مفروض عليها أن تنظر إلى الملك نظرة رحمة وحنان.

* إعلم أن حاجات الخلق كلها دَيْن في ذمّة جوده، وأنّ جوده يستصغر ما فرض عليه، ويراه قليل الشأن.

أعزّ الله تعالى أنصاره، وضاعف اقتداره، وأدام أولاده الكرام تحت ظلال ملكه وسلطانه، وأنام كافّة الأنام في كنف عدله وإحسانه.

* فإن يك سعدي قد ختم كتابه قبلي باسم سعد بن زنكي[١٣]...

* فإنّ كتابي قد اشتهر بشخصٍ.. لا يزيد سعد بن زنكي عن أن يكون عبداً له.

* فمرّ على هذا الربيع لترى فيه الرياض... رياض البساتين...

* ولتدرك أنه بفضل ما في كل روضة من لطائف..
قد نبتت الأزهار وانتشر عبير الرياحين.

وقد رأيت أن أقسّم كتابي إلى ثماني روضات، كل منها جنّة فيحاء، نضرة خضراء، مشتملة على ألوان مختلفة من الشقائق، وأشذية متعدّدة من الرياحين، فلا يصيب شقائقها الذبول من وطأة أقدام ريح الخريف، ولا ينهك رياحينها قرّ الشتاء وسطوته، وقهره وعظيم برودته.

* تنفّست مروجُه في كل ناحية وتفتّح لَعْله في كل ضاحية
* وقبّل الندى شحمة أذن الورد،
وملأ المطر البرعمة فكأنها الكأس أترعت بالخمر.
* غزير الدمع من عين السواقي كثير الضحك من ثغر الأقاحي
* يشير النرجس[١٤] اشرب من خموري فإنّ العفو للزلّات ماحي
* وإني ليخيفني أن يؤدّي لطف الإشارة إلى إباحة الحرام للصالحين.

وإني لأرجو ممن يتنزّهون في هذه الرياض.. خاليةً أذهانهم من شوك

شائبة التعريض، والمطالبة بالتبديل والتعويض.. أرجو منهم حين يطأونها بقدم الاهتمام، وينظرون فيها بعين الاعتبار.. أن يذكروا بالدعاء ذلك البستاني الذي لاقى الكثير من الصعاب والآلام في تربيتها، وبلغت روحه الغالية الحلقوم في تنميتها، وأن يفرحوه بالثناء.

* يجدر بكل سعيد يجلس تحت شجرة من هذه الأشجار الشابّة، أو يقطف ثمارها...

* أن يتخذ أداء الجميل مبدأ، والكرم مسلكاً، والدعاء سنّة يستنّها.

* وأن يقول: ربّاه.. عبدك الجامي ـ الذي أنشأ هذه الروضة ـ دائم الصلة بك، لا يفرغ لنفسه.

* لا يملك إلاّ طريقك، لا يبغي إلاّ وصلك، لا يذكر إلاّ اسمك، لا يرى إلاّ وجهك.

* * *

* *

*

الهوامش

(١) اقتباساً من قول الرسول عليه السلام: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» - رواه ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة. والأقطع الناقص الذي لا يعتدّ به شرعاً، والحديث إسناده حسن. وفي رواية (ببسم الله) بدلاً من (بالحمد لله) وإسناده حسن. وفي رواية بزيادة (والصلاة على) وسندها ضعيف. والمراد بالحمد لله مطلق ذكر الله: جمعاً بين الروايات، والحكم يراد به الندب لا الوجوب (شرح الجامع الصغير، جـ٢، ٢١١).

(٢) العشق: كناية عن مقام الولاية المطلقة العلويّة، ويشتقُّ منه المعشوق وهو الله. (عوارف المعارف ٣٥١).

(٣) الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والإحسان من أخلاق الصوفيّة ويعني عندهم بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافّة (عوارف المعارف ١٩٥، ١٩٦)؛ (رابعة العدوية ٥٥)..

(٤) الأنس: للصوفيّة في تعريفه أقوال كثيرة، منها: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، انبساط المحبّ إلى المحبوب، محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب.
ومنه الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات. وهذا القدر من الأنس نعمة من الله، ولكنّه ليس حال الأنس الذي يكون للمحبّين.
والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس. (عوارف المعارف ٣٥٥ وما بعدها).

(٥) الجود: السخاء عند القوم هو الرتبة الأولى، ثم الجود بعده ثم الإيثار. فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، والذي قاسى الضرر وآثر غيره فهو صاحب إيثار. وقيل الجود إجابة الخاطر الأول. (الرسالة القشيرية ١٣٣ - ١٣٦).

(٦) الشهود: الحضور وقتاً بنعت المراقبة ووقتاً بوصف المشاهدة. فما دام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاضر. . فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج عن دائرة الحضور فهو غائب (العوارف ٣٦٨، ٣٦٩).

(٧) الوجد: ما يصادف قلبك ويرد عليك بلا تعمّد وتكلّف. والوجود: يأتي بعد الارتقاء عن الوجد.

وبمقدار الوجود يحصل الخمود. وصاحب الوجود له صحو ومحو، فإذا غلب عليه الصحو بالحقّ فيه يصول، وبه يقول. (الرسالة ٤٠، ٤١).

(٨) اقتباساً من الحديث الموضوع: خلق الوجود من عرق الرسول.

(٩) گلستان: كتاب يختلط فيه النثر بالنظم، مشهور ومترجم إلى عدّة لغات. ألّفه سعدي في عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م. بعد أن انتهى من تأليف مثنويّه: (البوستان) بعام واحد. والگلستان من أهم الكتب (الميكافيليّة) التي كتبت بالفارسيّة، ويشتمل على آراء وعواطف دينيّة تبعد عن الناحية المثاليّة التي يتّصف بها الصوفيّة الخالصون. . . وقد أهداه المؤلّف إلى سعد بن زنكي اعترافاً منه بجميله عليه.

وگلستان كلمة فارسية ترجمتها: الحديقة أو الروضة.

(١٠) الكوثر: نهر من أنهار الجنّة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدرّ والياقوت. تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج. (حديث صحيح). (الترغيب جـ ٤، ٢٥٤)؛ (القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، جـ ٢، ٥٧٢).

(١١) الحور العين: نساء الجنة. . انظر وصفهن، وأقرأ حديث الرسول عليه السلام بشأنهن. (القرآن وصفوة البيان ٣١٠).

(١٢) يقصد السلطان حسين بايقرا.

(١٣) سعد بن زنكي: تولى العرش عام ٥٩٢هـ ـ ١١٩٥م، وقد اشتقّ سعدي تخلّصه من اسمه. وله الفضل في إرساله إلى المدرسة النظاميّة ببغداد لتحصيل العلم. (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ٦٧٠).

(١٤) النرجس: يقال إن نرجس (Narcissus) الشاب الجميل. عشق صورته حين رآها منعكسة على صفحة الماء، فقفز إليه وغرق، ثم تحوّل فيما بعد إلى زهرة سميت باسمه. وهذه التسمية تطلق عادة على عينَي المعشوق.

I.A. Khodaram: Beharistan of A.R. Jamy.
Translated into English. Bombay, 1913.



الرَّوضة الأولى



في نشر الرياحين، المقطوفة من البساتين.. بساتين الواقفين على طريق الهداية، والجالسين في مكان الصدارة من مقام الولاية[1].

يقول سيد الطائفة «جنيد البغدادي»[2] قُدِّس سِرُّه:

«حكايات المشايخ جندٌ من جنود الله تعالى».

وهو يعني بذلك أن كلمات المشايخ في العِلم والمعرفة جند من جنود الله سبحانه.. راسخة أقدامها[3]، تقبض في ولاية[4] كل قلب على عنان العزيمة، ويلقى من يتّبعون النفس والهوى منها الهزيمة.

* هجمات النفس ونزعات الهوى وإن تكن من جنود الشيطان.. فإنها حين تُغير على قلب المؤمن وتشدّد ضغطها...

* لا تتحقق هزيمتها إلاّ على يد الجنود التي تجّردها نصائح المرشدين.

يقول الله تعالى لرسوله الكريم:

﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك ﴾[5].

* إذا ما خَلَقْتَ في قلبك صورة من صـور العزيمة الصادقة..
فغذّها وأحيها من نفخ صور نَفَس[6] العارفين.

* وإذا تصدع فؤادك وعلق به الشك بسبب تحرّك طبعك وهوى نفسك..
فثبّت فؤادك وأزل شكّه بأن تشرح له قَصص المتصوّفين.

وقد أوصى خواجه «عبد الله الأنصاري» شيخ الطريقة الصوفية في هراة ـ قدّس سرّه ـ أصحابَه بقوله: إحفظوا عن كل شيخ[٧] كلمة، فإن لم تستطيعوا فاذكروا أسماءهم.. تبلغوا غاية المراد.

* أنت الذي ينساب من اسمك العشق، وينساب من رسالتك وكتابك.

* ويهيم بك من يمرّ بحيّك.. كيف لا، والعشق ينساب من سقفك وبابك؟.

وفي الحديث[٨]، أن الله سبحانه يخاطب يوم القيامة عبداً فقيراً لا يملك شيئاً، ويسيطر عليه الخجل، فيقول له: هل كنت تعرف فلاناً العالم أو العارف.. في حي كذا؟، فيقول: نعم، كنت أعرفه. فيصدر الأمر بأننا قد عفونا عنك من أجله.

* قدري في صفّ عشّاقك أحقر من أن يدعوني إلى توجيه رغبتي لمقام[٩] الوصول[١٠]..

* وقد نقش في قلبي اسم فقراء بابك، فكان لصحيفة أعمالي كافياً.. كختم القبول.

طلب «السَري السقطي» ـ قدّس الله سرّه ـ من جنيد أمراً، فقام به راضياً مبتهجاً، فألقى إليه برقعة من الورق، كتب فيها: سمعت حادياً يحدو في البادية، قائلاً:

أبكي وما يدريكِ ما يبكيني أبكي حذار أن تفارقيني
وتقطعي حبلي وتهجريني

* تبكي عيناي دماً.. وأُخفي لماذا تبكيان.

* كلما أسعدتِ بالوصل قلباً.. وسمتِه بمائة كي، خشية الهجران.

وكذلك يقول «جنيد» ـ قدّس سره ـ: دخلت يوماً على السري السقطي في منزله، فوجدته ينشد هذا البيت ويبكي:

لا في النهار ولا في الليل لي فرج فلا أبالي أطال الليل أم قصرا

سئل منصور الحلاج «قدّس سرّه»: من المريد[١١]؟ قال: المريد من يجعل رحاب حضرة الحق ـ منذ البداية ـ هدفه ومقصده، وحتى يصل إليه.. لا يستريح لما عداه، ولا يرضى بغيره، ولايتركه لسواه.

* بغية التوبة[١٢] سارعت إلى البر والبحر، وطويت الفيافي وشققت الجبال.

* وأعرضت عن كل ما صادفني.. إلى أن وجدت الطريق إلى حريم وصلك.

وقد قال «أبو هاشم» الصوفي، قدّس سرّه: لأن تحفر جبلاً وتقتلعه من أساسه بسنّ دبوس.. أسهل من أن تقتلع رذيلة الكِبر من القلب.

* لا تباهي وتفخر بعدم الكِبر[١٣]، فهو أكثر خفاء من أثر قدم النملة.. على الحجر الأسود في الليل المظلم.

* ولا تظنن أن إزاحته من الداخل أمر سهل، فالأسهل من ذلك.. أن تقتلع جَبلاً مِن الأرض بدبوس.

ذهب «ذو النون المصري» ـ قدّس سرّه ـ إلى شيخ من مشايخ المغرب في مسألة. فسأله الشيخ: لأي أمر قدمتَ؟.. إن كنت قد قدمتَ لتحصيل العلوم قديمها وحديثها فقد ضللتَ الطريق.. فإنّ الخالق يعلم هذا كلّه. وإن كنت قد قدمت لتبحث عن الله، فقد كان حاضراً بنفسه.. هناك.. حيث خطوتَ أولى خطواتك.

* تصوّرتك من قبل خارجاً عن نفسي[١٤]، وتخيّلتك تبدو في نهاية سيري.

* والآن وقد وجدتك، فإن ما أعلمه..
هو أني قد تركتك عند أول خطوة خطوتُها.
ويقول شيخ هراة ـ قدّس سرّه ـ:
إنه رفيق من يبحث عنه.. دائماً بقربه، ويده مبسوطة تسرع لتلبية طلبه.

* ذلكم الذي لم أعرف له اسماً أو أجد أثراً..

هو الذي يجذبني إليه.. آخذاً بيدي.

* فهو يدي وهو قدمي، أذهب حيثما يذهب.. ضارباً بقدمي، ملوّحاً بيدي.

ويقول «فضيل عياض» قدّس سرّه:

إني أعبد الحقّ سبحانه وتعالى حباً فيه[١٥]، فأنا لا أملك إلّا عبادته[١٦].

وسأله بعض أفراد هذه الطائفة: من الحقير السافل؟.

قال: هو الذي يعبد الحقّ سبحانه على خوف ورجاء[١٧]. فقالوا: وكيف تعبده أنت؟.

قال: بالحبّ والصداقة، فإنهما يبقياني في خدمته وطاعته.

* حبيبي: «لا أستطيع ابتعاداً عن بابك، ولا أقنع بالجنّة والحور عوضاً عن رحابك.

* خاضع ورأسي على أعتابك.. بسبب عشقي لا من أجل ثوابك،
ولا أستطيع صبراً.. فماذا أفعل.. يا حبيبي؟.

* كيف يحترق قتيل عشقك بالنار التي تنفثها روحه المتوهّجة،
وكيف يصير تحت التراب الكدر؟.

* وكيف يتمكّن العاشق من إخراج رأسه من طوق الوفاء،
بعد أن نما حول رقبته كطوق القِمْرِي سواء بسواء.

وقد قال حضرة «معروف الكرخي» قدّس سرّه:

الصوفيّ هنا ـ في الدنيا ـ ضيف، وشكاة الضيف من المضيف جفاء، فالضيف المؤدّب ينتظر، ولا يشكو أو يتظلم.

* إني ضيفك، مقيم في صف مريديك.. راضٍ[١٨] بما يأتي منك،
قانع بما يصدر عنك[١٩].

* أتطلّع إلى مائدة كرمك بعين الأمل، أنتظر إنعامك ونوالك..

لا أشكوك، لا أقاضيك، لا أحاسبك.

سئل« بايزيد البسطامي» قدّس سرّه: ما هي السُنّة وما هو الفرض؟ قال: السنّة ترك الدنيا، والفرض خدمة المولى.

* يا من تسألني عن السنّة والفرض في شرع الله...

* السنّة في الإشاحة عن الدنيا والإعراض عنها،
والفرض في التقرّب إلى المولى.

حمل «الشبلي» ـ قدّس سرّه ـ إلى المستشفى لمرض ألمَّ برأسه، وذهب البعض لعيادته، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أصدقاؤك.

فرفع حجراً وحمل عليهم، ففروا جميعاً. قال: عودوا أيها الأدعياء، فالأصدقاء لا يفرّون من أصدقائهم ولا يهربون من حجر جفاهم وظلمهم.

* الصديق من يمعن في صداقته، ويُعلي قدرها وإن جابهه صديقه بالعداوة.

* ويزيد بناءَ عشقه إحكاماً.. ولو رماه صديقه بألف حجر من أحجار الظلم.

ويُروى عنه أيضاً أنه وقع فريسة المرض، فأرسل خليفة بغداد طبيباً مسيحياً لعلاجه. وسأل الطبيب مريضه: أي شبلي.. ما هي أمنيتك ومراد قلبك؟. قال: أن تسلم. قال المسيحي: هل إذا أسلمت يكتب لك الشفاء، وتترك فراشك؟. قال: نعم. ثم بيَّن له وسيلة الإيمان[٢٠].. فلمّا آمن، نهض الشبلي من فراشه وليس على وجهه أثرٌ لمرض. وتوجّها معاً إلى الخليفة، وأعادا عليه القصّة، فقال: ظننت أني قد أرسلت طبيباً إلى مريض، فإذا بي قد أرسلت مريضاً إلى طبيب.

* إذا هاجمت المحبّة شخصاً فمرض.. كان طبيبَه لقاءُ حبيبه..
وفق ظنه ورؤيته.

* فإذا جاء الطبيب ووقف عند رأسه، ابرأ الطبيبَ من عِلّته.

ويقول «سهل بن عبد الله التستري» قدّس سرّه: من أصبح وكلّ همّه أن

يتفقَّد ما يأكله.. فانفض يدك منه.

* من استيقظ في الصباح وليس في رأسه سوى خيال الأكل..
  فلا تعدّه يقظاً متنبهاً.

* وانفض يدك ممن يغسل يده فور تدلية قدمه عن سريره..
  ليمدّ إلى المائدة يده.

يقول «أبو سعيد الخرّاز» قدّس سرّه: كنت في أوائل حال الإرادة أحافظ على سرٍّ وقتي[٢١]. وتصادف أن توغّلت في الصحراء، وكنت ما أزال أسير بها حين انبعث من خلفي صوت، فمنعت قلبي عن الالتفات لصاحبه والاهتمام به، وصنت عيني عن النظر إليه، وتوجّه صاحب الصوت نحوي، واقترب مني.. فرأيت سبعين عظيمين. ثم أنهما شبّا على كتفي، فلم أعرهما التفاتاً.. حال صعودهما، ولا في وقت نزولهما.

* أتعرف من هو الصوفيّ الصافي البعيد عن التلوّن؟.
  إنه من يملك وجهاً واحداً في دنيانا ذات الوجهين.

* ولا يقطع حبل سِرّه[٢٢] عن الأحباب، ولو قطع عليه الطريق أسد ونمر..
  يأتي كل واحد منهما من ناحية من الناحيتين.

ويقول أبو سعيد أيضاً: كل من يتوهّم في نفسه القدرة على الوصول بالاجتهاد يتعب بلا طائل. وكل من يتصوّر أن بإمكانه الوصول بغير اجتهاد لا يقطع سوى طريقَي الرغبة والأمل.

* لم يصل شخص بالتعب إلى كنز وصلك..
  ومن الغريب أنه لم ير أحد ذلك الكنز.. دون تعب.

* ولم يقتنص كل من جرى في الصحراء حماراً وحشياً..
  كما أنه لم يصطد الحمار الوحشي إلاّ من جرى وأسرع.

يقول «أبو الحسن نوري» قدّس سرّه: كل من يخفي اللّهُ نفسَه عنه، لا

يمكنه أن يصل إليه مهما أبدى من مهارة.

* إن لم يكشف حبيبي النقاب عن وجهه ويسفر عنه..
لن يتمكّن أحد من إزاحة النقاب عن وجهه.

* ولو صارت الدنيا بأسرها له نقاباً.. فلا ضير..
فإنّ الجمال يسفر عن نفسه.

ويقول «أبو بكر الواسطي» قدّس سرّه: بعيد من قال إنّي قريب، ومختفٍ في وجوده من قال إنّي بعيد[٢٣].. رغم فنائه[٢٤].

* من قال إني قريب ممن هو روح الدنيا، كان قولُه دليلَ اقترابه من البعاد.

* ومن قال إني بعيد عنه، كان بعاده دليل استتاره في حجاب قُربه.

وقد قال «أبو الحسن فوشنجي» قدّس سرّه: ليس أسوأ في الدنيا من صديق تقوم صداقته على العوض، أو تعتمد على الغرض.

* عاشق يطلب الإنصاف لهجر حبيبه له، ويودّ الوقوف ببابه يستجدي وصله..

* لا يوجد في الدنيا من هو أحقر منه.. لأنه يريد ما لدى الحبيب..
لا الحبيب نفسه.

ويقول «أبو علي الدقاق» قدّس سرّه، أنه كان في أواخر حياته عرضة لعدّة أمراض، مما كان يدفعه إلى الصعود يومياً إلى سطح المنزل، وتولية وجهه شطر الشمس، وقوله:

يا جوّابة الممالك.. اليوم أينما كنت وحيثما عبرت.. هل وجدت حزيناً[٢٥] مثلي يقاسي حدّة الآلام؟ وهل علمت شيئاً عن متقلّبي هذه الطائفة؟.

وكان يردّد مثل هذا اللون من الكلام إلى أن تغيب الشمس.

* أيّتها الشمس التي لا يضاهيك سوّاح، سنذهب عن هذا الطريق..
فكوني لنا مرشداً.

* إن من رأيتِه اليوم في طريق العشق.. علا الغبار وجهه،
وظهر حزن قلبه على قسماته، وبدا.

قال «أبو الحسن الخرقاني» ـ قدّس سرّه ـ يوماً لأصحابه: ما هو أفضل شيء في العالم؟ قال المريدون: أخبرنا به أنت أيها الشيخ. قال: قلب[٢٦] يكون فيه ذكره[٢٧] دائماً.

* إنّ لي قلباً لم ينقش على صفحة خاطره[٢٨] سوى ذكرك.. رغم كثرة الأفكار.

* إنّ لي قلباً استولى عليه ذكرك.. بحيث لم يعد يتّسع لغيره ليل نهار.

سُئل «أبو سعيد بن أبي الخير» قدّس سرّه: ما التصوّف؟. قال: أن تتخلّى عمّا في رأسك، وأن تجود بكل ما في يدك، وألّا تجزع من شيء يصيبك.

* إذا أردت أن تقاس بالصوفي[٢٩] فاهرب من نفسك، وتحرّر منها..
وتخلَّ عما في رأسك من هوى ورغبة.

* وجُد بما تملك، فإن أُصبت بمئات الجراح من البلايا والشدائد..
فالزم مكانك لا تبرح، ولا تستسلم للجزع.

وقال «رويم التميمي» قدّس سرّه: المروءة أن تعذر إخوانك على كل زلّاتهم، وألّا تعاملهم على نحو يجعلك تُضطر إلى الاعتذار لهم.

* أخي، المروءة شيئان، فأعرني سمعك أخبرك بإخلاص[٣٠]، وأصدقك القول.

* الشيء الأول.. أن تعفو عن الأصدقاء مهما أخطأوا..
ولو ألحقوا بك الضرر كل لحظة، وسببوا لك العناء.

* والشيء الثاني.. ألّا يصدر عنك قط ما يوجب اعتذارك للأصدقاء.

قال مريد «لبِشْر الحافي» قدّس سرّه: حين أحصل على الخبز لا أدري مع أي إدام آكله.

قال بشر: أذكر نعمة العافية، واتخذها لك إداماً.

* إذا ما وضع الفقير أمامه خبزاً جافاً، يريد به إنعاش روحه، وتحرير نفسه من الفقر(٣١)..

* وهفت نفسه وقتها إلى الإدام.. فلا إدام قط يعدل ذكره للعافية.

وقال «شَفيق البَلْخي» قدّس سرّه: تجنّب صحبة الأغنياء، فلو تَعلَّق قلبُك بأحدهم وسرّك عطاؤه(٣٢)، فسوف تتخذه إلّهاً من دون الله.

* إذا دخل غنيٌّ حياتك فلا ترتبط به ليوفّر لك القوت والرزق.

* ولا تجعلن الممسك كفيلك، ولا تتخذنّ المدبّر إلّهك.

وقال «يوسف بن الحسين البلخي» قدّس سرّه: الخير كله في بيت مفتاحه التواضع(٣٣)، والشرّ كلّه في بيت مفتاحه الكِبر.

* الخيرات كلّها مجتمعة في بيت، وليس لذلك البيت مفتاح غير التواضع.

* والشرور بأسرها مجتمعة في بيت، وليس لذلك البيت مفتاح غير الكِبر.

* فاحذر أن تنزلق وتحيد عن طريق الخير..
حتى لا تعرّض نفسك للوقوع في شباك الشر.

وقال «سمنون المحبّ» قدّس سرّه: لا تصفو محبة الله تعالى للعبد حتى يكفّ عمّا يسيء إلى العالم بأسره.

* لو حلّ عشق الجمال الأزليّ بقلبك، لن تهفو نفسك إلى حور الجنان.

* متى يتحقّق لك عشق الجمال الأزلي؟
يتحقق حين لا تكون موضع الاتهام بما يسيء للأكوان.

وقال «أبو بكر الورّاق» قدّس سرّه: إذا سئل الطمع: من أبوك؟، كان

جوابه: الشكّ فيما يقدّره الخالق الديّان. وإذا قيل له: ما عملك؟ قال: اكتساب المذلّة والحقارة والهوان. وإذا سئل ما غايتك؟ قال: قبض الروح[٣٤] متأثرة بمحنة الندم والحرمان.

* إذا سألت الطمع: من أبوك؟ قال: الشكّ في الأقدار الإلٰهية.

* وإذا قلت له: ما عملك؟ قال: الرغبة في إذلال اللئام.

* ولو سألته عن غاية العمل ونهاية المطاف، لقال لك:
تقصير العمر بمحن الحرمان.

وقال «إبراهيم الخوّاص» قدّس سرّه: لا تتعب وتكدّ في طلب ما قدّر لك من رزق، وما قسم لك في قسمة الأزل، فهذا رزقك وتلك قسمتك. ولا تهمل ما طلب منك، وهو الطاعة[٣٥] والانقياد لأحكام ربّ العباد، والانصياع لأوامره وتجنّب نواهيه.

* قدّر رزقك منذ الأزل، فإلى متى تسعى في طلب الرزق وتجِدّ في أثره.

* طاعة الله وخدمته أفضل ما تجنيه في حياتك،
فلا تخرج على أحكام طاعة الله وخدمته.

وقال «أبو علي الروذباري» قدّس سرّه: أضيق القيود والسجون.. معاشرة الأضداد.

* ولو أنه في غياب عبير وصال الحبيب يكون السجن للمحبّين..
سجن بالغ الضيق.

* فإنه لا سجن ولا قيد يفوق ذلك ضيقاً سوى أن يصحب العاشقُ الأغيارَ[٣٦]، ويحيا بلا صديق.

رأى «أبو العباس القصّاب» ـ قدّس سرّه ـ درويشاً يحيك خرقته[٣٧]، وكلمّا أتمّ رتقاً ولم يتقنه فتقه وأعاد حياكته. فقال الشيخ: هذه الخرقة حبيبك ومعبودك.

* يُشغل الصوفي بخرقته وما فيها من ثقوب، فإن كانت غُرَزُهُ للفقر فقد أحسن.

* وإن كانت حركة يده بتأثير تحرّك طبعه،
فكلّ غرزه وجميع خيطه صنم ومعبود.

وقد قال «الخضرمي» قدّس سرّه: «الصوفي من لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده»(٣٨). فهو يعني أن الصوفيّ إذا فني عن وجوده الطبيعيّ لا يعود إليه ثانية، لأن الفاني لا يردّ، وحين يأتي ـ بعد ذلك ـ الوجودُ الحقيقي، ويتحقّق له البقاء(٣٩) بعد الفناء، لا يفنى ثانية.

* سعيد من يذهب ويفنى تاركاً هذا النقش،
ولا يقدّر له العودة مرة أخرى إلى الوجود.

* وحين يجد ـ بعد ذلك ـ الوجودَ في جملة ما قُدّر له من نعيم..
يفتح عليه الخلود باب العدم.

بينما كان خواجه «يوسف الهمداني» ـ قدّس سرّه ـ يعظ في نظامية بغداد، نهض فقيه يعرف بابن السقاء وسط المجلس، وسأل سؤالاً. فقال السيد: إجلس، فإني أشتمُّ في كلامك رائحة الكفر، وربما لا يكون موتك على دين الإسلام. وبعد مدّة اعتنق هذا الفقيه النصرانيّة، ومات عليها.

* كل من تراه قد انخرط بعد تربية الفقر في صفّ الزهاد(٤٠) الصالحين المرشدين(٤١)..

* فلا تحفل بتحذيره من مغبّة الخطأ والزيف، حتى لا يذهب دينك على يد هذا الفاسد أدراج الرياح.

ذات يوم قال درويش في حضرة خواجة «عبد الخالق الغجدواني» قدّس سرّه: لو خيّرني الله تعالى بين الجنّة والنار لاخترت النار، فالجنّة مُراد النفس، والنار مُراد الله. فردّ السيد كلامه قائلاً: أي أمر للعبد يفعله باختياره؟ نذهب حيثما يطلب منّا الذهاب، ونبقى حيثما يطلب منّا البقاء.

* لا تأت أمراً دون اختيار سيدك ومولاك..
يا من تقرّ بالعبودية[٤٢] والطاعة للواحد القهّار.

* عندما يكون للسيّد سلطة الاختيار.. أي أمر يكون للعبد بالاختيار؟

سئل خواجه «علي الرامتيني».. قدّس سرّه: ما الإيمان؟ قال: الانفصال والاتّصال.

* من قال لك أن الإيمان هو الانفصال والاتّصال..
فضع قوله موضع القبول.

* وحاصل معنى الانفصال والاتّصال أن تفصل قلبك عن الخلق وتصله بالله.

سئل خواجه «بهاء الدين النقشبندي» قدّس سرّه: إلى أي مدى يصل نسبك؟. قال: لا يبلغ شخص منزلته عن طريق أصله ونسبه.

* من الدِلْق والعصا.. لا يكون الصدق[٤٣] والصفاء،
ولا تَهُبّ من المسبحة سوى ريح الرياء.

* فلا تتشدّق دواماً بما بلغته من نسب،
فلا ينال الشخص مكانته عن طريق النسب.

* * *

الهوامش

(١) يعني مشايخ الصوفية.

(٢) كتبت حول جنيد البغدادي وغيره من الشيوخ الذين وردت أسماؤهم في هذه الروضة وذلك في الفصل الملحق بالترجمة، تحت عنوان: «شخصيّات بهارستان».

(٣) الراسخ ـ كقول بعضهم ـ من اطّلع على محلّ الموادّ من الخطاب. والراسخون في العِلم ـ كقول الواسطي ـ من رسخوا بأرواحهم من غيب الغيب في سرّ السرّ. وطبقاً لقول الخرّاز: هم الذين كملوا في جميع العلوم وعرفوها، واطّلعوا على همّ الخلائق كلّهم أجمعين. (عوارف المعارف ٣٠).

(٤) الولاية: يعترف بها التصوّف، ويعتبرها لازمة من لوازمه وتابعة من توابعه، ويراها هديّة الله للمتقين، وخلعته على المحبّين. وهناك ولاية خاصّة. وهذه درجات ومنازل، ومنها منزلة المحدّثين. والوليّ مشتق من الولاية، وهو الذي توالت أفعاله على الموافقة، والذي لا يرائي ولا ينافق، والفاني في حاله الباقي في مشاهدة الحقّ سبحانه.. ومن صفات الولي ألّا يكون له خوف، وأن يكون ابن وقته.. لا مستقبل له، لا خوف له، لا رجاء له، لا حزن له. (الرسالة ١٣٨ ـ ١٤٠).

(٥) قرآن كريم: سورة هود، ١٢٠.

(٦) النفس: يرد في أقوال الصوفيّة أن ترويح القلوب يكون بلطائف القلوب، وأنّ صاحب الأنفاس أرقّ وأصفى من صاحب الأحوال، فكأن صاحب الوقت مبتدىء وصاحب الأنفاس منته وصاحب الأحوال بينهما. فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية في الترقّي، والأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح والأنفاس لأهل السرائر. (الرسالة ٥١؛ العوارف ٣٦٩، ٣٧٠).

(٧) الشيخ والمرشد: يختلف الصوفيّون الصادقون فيما بينهم اختلافاً كبيراً لأن طريقة كل منهم تقوم أساساً على الفرديّة وعدم الجهر والإعلان. ولا يصل العارف منهم إلى

مرتبة العرفان حتى يحتاز جملة من المقامات يخضع فيها لنظام طويل من المجاهدة تحت إشراف جملة من الشيوخ والمرشدين. ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في الطريقة الصوفيّة.

والشيخ يحبّب الله إلى عباده لأنه يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله.. ومن صحّ اقتداؤه واتّباعه أحبّه الله تعالى، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين. وفي عرف الصوفية أن من خالف شيخه لم يبق على طريقته، ولذا لا يجب الاعتراض على الشيخ. (العوارف ٦٠، ٦١؛ الرسالة ١٦٣).

(٨) حديث موضوع لا أساس له.

(٩) المقام: ما يتحقّق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصّل إليه بنوع التصرّف، ويتحقّق به بضرب تطلّب ومقاساة تكلّف. فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له. وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام؛ فإن من لا قناعة له لا يصحّ له التوكّل، ومن لا توكّل له لا يصح له التسليم، ومن لا توبة له لا تصحّ له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصحّ له الزهد. والمقام هو الإقامة، والمدخل بمعنى الإدخال، والمخرج بمعنى الإخراج. ولا يصحّ لأحد منازلة مقام إلّا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة. (الرسالة ٣٤).

(١٠) الوصول: المقامات السبعة هي: مقام التوبة، مقام الورع، مقام الزهد، مقام الفقر، مقام الصبر، مقام التوكّل، مقام الرضا.. وعن طريق هذه المقامات يمكن الوصول إلى الله. والواصل هو الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبداً.. والمتّصل الذي بجهده يتّصل وكلّما دنا انقطع. والواصل ـ كما يقول الجنيد ـ هو الحاصل عند ربّه. أما أهل الوصل فقد أوصل الله إليهم قلوبهم ـ كما يقول رويم ـ فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبدا.

(١١) المريد: الإرادة بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى. وإنما سميت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدّمة كلّ أمر، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله.. فلمّا كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عزّ وجلّ سمّي إرادة تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدّمتها، والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة. وإن كان المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له، فمن لم يتجرّد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من له إرادة على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً.

وقيل: من صفات المريدين التحبّب إلى الله بالنوافل والخلوص في نصيحة الأمّة، والأنس بالجلوة، والصبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرّض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالخمول،

وعدم القرار بالقلب إلى أن يصل إلى الربّ. (الرسالة ١٠٩ ـ ١١١).

(١٢) التوبة: أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، فهي أصل كل مقام وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال.

وحقيقة التوبة في لغة العرب الرجوع، يقال: تاب أي رجع. فالتوبة الرجوع عمّا كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه. وشرط التوبة حتى تصحّ ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلّة في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي. ويقال: من لا توبة له لا حال له. (العوارف ٣٣٠؛ الرسالة ٥٣ ـ ٥٦).

(١٣) الكِبر: ظن الإنسان أنه أكبر من غيره، والتكبّر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقّها إلاّ الله تعالى، ومن ادّعاها من المخلوقين يكون كاذباً.

والكبر يتولّد من الإعجاب. والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة. وقد عظّم الله تعالى شأن الكِبر بقوله تعالى: إنه لا يحبّ المستكبرين.

قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء: (العوارف ١٧٢، ١٧٣).

(١٤) النفس: ريح حارّة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات. ويقال إنها لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات المذمومة. وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره، وطيشها من جهلها وشرهها من حرصها.

ونفس الشيء في اللغة وجوده، وعند القوم يراد بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (العوارف ٣١٥ وما بعدها؛ الرسالة ٥٢ وما بعدها).

(١٥) المحبّة: حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبّته للعبد، فالحقّ سبحانه يوصف بأنه يحبّ العبد، والعبد يوصف بأنه يحبّ الحقّ سبحانه. ويقول الشيوخ: إن المحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم، وهي إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب، ومحو المحبّ بصفاته وإثبات المحبوب، إلى غير ذلك.

والحبّ هنا هو خالص الحبّ، ومعناه أن يحبّ الصوفيّ الله تعالى بكليّته. والحبّ الخالص هو أصل الحالات السنيّة وموجبها، وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات. (الرسالة ١٦٩ ـ ١٧٥؛ العوارف ٣٥٠ وما بعدها).

(١٦) هناك فرق بين العبودية والعبادة والعبودة، فالعبوديّة أتمّ من العبادة. فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة. والعبادة للعوام من المؤمنين، والعبوديّة للخواصّ، والعبودة لخاصّ

الخاص. والعبادة لمن له علم اليقين، وهي لأصحاب المجاهدات.. فمن لم يدّخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة. (الرسالة، ١٠٧).

(١٧) الخوف والرجاء: مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان في صلب التوبة النصوح، لأن خوف التائب حمله على التوبة، ولولا خوفه ما تاب ولولا رجاؤه ما خاف. فالرجاء والخوف يتلازمان في قلب المؤمن ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم في التوبة.

والخوف والرجاء ـ كما قال الواسطي ـ زمامان على النفوس لئلا تخرج إلى رعونتها. والرجاء ـ كقول بعضهم ـ تعلّق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل. وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال (الرسالة ٧١ ـ ٧٤؛ العوارف ٣٣٥).

(١٨) الرضا: ثمرة التوبة النصوح. وما تخلّف عبد عن الرضا إلّا بتخلّفه عن التوبة النصوح. وبناءً عليه فإنّ التوبة النصوح تجمع حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا.

وقال البعض أن الرضا من الأحوال، وقال آخرون أنه من المقامات. والراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره. (العوارف ٣٥٥؛ الرسالة ١٠٥ ـ ١٠٧).

(١٩) القناعة: من أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا. والقناعة في الدنيا السلامة من المطالبة بالحقوق وما يتبعها من التعب، وفي الآخرة السلامة من طول الحساب.

وقد قال عليه السلام: القناعة كنز لا يفنى. وقال بشر: القناعة مَلَك لا يسكن إلّا في قلب مؤمن. وقال بعضهم: الحياة الطيّبة في الدنيا هي القناعة، والقناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد.. إلى غير ذلك. (الرسالة ٨٨؛ تعليق الشيخ الأنصاري في نفس الصفحة؛ العوارف ١٨٨).

(٢٠) الإيمان: عرّفه أبو عبد الله بن خفيف الصوفي بأنه تصديق القلوب بما علمه الحق من العيوب. (الرسالة ٥).

(٢١) الوقت: ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته،

فإنه كالسيف يمضي الوقت بحكمه ويقطع

وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه، فيتصرّف فيه فيكون بحكمه. وحقيقة الوقت عند أهل التحقيق حادث متوهّم علق حصوله على حادث متحقّق. ويقال: الصوفيّ ابن وقته، أي أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين. (الرسالة ٣٧؛ عوارف المعارف ٣٦٨).

(٢٢) السرّ: يحتمل أن يكون لطيفه مودعة في القالب كالأرواح، وأصولهم تقتضي أن تكون هذه اللطيفة محلّ المشاهدة كما أن الأرواح محلّ للمحبة والقلوب محلّ

للمعارف. ويقال: السرّ مالك عليه إشراف، وسرّ السرّ ما لا اطّلاع عليه لغير الحقّ.
ومن الصوفيّة من يجعل السرّ بعد القلب وقبل الروح، ومنهم من يجعله بعد الروح وأعلى منها وألطف (الرسالة ٥٣؛ العوارف ٣١٦).

(٢٣) القرب والبعد: أوّل رتبة في القرب من طاعته والاتّصاف في دوام الأوقات بعبادته تسمّى عند الصوفيّة بالقرب. أما البعد فهو التجنّس بمخالفته، والتجافي عن طاعته.
فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق. ولا يكون قرب العبد من الحقّ إلاّ ببعده عن الخلق. وأدنى مقام من مقامات القرب الحياء.. كما يقول سهل.
(الرسالة ٤٩، ٥٠؛ العوارف ٣٥٧ وما بعدها).

(٢٤) الفناء: أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة. وقالوا في بعض تعاريفهم: هو فناء الصوفي عن الحظوظ بحيث لا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني فيه. ومن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنه فني عن شهواته. ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً.. يقال إنه فني عن الخلق وبقي بالحقّ. (العوارف ٣٦٢، وما بعدها؛ الرسالة ٤٣).

(٢٥) الحزن: حال يقبض القلب عن التفرّق في أودية الغفلة. وهو من أوصاف أهل السلوك.

(٢٦) القلب: هو المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة في الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر في تجاويف العروق الضوارب. والقلب هو المكان الذي يبعث الروح الحيواني الذي يحمل قوة الحسّ والحركة، فتفيض منه قوى الحواس.
ومن القلوب قلب متطلّع إلى الأب الذي هو الروح العلوي، ميّال إليه، وهو القلب المؤيّد. وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة.

(٢٧) الذِكر: ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق. ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلاّ بدوام الذِكر. والذِكر على ضربين، ذكر اللسان وذكر القلب. فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب. فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه.
ومن خصائص الذكر أنّه غير مؤقّت:.. بل ما من وقت من الأوقات إلاّ والعبد مأمور فيه بذكر الله تعالى، إمّا فرضاً وإمّا ندباً. (الرسالة ١١٩ وما بعدها).

(٢٨) الخواطر: الخاطر خطاب يرد على الضمائر، وقد يكون بإلقاء مَلَك أو شيطان، ويكون من أحاديث النفس أو من قِبل الحق. فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قبل الله سبحانه وإلقائه في القلب فهو خاطر حق. (الرسالة ٥١).

(٢٩) الصوفي: هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي، وللجماعة صوفيّة، ومن يتوصّل إلى ذلك يقال له متصوّف، وللجماعة متصوّفة.
وقد اختلفوا في سبب التسمية فقيل إنها من الصوف، أو نسبة إلى صفّة مسجد الرسول عليه السلام أو مشتقّة من الصفاء أو الصفّ، غير أن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ، واستحقاق اشتقاق. (الرسالة ١٤٩ وما بعدها).

(٣٠) الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد المرء بطاعته التقرّب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنّع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبّة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرّب به إلى الله تعالى. ويصحّ أن يقال:
الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، أو التوقّي عن ملاحظة الأشخاص.
وللصوفيّة فيما يتعلق بالإخلاص كثير من الأحوال. (الرسالة القشيرية ١١٢ ـ ١١٤).

(٣١) الفقر: للصوفيّة في تعريفهم الفقر أقوال كثيرة، منها:
أ ـ الفقر أن لا يكون لك، فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر.
ب ـ إذا صحّ الافتقار إلى الله تعالى صحّ الغنى بالله تعالى.. لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلّا بالآخر.
جـ ـ الفقر رداء الأشراف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين، وقد اختاره الصوفيّة لأنه أوّل منزل من منازل التوحيد.
وقد قال المزين. كانت الطرق إلى الله أكبر من نجوم السماء، فما بقي منها طريق إلّا طريق الفقر. وهو أصحّ الطرق. (الرسالة ١٤٤ ـ ١٤٩؛ العوارف ٣٤٣).

(٣٢) العطاء: يفضّل الصوفيّة عطاء الله، ويتحدّثون عن عطائه فيقولون:
عطاؤه على نوعين: كرامة واستدراج، فما أبقاه عليك فهو كرامة، وما أزاله عنك فهو استدراج. (الرسالة ٥).

(٣٣) التواضع: من أحسن أخلاق الصوفيّة التواضع، وقد سئل عنه جنيد فقال:
هو خفض الجناح ولين الجانب.
وسئل عنه الفضيل فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، وتقبله ممن قال وتسمع منه.
كما قال في شأنه: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.
والكبر ضد التواضع. ومن تواضع لله رفعه ومن تكبّر وضعه. (الرسالة ٨٠ ـ ٨٢؛ العوارف ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣٤) الروح نسيم طيب تكون به الحياة. والأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنّة، فمنهم من يقول إنّها الحياة، ومنهم من يقول إنّها أعيان مودعة في هذه

القوالب، ولها ترق في حال النوم، ومفارقة للبدن ثم رجوع إليه. والإنسان هو الروح والجسد.. لأن الله سبحانه وتعالى سخّر هذه الجملة بعضها لبعض... والأرواح مخلوقة، ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأً عظيماً، والأخبار تدلّ على أنها أعيان لطيفة. (الرسالة ٥٣؛ العوارف ٣١٤).

(٣٥) الطاعة: الوجد سرّ صفات الباطن، كما أن الطاعة سرّ صفات الظاهر. وصفات الظاهر الحركة والسكون. وصفات الباطن الأحوال والأخلاق. (العوارف ١٣٣).

(٣٦) الأغيار: شرط فناء المحبّ عند الصوفيّة أن تغيب الأكوان والأحداث عن ناظريه، لأنه لا يرى إلّا ربّه الحبيب القريب.. ويعبّر الصوفيّة عن الألوان والأحداث بالأغيار. (رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام ١١٠).

(٣٧) الخرقة: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه. والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية.. لذا يرى الصوفيّة أنه يجب ألّا ينكر المنكر لبس الخرقة على طالب صادق في طلبه يتقصّد شيخاً بحسن ظنٍ وعقيدة، يحكّمه في نفسه لمصالح دينه، ويرشده ويهديه ويعرّفه طريق المواجيد، ويبصّره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدوّ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة.. إظهاراً للتصرّف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم. والخرقة خرقتان، خرقة الإرادة وخرقة التبرّك، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة. (العوارف ٦٩ ـ ٧٥).

(٣٨) الوجود: يأتي عند الصوفيّة بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحقّ إلّا بعد خمود البشرية، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. والتواجد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية.

ويرى كبار الصوفيّة أن الوجود يوجب استهلاك العبد، وأن صاحب الوجود له صحو ومحو فحال صحوه بقاؤه بالحقّ، وحال محوه فناؤه بالحقّ.. وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه. (الرسالة ٤١).

(٣٩) البقاء: أشار القوم بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به، وقالوا إن العبد لا يخلو من الفناء أو البقاء، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

وقيل: الفناء هو التلاشي بالحقّ والبقاء هو الحضور مع الحقّ.

وقيل: الباقي من تصير الأشياء كلّها له شيئاً واحداً، فيكون في موافقة الحق في كل حركاته دون مخالفته، فهو فان عن المخالفات باقٍ في الموافقات. (العوارف ٣٦٢؛ الرسالة ٤٣ وما بعدها).

(٤٠) الزهد: عرّفه كبار الصوفيّة بعدّة تعريفات، منها:

أ - الزهد خلوّ الأيدي من الأملاك والقلوب من التتبّع.

ب - الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلّف.

جـ - الزهد أن تزهد فيما سوى الله تعالى.

د - الزهد لا يكون إلاّ في الحلال، ولا حلال في الدنيا فلا زهد.

هـ - الزهد غفلة، لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة. وهناك من يزهد في الزهد فيستوي لديه وجود الدنيا وعدمها، والزاهد من يلتزم الزهد باختياره. (الرسالة ٢٦٦ وما بعدها؛ العوارف ٣٤٠ - ٣٤١).

(٤١) المرشد: هو الشيخ، وهو من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين. (العوارف ٦٠).

(٤٢) العبوديّة: قيل في التعريف بها وبيان قدرها:

أ - العبوديّة أتمّ من العبادة، فأولاً عبادة ثم عبوديّة، ثم عبودة.

فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبوديّة للخواص، والعبودة لخاصّ الخاص.

ب - العبوديّة ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار.

جـ - العبوديّة التبرّي من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنّة.

د - العبوديّة معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه.

هـ - العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود. (الرسالة ١٠٧ - ١٠٨).

(٤٣) الصدق: عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو تال لدرجة النبوّة، قال الله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين﴾.

والصادق: الإسم اللازم من الصدق، والصدّيق: المبالغة منه.. وهو الكثير الصدق.

وقيل: الصدق القول بالحقّ في مواطن الهلكة. وقيل: الصدق موافقة السرّ النطق.

وقيل: الصدق منع الحرام الشدق.

وقيل: الوفاء لله عزّ وجلّ بالعمل.

وقيل: صحّة التوحيد مع القصد. (الرسالة ١١٤ - ١١٦).



الرَّوضَةُ الثّانيَة



في تربية شقائق دقائق الحِكَم، التي تنبتها رشحات سحاب الكرم من أرض قلوب الحكماء، وتربة خواطرهم وأفكارهم، وشرح ما يزيّن دفاترهم، وبيان ما تنطوي عليه كراساتهم.

(فائدة)

قيل إن الحكيم من يحاول أن يعلم حقيقة الأشياء قدر استطاعته، ويروّض نفسه على العمل وفق ما يقتضيه العمل ويتطلّبه.

* يحسن بك أن تترك الحظ الفاني، وأن تدبّر أمر البقاء الخالد.

* فاجتهد في سبيل معرفة كل ما تستطيع معرفته،
ثم افعل ما تستطيع فعله.

(حكمة)

فتح الإسكندر[1] إبّان سطوته قلعة بحيلة متقنة وخدعة محكمة، وأصدر أمره بتخريبها. فقيل له إن فيها حكيماً عالماً قادراً على حلّ المشكلات، فأرسل الإسكندر في طلبه.

وجاء الرجل، فرأى الإسكندر فيه شكلاً يمجّه الطبع، وينفر منه أهل

القبول، فقال: أيّ وجه مخيف هذا وأي شكل غريب؟، فتضايق الحكيم وقال في سخرية:

* لا تلمزني بنعتي بقبح الشكل يا من تفتقر إلى الفضيلة والإنصاف.

* فالجسد بمثابة القراب، والروح كالسيف،
والسيف هو الذي يعمل لا القراب.

ثم أردف قائلاً:

من ساء مع الناس خُلُقه.. كان جلده سجناً على بدنه، فيضيق بوجوده وحياته حتى ليعتبر السجن - بالقياس إلى جلده - مكاناً مفتوحاً صالحاً للنزهة والمتعة.

* من يسلك مع الناس كلّهم مسلكاً ينطوي على الغلظة والجفاء..
يُختبر بمئات البلايا، ويُمتحن بمئات المحن.

* فلا تلجأ إلى العسس ليسجنوه، إذ يكفيه جلده قيداً وسجناً.

وقال أيضاً:

الحسود[٢] في ألم دائم، وهو مع خالقه في عداء مستحكم. لا يفرح لخير يصيب سواه، ويشتهي ما ليس من نصيبه.. ويتمنّاه.

* من عادة الحسود أن يعترض على أحكام الله الأزلية..
جعل الله التراب في فمه.

* فهو يحزن عندما يرى شيئاً في يد الآخرين، ويقول:
لماذا أعطاهم الله دون سبب.. ولم يعطني؟.

وقال: كرام العقلاء يوزّعون المال على الأصدقاء،
والبخلاء الجهلاء يتركونه للأعداء.

* كل ما يصل إلى يد الكريم ينشره تحت أقدام أصدقائه.

* وكل ما يجمعه الوضيع البخيل يبقى بعد الموت لأعدائه.

وقال: الخوض مع الصغار في مضمار الهزل والسخرية مدعاة للخجل، وإثارة لغبار الذلّة والمسكنة.

* يا من تهزل مع السِفلة وتلقي النكات..
أخشى أن يَسقط اسمك من قائمة أسماء العظماء.

* فلا تهزل مع السفلة وتمزح معهم.. فتفقد عظمتك وهيبتك.. بلا إبطاء.

وقال: كل من يركل من يقلّون عنه شأناً.. يموت متأثراً بركلات من يفوقونه منزلة وفضلاً.

* استمع يا قلب إلى طُرفة سمعتها من ظرفاء أذكياء، فظلّت بأذني عالقة..

* من يستلّ سيف القوة.. يصرعه سيف من أيديهم في الدماء غارقة.

ووجد الإسكندر أن أذنه قد امتلأت بجواهر حكيم الزمان.. فملأ فم الفيلسوف بالجواهر ولوى العنان.. وعدل عن تخريب القلعة والمكان.

(حكمة)

كتب أفريدون[٣] ـ الذي لم يبذر في أرض الشفقة غير بذور النصيحة ـ خطاباً ملكيّاً لأبنائه، جاء فيه: صفحات الأيام صحيفة الأعمال، فلا تكتبوا فيها سوى أفضل الأعمال وأجلّ الآثار.

* قال لي عاقل يفكر دوماً: صفحة الدهر دفتر الأعمار
* والسعيد الذي يسجّل فيه طيّب الفعل، طيّب الأفكار

(حكمة)

قال أحد الحكماء، كتبت أربعين دفتراً في الحكمة.. لم أنتفع بها، فاخترت أربعين كلمة من بينها فلم أستفد منها شيئاً، فاخترت من بين الأربعين أربع كلمات.. فوجدت فيها بغيتي:

الكلمة الأولى: لا تعتمد على النساء اعتمادك على الرجال، فالمرأة ـ وإن كانت أهلاً للثقة ـ لا يمكن الاعتماد عليها والركون إليها.

* عقل المرأة ناقص ودينها، فلا تعتمد عليها اعتماداً كاملاً وتركن إليها.

* لا تستشرها إن كانت سيئة، ولو كانت طيبة.. لا تثق بها وتسعى إليها.

الكلمة الثانية: لا تغتر بالمال وإن كثر، فالمال يصبح في النهاية موطئاً لنعال حوادث الأيام.

* لا تغترّ بالمال اغترار الجهلاء به، فالمال كالسحابة السارية العابرة.

* والسحابة العابرة وإن أمطرت جوهراً..
لا يفكر فيها العاقل أو يشغل بها خاطره.

والكلمة الثالثة: لا تَبُح بأدق أسرارك لأيّ صديق، فكثيراً ما يصيب الصداقة العطب، وتتبدّل بعداوة.

* يا بنيّ، تقليلك الكلام خير من إفشائك سراً لصديقك..
تحرص على إخفائه عن عدوّك.

* فطالما رأينا الفلك يحيد عن سيره، والأصدقاء ينقلبون إلى أعداء..

والكلمة الرابعة: لا تحصّل سوى العلم الذي لو تركته ومتّ.. متّ آثماً لتركه. وابتعد عن الفضول، وتمسّك بما هو ضروري.

* أقصد العلم الذي لا غنى لك عنه، واهجر من صنوف العلم ما لا ضرورة له.

* وحين تسيطر على العلم الذي يلزمك.. إجعل نصب عينك العملَ بموجبه.

(حكمة)

كانت مكتبة حكماء الهند تحتاج إلى مائة جمل لحملها، فطلب أحد

ملوكهم اختصارها.. ففعلوا بحيث أصبحت عشر جمال تكفي لحملها، وكرّر الملك طلبه.. فانتهى بهم الأمر إلى بلورتها في أربع كلمات..

الكلمة الأولى: في توجيه الملوك شطر العدالة.

* حين يتّبع ملك العالم سياسة العدل[٤].. يصبح الكبير مصدر راحة للصغير.

* وحين يئن المهموم مكلوم الفؤاد..
يكون الظلم أحد أسرار أنينه وعيشه المرير.

* وإذا أردت ما يعينك على تقلبات الدهر، فابحث عنه عند الملك،
فعدله هو المعين والنصير.

الكلمة الثانية: في توصية الرعية بإتقان الأعمال، وإطاعة الأوامر والأقوال.

(بيت)

* يظلم المَلِك فيعصى الناس أمره.. كيف يجنى القمحَ من يكون الشعير بذره؟!.

الكلمة الثالثة: في حفظ صحة الأبدان، ومفادها أن الناس يجب ألا يمدّوا أيديهم لطعام ما داموا غير جائعين، وإذا أكلوا لا يقومون عن الطعام ممتلئين.

* الأفضل لك أن تتلافى أسباب المرض، وتتحايل للإفلات من براثن الأطباء.

* فلا تجلس إلى المائدة حتى تفرغ معدتك، وغادرها قبل التخمة والامتلاء.

الكلمة الرابعة: في إزجاء النصح للنساء بالابتعاد عن التطلّع بأبصارهن لوجوه الغرباء، وتوجيههن إلى ستر وجوههن عن عيون غير المحارم.

* المرأة ـ بحق ـ من تُخفي إنسان عينها عمن لا يكون محرماً لها.. وتغضي في حياء.

* وتغض بصرها، فلا تنظر إلاّ لزوجها.. ولا تتطلّع لغيره،
ولو كان في حسنه يعدل قمر السماء.

هذه كلمات أربع.. وجّهها أربعة ملوك.. فكانت بمثابة سهم واحد ألقته أربعة أقواس. أولاها كلمة الملك كسرى(٥): لم أندم مطلقاً على شيء لم أقله. وما أكثر ما أخطأت وأسرفت في قولي، ثم نمت ـ معفّراً بالتراب مسربلاً بالدم ـ من ندمي وخجلي.

* اصمت(٦)، فالهدوء والسكوت أفضل من حديث يعقبه الاضطراب والألم.

* لا يندم المرء على احتفاظه بسرّ حبيبه..
وما أكثر ما يفشي من أسرار تجلب الندم.

وثانيتها كلمة الملك قيصر: إن قدرتي على ما لم أقله وسيطرتي عليه أكبر منها على ما قلته، فما لم أقله يمكنني أن أقوله، وما قلته لا أستطيع إخفاءه.

* ما كان إفشاؤه عسيراً.. لا تبح به لزملائك في يسر، وبلا عناء.

* فإنّ ما تخفيه يمكنك قوله، وما قلته لا تستطيع إخفاءه.. حين تشاء.

وثالثتها كلمة خاقان الصين: كثيراً ما يكون الحزن الناجم عن القول والتصريح أشد وطأة من الندم الناشىء عن الإخفاء والستر.

* إذا وقفت على سر خفي وثبت في خاطرك، لا تسرع بنقشه في لوح البيان.

* فما أخشاه هو أن تصير وطأة إفشائه أقسى على نفسك..
من وطأة الإخفاء وندم الكتمان.

ورابعتها كلمة ملك الهند: كل كلمة فرّت من لساني قد غَلَّت يدي،

فَعَجَزْت عن السيطرة عليها، وكل كلمة لم أقلها أحسست أني مالكها وسيِّدها، إن شئتُ قلتها وإن شئت لم أفه بها.

* مَثَل السرّ المعلن والسرّ المكنون.. كما جاء على لسان أحد العقلاء..

* كسهم باق في يدك، وسهم انطلق من قوسك.. لا ترجعه عندما تشاء.

(حكمة)

أرسل ملك الهند تحفاً إلى خليفة بغداد، حملها إليه طبيب فيلسوف.. اشتهر بالمهارة في مضمار الطبّ والحكمة. فلما مثل الطبيب أمام الخليفة قال له: لقد أحضرت ثلاثة أشياء لا تليق إلّا بالملوك، ولا تصلح لغير السلاطين.

فقال الخليفة: ما هي؟ قال:

أولها: خضاب يحول الشعر الأبيض إلى أسود، فيستمر على وضعه هذا، ولا يبيضّ ثانية.

وثانيها: معجون إذا تناوله المرء لا تثقل معدته، ولا يصاب بالتخمة مهما أكل من طعام، وهكذا يظلّ معتدل المزاج.

وثالثها: تركيب يقوّي الظهر ويرغب في الجماع.. ولا ينشأ عن تكرار ذلك الأمر ضعف في البصر، ولا فتور أو خَوَر.

وأطرق الخليفة برهة ثم قال: خلتك أعلم من هذا وأمهر

إنّ ما أشرت إليه من خضاب لهو أصل الغرور، وزينة البهتان والزّور، فسواد الشعر ظلمة وبياضه نور. فواعجباً لجاهل يجتهد في ستر النور بالظلمة.

* الأبله من ينقل شعره من البياض إلى السواد،
ويأمل في الشباب بعد الكِبَر.

* فمتى كان للغراب الأسود ـ في عرف من لهم في الصيد خبرة ودربة ـ رونق الصقر الأبيض؟

أما ما ذكرته من معجون.. فلا قيمة له عندي، فلست ممن يأكلون كثيراً، ويتلذّذون بما يأكلون، فلا شيء يجلب الشقاء أكثر من ذهاب المرء مراراً إلى مكان يرى فيه ما لا يحبّ، ويسمع فيه ما يكره، ويشمّ ما يبغض. وقد قال الحكماء: الجوع مرض يصيب المزاج، والطعام والشراب ـ لهذا المرض ـ أساس العلاج، والجاهل من يُمرِض نفسَه راضياً، إلى أن يصل به الأمر حدّ رعايتها والعناية بها.

* تزداد شهية السيّد فيتسبّب ذلك في فساد مزاجه..

* عندها يحاول علاج ذلك العيب
بكل ما يصل إلى يده من ناضج الطعام ونيّئه.

وبالنسبة لما ذكرته عن التركيب.. فإن مباشرة النساء ضرب من الجنون، يشذّ عن قاعدة العقل، ومن المستبعد أن يركع خليفة وجه الأرض أمام فتاة.. يتملّقها متأثّراً بشهوته.

* يا من تفخر بحكمتك، حتّام تتمسّك بشهوتك؟
خلّ ذؤابة الحبيب، وحطّم قيد الجنون وأخمد سورتك.

* أي جنون يفوق جثوّك على ركبتيك أمام زنجية.. تباشرها محرّكاً عجيزتك.

إجتمع ثلاثة حكماء في مجلس كسرى: فيلسوف روميّ، وحكيم هنديّ، وبزرجمهر(٧) الفارسيّ، ودار النقاش، فكان السؤال: ما هو أشق الأشياء وأقساها؟

فقال الرومي: كِبَر السنّ والوهن في ظل الفقر والحاجة. وقال الهندي: الجسد السقيم والحزن العميم. وقال بزرجمهر: اقتراب الأجل وسوء العمل.. فرضي الجميع بقوله، ورجع الرجلان عما قرّراه.

* في حديث أمام كسرى تساءل ذوو الحجى عن أشد البلايا قسوة، وأقسى هموم الدنيا وطأة.

* قال أحدهم: إنه المرض والحزن الطويل، وقال آخر: إنه الكِبر والمال القليل.
* وقال ثالث: بل هو قرب الأجل وسوء العمل، فاعترفا بقوله، وحكما بفضله.

(حكمة)

قيل لحكيم: متى يسرع الإنسان إلى الطعام؟
قال: يسرع الغني إذا جاع، والفقير إذا وَجَد.

* كُل بحيث لا ينقص من عمرك إكثارك من الأكل أو إقلالك منه..
* فإن كنت غنياً فكل وقتما تريد،
وإن كنت معسراً فكل كلّما وجدت الطعام.

(حكمة)

قال حكيم لابنه وهو يعظه: يا بني لا تخرج من منزلك في الصباح الباكر دون أن تصيب شيئاً من الطعام، فالشبع بذرة الحلم والصبر[8] والتحمّل، والجوع أصل العناد والغباء والتسرّع وجفاف العقل[9].

* إن مال طبعك إلى الحدّة نتيجة صومك،
فالحلم والصبر خير مما سواهما وأفضل.
* وإن تسبب الصوم في ألمك وضيق نفسك، فالإفطار خير منه وأفضل.
* إنك حين تجوع يثير الإدام شهيّتك، فتطمع فيما عند معارفك ومخالطيك.
* من الأفضل أن تأكل كل ماتجده في دارك من رطب ويابس إلى أن تشبع.
* وذلك كي لا تشتهي طعام الناس، وتطمع في عطاء الأرذال.

(حكمة)

إذا جلس المضيف إلى مائدته وتصرّف كمالِكٍ لها،
فاطْعَم كبدَك ولا تتناول خبزَه، واشْرَب دمَك ولا تشرب من مائدته.

* كلّ من يقول مائدتي وخبزي، إسحب قدمك عن مائدته ويدك عن خبزه.
* واعلم أن نباتاً طازجاً تأكله من بستانك أفضل من حَمَلِه المشويّ.

(حكمة)

خمسة أشياء تضع زمام الحياة السعيدة في يد من يملكها: صحّة البدن، والأمان، وسعة الرزق، والرفيق الشفوق، وراحة البال. وإنّ باب الحياة السعيدة ليغلق في وجه من حُرِم هذه الأشياء.

* أسباب الحياة السعيدة خمسة.. هذا ما اتفق عليه مشاهير الحكماء.
* راحة البال والأمان والصحة، ووفرة العيش، والرفيق ذو الخلق والوفاء.

(حكمة)

النعمة الزائلة.. لا يُدخِلها العاقل في عداد النِعَم. والعمر الطويل.. لا فائدة منه إذا ما أطلّ الموت بوجهه؟. لقد عاش نوح ألف سنة، وانقضى على موته خمسة آلاف عام، وقد قدّر للنعمة التي نالها الخلود والنجاة من آفة الزوال.

* النعمة في نظر العالِم كل ما تكون الروح منه في سرور وسعادة لا ينقطعان.
* وليست النعمة في الذهب والفضة، فكلاهما شاهد قبرك،
يبقى بعد أن يصبح القبر مثواك.

(حكمة)

سئل بزرجمهر: أي الملوك أطهر؟ قال: من أَمِنه الطاهرون، وخشيه المذنبون.

(بيت)

* المَلِك من صفت نفسه وسما فكره، وكان الفضلاء منه في أهنأ بال،

والمذنبون بسببه في أسوأ حال.

(حكاية)

قيل للحجاج[١٠]: إخش ربك ولا تظلم المسلمين. فصعد المنبر ـ وكان في غاية الفصاحة ـ وقال: لقد سلطني الله عزّ وجلّ عليكم، فإذا مِتُّ فلن تفرّوا من الظلم بعدي.. مع ما أنتم عليه من سوء.

إن عند الله تعالى من يماثلونني من الأشرار، فلو متّ ـ وأنتم على ما أنتم عليه ـ فسوف يبعث عليكم من هو أسوأ مني.

* إذا أردت أن يعدل الملك.. فاتبع العدل في شؤون الأخذ والعطاء.

* فالملك مرآة، كل ما تراه فيها.. انعكاس لجملة أعمالك.

(حكمة)

طلب ملك نصيحة من حكيم. فقال الحكيم: سأسألك سؤالاً، فأجبني في صراحة.. أيّهما تحبّ أكثر من سواه.. الذهب أم عدوّك (المالك للذهب)؟

قال الملك: الذهب.

قال الحكيم: إنّ ما تحبّه سوف تتركه وراءك، ومن لا تحبّه سوف تأخذه معك.

فبكى الملك وقال: لقد قدّمت لي نصيحة طيّبة.. كل النصائح مدرجة فيها.

* إنك لفرط اشتهائك الفضة والذهب:
تخلق بين الناس ألف لون من ألوان العداوة.

* هما حبيباك، وصاحبهما عدوّك الذي تأخذهما من كفّه ظلماً وعدواناً.

* ولا تقتضي الحكمة والعقل والتدبير أن تترك الصديق وتصحب الخصم معك.

(حكمة)

عزل الإسكندر خبيراً حاذقاً، وأمر أن يُسند إليه عمل حقير ومنصب وضيع. وذات يوم مثل الرجل في حضرته، فسأله: ما رأيك في عملك؟ قال: أطال الله عمر الملك.. لا يَعْظُم الرجل ولا يَشْرُف بالعمل، بل العمل هو الذي يعظم ويشرف بالرجل. لذا فإن حُسن السيرة والعدل والإنصاف أمور لازمة في كل عمل.

فاستحسن الإسكندر جوابه، وأعاد إليه عمله السابق.

* إن شئت منصباً رفيعاً، ومنزلة عالية، فاجتهد في اللحاق بركب الفضل والهمّة.

* فليست رفعة الرجل بمنصبه، بل المنصب هو الذي يعلو ويشرف بالرجل، ويتسنّم القمة.

(حكمة)

ثلاثة تستقبح من ثلاثة: التسرّع من الملك، والحرص من العالم، والبخل من القادر.

* هذه ثلاثة أعمال سجّلها أحد الكتّاب بقلمه..
مستهجناً أن تصدر عن ثلاثة أشخاص.

* فرط الهياج من ملك قوي، والحرص من عالم فقيه، والبخل من مالك غني.

(حكمة)

قال الحكماء: مثلما تَعْمُر الدنيا بالعدل، تفسد بالجور والظلم.

فالعدل يمنح الضياء مسافة ألف فرسخ، والظلم ينشر الظُلْمة مسافة ألف فرسخ.

* إعدل، فإنه حين يطلع صبح العدل.. يمتدّ ضياؤه لمسافة ألف فرسخ.

* وحين يخيّم ظلام الظلم.. يملأ الوجودَ حلكة والعيشَ مرارة.

(حكمة)

كان لفقير عالي الهمّة عفيف النفس مع ملك ذي صولة وجاه طريقة اختلاط وسابقة انبساط، وذات يوم، أخذ الملك يحملق في الفقير ويطيل التفرّس فيه. وفكّر الفقير وخمّن فلم يجد لذلك الأمر علّة غير كثرة تردّده على الملك، فامتنع عن صداقته وحضور مجلسه، وطوى بساط البهجة والسرور والأنس والحبور.

ولقيه الملك يوماً في الطريق فعاتبه قائلاً: ما سرّ انقطاعك أيّها الفقير عنّا، ولم قصرت خطاك عن زيارتنا؟.

قال الفقير: انقطعت عنكم وقصرت خطاي عن زيارتكم حين أدركت أن سؤالكم عن السبب في عدم حضوري أكرم لي من إظهار الملل بسبب حضوري.

* قال الغني للفقير: لماذا أتيت بعد الغياب والتأخير؟.
* قال الفقير: لو قلت: لماذا لم تأت إلينا؟.

لسرّني ذلك أكثر من قولك: لماذا أتيت؟.

* * *

الهوامش

(١) الإسكندر: اشتهر بالنجابة والشجاعة منذ نعومة أظفاره، وقد تعلّم ضروب السياسة والأدب عن الحكيم الفيلسوف أرسطاطاليس. ونشأ طيّب الخصال حميد الفعال. وتولّى الحكم بعد أبيه في سنّ العشرين فاستصغرته الرعيّة، وخرج عليه بعض الأمم التي أخضعها أبوه في بلاد اليونان وشواطىء الدانوب، فهزمهم وأرجعهم إلى طاعته، وباع بعضهم كالعبيد، فهابه اليونانيّون وأطاعوه. وتنازع مع دارا ـ ملك الفرس ـ حول دفع الجزية، وتلاقيا عند نهر غرانيكدس ببلاد الأناضول، فهزم دارا واستولى على بعض الدويلات القريبة من النهر المذكور. وبعد شفاء الإسكندر من مرض كان قد ألمّ به.. حارب دارا ثانية وهزمه وألجأه للفرار، وأكرم أمّه وزوجه وأولاده الذين خلّفهم وراءه، وطالبه بتسليم نفسه إن أراد استعادة الأسرى، فاستعظم دارا ذلك. وعقب هذا النصر، سلمت للإسكندر صور وصيدا وفلسطين وجميع البلاد الشاميّة، ودخل مصر واستولى عليها دون مقاومة؛ فقد كان المصريون يودّون التخلّص من الفرس. وقد مالوا بعد ذلك للإسكندر لرأفته بهم وحلمه. وفي عام ٣٣١ق. م. اختار بنفسه مكاناً اختطّ فيه مدينة الإسكندريّة لتكون عاصمة فتوحاته. وحارب دارا ثانية قرب إربل وهزمه. وفرّ دارا إلى بخارى حيث قتله واليها كما يرى البعض.. دون أن يقتفي الإسكندر أثره. ودخلت ممالك العجم تحت حكمه وصارت ولاية يونانيّة. وشمل حكمه تركيّة آسيا وبلاد العجم وأفغانستان وبلوجستان ومعظم بلاد الهند ومصر وجانباً من السودان وصحاري ليبيا وتركيّة وأوروبا وبلاد اليونان، واتّخذ من بابل عاصمة، وأقام بها نحو سنة، وبها مات بتأثير الحمّى، وله من العمر ٣٣ سنة.

ويرى المؤرخون أن فتح الإسكندر لفارس وغزوه لها بدأ في عام ٣٣٣ ق. م.، وأن فترة الحكم بعده كانت خالية من الآثار الأدبيّة، وأنها استمرّت خمسة قرون ونصف، وانتهت عام ٢٢٦، بقيام الدولة الساسانيّة. ويتّفق الجميع على أنه ملك الدنيا في

٢٠ سنة تقريباً، ولم يقتل أحداً وإنّما رضي من الناس بالطاعة.
انظر: تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ١٢؛ لبّ التاريخ جـ ١، ٧٢ ـ ٧٥؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران، صفحات متفرّقة؛ تاريخ الكامل؛ مختصر تاريخ الدول.

(٢) الحسد: تمنّي العبد زوال النعمة عن غيره سواء أراد رجوعها إليه أم لا، وهو حرام.. لأن فيه نسبة الظلم إلى الله تعالى. وقد يطلق مجازاً على الغبطة وتسمّى المنافسة. وقال بعضهم: الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد. وقيل: الحسود لا يسود. (الرسالة ٨٦).

(٣) أفريدون: من نسل طهمورث. أحد حكّام الدولة الپيشدادية الأسطوريّة. تولّى بعد الضّحاك وكان عهده عهد عدل ورخاء. قسّم الملك في حياته بين أبنائه: سلم وتور وايرج، فاقتتلوا، وتسببوا في حروب دامية طويلة بين العنصرين الإيرانيّ والتورانيّ، استمرت طوال العهدين البيشدادي والكياني. (انظر: ٣٥٠٠ عام من عمر إيران/٨٤).

(٤) العدل من العدالة. وعند الصوفيّة أن العدالة خليفة المحبّة.. تستعمل حيث لا توجد المحبّة. وهم يفضّلون المحبّة عليها فيقولون: لو تحابّ الناس وتعاطوا أسباب المحبّة لاستغنوا بها عن العدالة (العوارف ١٩٣).

(٥) كسرى: هو خسرو الأول الذي لقّب بكسرى أنو شيروان (أنوشك رويان ـ أنوشه روان: ذو الروح الخالدة). من أعظم ملوك الدولة الساسانية، لقّبه رعاياه بالعادل، وولد الرسول عليه السلام في عهده. يعدّه الفرس المثل الأعلى للملك الفاضل، وذلك لما فعله بمزدك، ولإصلاحه ما أفسده المزدكيّون، ولإعادته النظام الاجتماعيّ إلى ما كان عليه قبل ثورة مزدك الاجتماعيّة الهدّامة، وسنّه القوانين العادلة، وظفره في حروبه ضد البيزنطيين، والرفاهية التي حقّقها لشعبه، وتسامحه الديني، ونشره العلم، وتشجيعه العلماء. وقد كان حكمه فيما بين عامي ٥٣١ و٥٧٨م.
(تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٢٤٩ ـ ٢٥٥)؛ (تاريخ الأدب في إيران جـ ١ (ترجمة ٢٥٩ ـ ٢٦٣)؛ (٣٥٠٠ عام من عمر إيران، ١٨٦ ـ ١٩٣).

(٦) الصمت: قال أحد كبار الصوفيّة: الصمت سلامة وهو الأصل، وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر، فالواجب أن يعتبر فيه الشرع. والأمر والسكوت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال. وقال الصوفيّة في مدح الصمت وذمّه: لسان الجاهل مفتاح حتفه، والمحبّ إذا سكت هلك، والعارف إذا سكت ملك. (الرسالة ٦٨ ـ ٧٠).

(٧) بزرجمهر: وزير أنوشيروان (٥٣١ ـ ٥٧٩م). اشتهر بالحكمة، وله كتاب في آداب السلوك يسمّى: (بندنامهٔ بزرجمهر)، ظهرت على غراره بعض كتب الأدب الفارسيّ

الإسلامي كقابوس نامه الذي وضعه عنصر المعالي قابوس بن وشمگير الزياري، وقام بترجمته إلى العربية صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي (دكتور).

(٨) الصبر: من تعاريفه عند الصوفيّة:

تجرّع المرارة من غير تعبيس، والوقوف مع البلاء بحسن الأدب، والغناء في البلوى بلا ظهور شكوى. ومما قالوه في مدحه: أحسن الجزاء على عبادةٍ الجزاء على الصبر، ولا جزاء فوقه. وقالوا في درجاته: الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبّين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبّين أحسنه أن يكون مرفوضاً. (الرسالة ١٠٠ ـ ١٠٣).

(٩) العقل: هو عند الصوفيّة لسان الروح وترجمان البصيرة. والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان.

قال أحدهم: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم. وقال آخر: إنّما سمّي العقل عقلاً لأن الجهل ظلمة، فإذا غلب النور بصره في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالاً للجهل. (العوارف ٣١٧ ـ ٣١٩).

(١٠) الحجّاج: هو الحجّاج بن يوسف الثقفي. عيّنه عبد الملك الخليفة الأموي والياً أكثر من ٢٢ سنة (٦٩١ ـ ٧١٣م). اشتهر بقسوته وظلمه وكراهية الناس له. لا تقلّ كراهية الشيعة له عن كراهيتهم ليزيد وابن زياد. كانت وفاته في عام ٩٥هـ. (معجم البلدان جـ ٤، ٨٨١ ـ ٨٨٨، تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٣٣٧).



الرَّوضَةُ الثّالِثَة



في وصف تفتّح حدائق الحكومة والإيالة.. حيث تثمر فواكه الإنصاف والعدالة.

(فائـدة)

حكمة: الحكمة من وجود السلاطين بسط الإنصاف ونشر العدالة، وليس الظهور بمظهر العظمة وأبّهة الجلالة، لقد كان «أنوشيروان» على غير ديننا[1]، لكنّه كان فريداً في عدله واستقامته، لهذا وجدنا سيّد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيّات، يقول متفاخراً: وُلِدتُ في زمن السلطان العادل.

كان الرسـول الذي أطـلّ بوجهـه على الدنيـا فأضـاءها في عهـد أنو شيروان..

يقول إني بريء من الظلم فقد ولدت في عهد أنو شيروان.

* ما أطيب ما ألقاه ناصح خلصت نيّتُه، على مسامع ملك ظالم عمَّت قسوته.
* إذ قال له: فكّر في مرارة الظلم، وجرّب العدل، فللعدل حلاوته.
* فإمّا فاق عدلك ظلمك، وإمّا عدت لطريق الظلم تغشاك ظلمته.

وقد سجّل التاريخ أن سلطنة العالم كانت معقودة للملاحدة والمجوس

على مدى خمسة آلاف عام، وأنها لحسن الحظ قد استمرت في نسلهم، لأنهم كانوا يعدلون مع الرعايا ولا يجيزون الظلم. وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن قل لقومك لا تسبّوا ملوك العجم ولا تقبّحوهم، فقد عَمَروا الدنيا بالعدل حتى عاش عبيدي هانئين.

* العدل والإنصاف لازِمان لحفظ المُلك، وليس الكفر ولا الدين.

* والعدل بلا دين أفضل لنظام العالَم من ظلم مَلِك متديّن.. بشعبه يستهين.

(حكمة)

قرين الملك حكيم يفكّر لا نديم يهزل، لأنه يصعد درجات الكمال بفضل الحكيم، ويهوي إلى حضيض النقصان بسبب النديم.

* كل حكمة تصدر عن شفة عالِمٍ تعدل جوهرةً باهرة السناء،
  والسعيد من اتّخذ من حنايا صدره مستودعاً لتلك الجواهر.. عظيمة البهاء.

* وقلب العالم الذكي كنز لجواهر الحِكَم، فقرّب الكنز منك واقترب من الحكماء.

(حكاية)

بينما كان موبد الموابدة يمتطي صهوة جواده في الصباح الباكر بصحبة «قبادشاه»[٢].. أخرج الجواد روثه، فلوّث قوائمه من ذيله إلى حافره. وبينما كان الرجل يطرق خجلاً، سأله قبادشاه عن آداب رفقة الملوك والركوب مع السلاطين.

فقال موبد الموابدة: أولها ألاّ يُعلَف ليلاً حصانُ من سيرافق ركب الملك فجراً.. فيحدث منه ما يسبب الخجل لراكبه.

واستحسن قباد قوله، فقال: لقد نلت ما نلت بحسن كياستك وصدق فراستك..

* الأحمق من تبع قاعدة الطبع وقانون الفطرة،
وصدرت جلّ آدابه مواكبة للصواب.

* والعاقل من طبّق قانون العقل،
فصار بحسن الكياسة مؤدِّب الدواب.

(حكمة)

مثل المقرّبين إلى السلطان كمثل أناس يصعدون جبلاً، ثم تضطرهم زلازل القهر في النهاية إلى النزول منه، وتجبرهم مصائب الدهر على الانحدار عنه. ولا شك أن سقوط ذوي المكانة الرفيعة أصعب، وانحدار ذوي المكانة الوضيعة أسهل.

* قرب الملك إيوان عظيم فلا تَرْقَه إلى أبعد الحدود..
* فإني أخشى إذا ما سقطت.. أن تفوق سقطتك كل سقطات الوجود.

(حكمة)

يجب أن يكون للملوك ندماء يَصدُقونهم القول ويخلصون العمل، وعليهم أن ينقلوا إليهم أخبار الرعايا والنّواب.

يقال إن «أرد شير بن بابك»[3] كان مَلِكاً يقظاً شديد الذكاء، وكان إذا ما وفد عليه في الفجر الندماء، أخبرهم بما أكلوه في المساء، وكان يذكر لهم أخبار جواريهم ومن كنّ برفقتهم من النساء. لقد كان يذكر دقائق ما يفعلون، فيعتقدون أن من أطلعه على أمورهم.. مَلَك يهبط عليه من السماء، وكان «محمود بن سبكتگين»[4] مثله سواء بسواء.

* إذا لم يقف الملك على أمور جنده وأحوالهم،
فلن يخشوه مهما بلغ من رفعة الشان.

* وسوف يُلقون في طريق الظلم آلاف المعاذير،
ويوقّعون على آلة الفسق آلاف الألحان.

(حكمة)

يقول أرسطاطاليس: أفضل الملوك من يشبه نسراً تحيط به الجيف، لا من يشبه جيفة تحيط بها النسور. فالواجب إذاً أن يكون مطّلعاً على أحوال من يحيطون به، ويكونوا غافلين عن حاله.. لا أن يكون هو الغافل عن أحوالهم وهم بحاله عالمون.

* يجب أن يكون الملك كالنسر عالماً بما يحيط به من جيف منتبهاً لها.
* لا أن يكون جيفة تصطف حولها النسور، تشحذ مناقيرها كي تلتهمها.

(حكاية)

يوم عيد النيروز[٥]، عقد «أنوشيروان» مجلساً، وأثناء الاحتفال، وقعت عيناه على قريب له يدسّ كأساً ذهبيّة تحت إبطه، فتغافل عنه ولم يتكلّم. ولمّا انفضّ المجلس، قال الساقي: لا يخرجنّ أحد حتى أبحث وأفتّش، فهناك كأس ذهبية لا بد لي من العثور عليها. فقال أنوشيروان: لا داعي لذلك فإن من أخذها لن يعيدها، ومن رآه لن يشي به.

وبعد أيام دخل هذا الشخص مجلس أنو شيروان وقد ارتدى ملابس جديدة وانتعل حذاءً جديداً، فأشار أنو شيروان إلى ملابسه، وقال: هذه من ذاك؟. فرفع الرجل ذيل ملابسه عن حذائه، وقال: وهذا أيضاً من ذاك. فضحك الملك، وأدرك أنه أقدم على ذلك الأمر لاحتياجه، فأمر بإعطائه ألف مثقال من الذهب.

* إذا أدرك الملك الكريم سوء فعلك، فاعترِف بذنبك، واعتذِر عمّا اقترفت.
* ولا تنكر الذنب فتضيف ذنباً آخر، فإنكار الذنب أسوأ من ارتكابه.. لو عرفت.

(حكاية)

كان «للمأمون»[٦] عبدٌ عهد إليه بإعداد ماء الوضوء والطهارة. ولاحظ

المأمون أنه ما تكاد تمضي عدة أيام حتى يختفي إبريق أو وعاء، فقال له يوماً: ليتك تبيعنا الإبريق أو الوعاء الذي تسرقه كما تبيع لغيرنا. فقال العبد: أفعلُ ما طلبت. ثم أردف قائلاً: إشتر مني هذا السطل الذي أمامك. وقال المأمون: بكم تبيعه؟، قال العبد: أبيعه بدينارين. فأمر المأمون بأن يعطيا له، ثم سأله: هل صار هذا السطل الآن في أمان منك؟ قال العبد: نعم.

* لا تبخل بالفضّة على من اشتريته بالذهب، فتطيب نفسه، ولا يطمع.

* الشخص يتلفه المال، فأعطه منه كي لا يُتلف روحه في النهاية، ولك يخضع.

(حكـايـة)

كانت بين عقيل بن أبي طالب[٧] ومعاوية بن أبي سفيان[٨] صداقة وطيدة، وكانا لا يشاهدان إلّا معاً. ونبت الشوك يوماً في طريق مودّتهما، وعلا الغبار وجه محبّتهما، فانقطع عقيل عن معاوية وقاطع مجلسه، فكتب إليه يعتذر قائلاً:

يا مطلب بني عبد المطّلب الأسمى، ومقصد آل قصيّ الأقصى، ويا غزال عبد مناف الذي ينفح المسك، ومنبع مكارم بني هاشم.. آية النبوّة في شأنكم وعزّ الرسالة في أسرتكم.. أين ولّت كل تلك العظمة؟ وأين ذهب الحلم والصبر والجلد؟ عُد ثانية فإني نادم على ما فرط منّي، ومهموم لما قيل وصدر عنّي.

* إلى متى أظل هدف سهم خصومتك، إلى متى أفقد ببعدك قلبي وديني؟.

* سأطرق خجلاً أمامك ما حييت،

فإن أمت ستراني مطرقاً.. ولو كان التراب يواريني.

فكتب إليه عقيل مجيباً:

صدقتَ وقلتَ حقاً غير أنّي | أرى أن لا أراكَ ولا تراني
ولستُ أقول سوءاً في صديقي | ولكني أصدّ إذا جفاني

يريد بذلك أن يقول إنه من واجب الكريم إذا آلمه صديقه أن يلجأ إلى الفراق، ويسلك سبيل الهجر، ولا يذكر صديقه بما يسوء، أو يتحدّث عنه بما يكره.

* حين يعمد صديقك إلى النزاع والشقاق،
  فلا تقابله بغير القطيعة والصدود.

* واحذر أن تشتطّ في خصومتك،
  فقد يعود إليك.. وإليه تعود.

فعاد معاوية للاعتذار وسعى في الصلح ما أمكنه، وأنفق في سبيل ذلك مائة ألف درهم، وأكدّ العهود والمواثيق.

* إعتذر لصديقك القديم إن لحقت بقاعدة صداقتكما العطب.

* فإن لم يسعفك لسانك فالجأ ما استطعت إلى الفضّة والذهب.

(حكاية)

إنفصل الحجاج عن جنده في مكان من أمكنة الصيد، وصعد تلاً، فرأى أعرابياً قد جلس وهو ينتقي الحشرات من خرقته، بينما جِماله ترعى حوله. وجفلت الجمال لدى رؤيته، فرفع الأعرابي رأسه وقال: من صعد الفلاة بملابس زاهية؟ ألا لعنة الله عليه. فتقدم الحجّاج منه دون تعقيب، وقال: السلام عليك يا أعرابي، فأجابه: لا عليك السلام ولا رحمة الله ولا بركاته.

وطلب منه الحجاج ماء، فقال الأعرابي: ترجّل واشربه فلست خادم أحد. فنزل الحجاج وشرب، ثم قال: أيّها العربّي.. من أفضل الخلق؟ قال: رسول الله عليه السلام.. شئت أم أبيت.

فعاد وسأله: وما رأيك في علي[٩] أمير المؤمنين؟ قال الأعرابي: لا يتشدّق الفم إلاّ بالثناء عليه نظراً لكرمه وعظمته.

ثم قال الحجّاج: وماذا تقول في حَقّ عبد الملك بن مروان[١٠]؟ فلم يحر الأعرابيّ جواباً. قال الحجّاج: أجبني قال الأعرابيّ: سيء، قال الحجّاج: لماذا؟ قال: لقد ارتكب خطأ عمّ الوجود من مشرقه إلى مغربه.

قال الحجّاج: وما هو هذا الخطأ؟ قال: لقد سلّط على المسلمين هذا الحجاج الفاجر الفاسق، فلم ينبس الحجّاج ببنث شفة.

وفجأة طار طير فأحدث صوتاً.. وهنا استدار الأعرابي إلى الحجّاج، وسأله: من أنت يا رجل؟. قال الحجّاج: وما سبب سؤالك؟ قال: لقد أخبرني هذا الطائر أنك قائد جند سيصلون الآن. وكان ما يزال يخوض في هذا الحديث وأمثاله.. حين وصل جند الحجّاج، وألقوا عليه السلام، فلما رأى الأعرابيّ ذلك تملّكه الفزع، فأمر الحجاج جنده بأن يصحبوه معهم.

وفي فجر اليوم التالي، أُعدّت المائدة، واجتمع الناس، وسمح الحجّاج للأعرابيّ بالدخول عليه. فلما دخل قال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. فقال الحجّاج: لن أقول مثلما قلت.. وعليك السلام. ثم سأله: أتحبَّ أن تتناول طعاماً؟ قال: إنه طعامك، فإذا أذنتَ لي أكلت. فأذن الحجّاج له، فمدّ يمده، وقال: بسم الله.. وليكن ما يأتي بعد الطعام هو الخير إن شاء الله. وضحك الحجّاج، وقال لضيوفه: أتدرون ما وقع لي بالأمس على يد هذا الأعرابيّ؟ فقال الأعرابيّ: أصلح الله الأمير، أتفشي اليوم سراً كان بالأمس بيني وبينك؟.

ثم قال الحجّاج: أيها الأعرابيّ، اختر بين أن تظلّ معي وتصبح من جملة خاصّتي وأتباعي، وبين أن أرسلك إلى عبد الملك بن مروان ليرى ما يراه بشأنك. فقال الأعرابي: وهناك اختيار آخر أيضاً. وسأله الحجاج: ما هو؟ قال: أن تتركني.. فأعود بالسلامة إلى دياري، ولا تراني بعد ذلك ولا أراك. فضحك الحجّاج، وأمر له بألف درهم، وطلب من أتباعه أن يعيدوه إلى دياره.

* يجب على المرء أن يجرّد الظالمين من ظلمهم بلطف الكلام وحُسن الخطاب.

* وأن يردّ كل بخيل ينفر من الإحسان والكرم إلى جادة الكرم بسحر الحديث.

(حكاية)

رأى «يزدجرد» ولده «بهرام»[١١] في موضع غير مناسب من حريمه، فقال له: أخرج، واجلد الحاجب ثلاثين جلدة، ثم أبْعِده عن باب الحريم. وذكر يزدجرد لولده اسم شخص آخر، وطلب منه أن يُحِلَّه مكانه، ففعل ما أمره به. ونظراً لصغر سنّ بهرام آنذاك ـ إذ لم يكن عمره قد تجاوز الثالثة عشر ـ فإنه لم يدرك سبب غضب والده على الحاجب.

وبعد فترة قادته قدماه إلى حجرة نوم الحريم، وأراد الدخول، فوضع الحاجب الجديد يدَه على صدره، ولم يسمح له بالمرور، وقال له: لو رأيتك في هذا الموضع بعد ذلك لجلدتك ثلاثين جلدة لخيانتك الحاجب السابق، وثلاثين أخرى للخيانة التي تحاول ارتكابها معي.

وعلم يزدجرد بما دار بينهما، فاستدعى هذا الحاجب، وامتدحه، وخلع عليه، ورفع منزلته ومرتبته.

* يجب أن تصان ذات الملك بحيث لا يفكّر حقير أو عظيم في تجاوز عتبته.

* ولا يرفرف طير في حريم حرمه، ولا تهتك الريح سِتر دولته.

(حكاية)

كتب وزير «هرمزبن شابور»[١٢] إليه يخبره أن تجّار البحر قد أحضروا إليه حِملاً كبيراً من الجواهر، وأنه اشتراها لأجله بمائة ألف دينار. وقال في رسالته: لقد سمعت أن مولاي لا يريد ما اشتريت من أجله، فلو صحّ هذا.. فسوف يبتاعها فلان التاجر بفائدة قدرها مائة ألف دينار.

فكتب إليه هرمز مجيباً: لا قيمة لدينا لمائة ألف دينار ولا لضِعفها. هبنا شُغِلنا بالتجارة.. من يرعى شؤون المُلك؟ وأي عمل يؤدّيه التجّار؟.

* ممارسة الملوك للبيع والشراء بغية كسب قوتهم
أمرٌ لا يستقيم مع كرامتهم وطبيعة منصبهم.
* إذا امتهن المَلِك مهنة التجّار..
فقل لي بربّك أي عمل يمارسه التجّار أنفسهم؟.

(حكاية)

كان «عمر»[١٣] رضي الله عنه يغطّي جداراً في المدينة بالطين، فاقترب منه يهودي وشكا له قائلاً: إنّ حاكم البصرة[١٤] قد اشترى منّي متاعاً بمائة ألف درهم وما زال يماطل ويسوّف في أداء الثمن. قال عمر: أمعك رقعة من الورق؟ قال اليهودي: لا، فالتقط عمر قطعة من الفخّار وكتب عليها: لقد زاد عدد من يتظلّمون ومنك يشكون، وقلّ عدد من يشكرون.. فابتعد عمّا يوجب الشكاية أو اعتزل منصبك. ثم أنهى خطابه بقوله: «كتبه عمر بن الخطاب»، ولم يختمه بخاتمه أو يمهره بتوقيعه ويذيّله بألقابه.

وهكذا كانت صولة العدل وهيبة العقاب تَغْمُر قلوب رعيته.. بحيث ترجّل حاكم البصرة عن جواده حين سلمه اليهودي الرقعة الفخارية، وقبّل الأرض، وأدّى دَيْن اليهودي كاملاً.. بينما كان اليهوديّ في تلك الأثناء يمتطي صهوة جواده.

* حين لا يتمتّع الملك بعزّ السياسة وسطوة العقاب،
تكتب له الذلّة على أيدي الوقحين الجسورين.
* وحين تسقط أسنان الأسد وتبرد مخالبه..
يتقبّل لطمات الثعالب الضعيفة العرجاء، ولها يستكين.

(حكاية)

قُبض على شاب بتهمة السرقة، فحكم الخليفة بقطع يده لتكفّ عن مال المسلمين، فتأوه الشاب، وقال: أيها الخليفة:

* ما دام الله قد زيّنني بيدٍ يسرى ويدٍ يمنى،
فلا تسمح ليسراي أن تنفصل عن يمناي.

لكن الخليفة أصرّ على قطع يده لأنّ هذا حدّ من حدود الله تعالى، والتساهل فيه ليس من الإسلام. وكانت أمّ الشاب حاضرة، فنهضت وقالت: أيّها الخليفة، إنه ولدي، أصِل النهار بالليل بمعونته، وأُطْعَم من سعيه وكدّ يده.

* الابن بمثابة الروح، فاعف عنه رحمة بروحي القلقة المعذّبة.

* كفّه خَيطُ رزقي وقوتي، فلا تسمح بقطعها.. فأقاسي من المسغبة.

فقال الخليفة: ستُقْطَع يده، فأنا لا أتجاوز عن إثمٍ صدر عنه، ولا أُحمِّل نفسي إثمَ ترك هذا الحدّ(١٥).

قالت الأمّ: اعتبر هذه الجريمة كغيرها من الجرائم، واسلكها في عداد المعاصي التي لا تكفّ عن الاستغفار عنها، وتطلب العفو والرحمة من خالقك بشأنها.

ووقع القول في قلب الخليفة موقع القبول، فأطلق سراح الشاب.

* كم هو سعيد ذاك العاقل الذي يلفظ قولاً طيّباً في حضرة ملك غاضب.

* ويلقي على مسامعه حكمة طيّبة،
فكأنّه يصبّ على نار غضبه الماء في الوقت المناسب.

(حكـايـة)

مَثُلَ مذنب، في حضرة الخليفة، فأمر أن يعاقب بما يستحق، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين.. القصاص عدل، والتجاوز عنه فضل، ودرجة همّتك أعلى وأسمى بحيث تؤهّلك للتجاوز عما هو أكبر، وعدم التفكير فيما هو أصغر. فاستحسن الخليفة كلامه، وعفا عن ذنبه.

* غفران الذنوب فضل والانتقام عدل..

وبين الاثنين ما بين الفلك العلوي والأرض.

* فكيف يَترك العاقلُ المدرك لما بينهما من تفاوت..
ما يراه من فضل.. ويتّجه إلى العقل؟!.

(حكـايـة)

أساء صغير من بني هاشم[١٦] أدبه مع أحد العظماء، ووصل الخبر مسامع عمّه فعزم على تأديبه. قال المذنب: عمّاه، فعلت ما فعلت ولا عقل معي، فافعل ما تفعل وعقلك معك.

* يفعل الجاهل ما يفعل متأثّراً بهواه،
دون أن يكون للعقل والحكمة دخل فيما يفعل.

* فإن لم تُخضِعك نفسك ويغلبك هواك،
فاسلك دائماً طريق العقل فيما تفعل.

(حكـايـة)

أُحضرت امرأة خارجة على الحجاج، وأدخلت عليه، فأخذ يحدّثها وهي مطرقة برأسها لا تجيبه ولا تنظر إليه. فلفت أحدهم نظرها قائلاً: الأمير يتحدّث إليك وأنت تُعرضين عنه. قالت المرأة: إني أخجل من الله تعالى أن أنظر إلى رجل لا ينظر إليه سبحانه.

* لا تنظر إلى وجه الظالم، فإنّ باباً من أبواب الجحيم يطلّ على وجهه.

* ومذ أطلّ على وجهه هذا الباب، لا تقع عليه عين رحمة ربه.

(حكـايـة)

قيل للإسكندر كيف بلغت ما بلغت من رفعة وحقّقت ما حقّقت من فتوحات.. مع صغر سنّك وحداثة عهدك؟ قال: باستمالة أعدائي لكبح زمام ضراوتهم وعداوتهم، ومعاهدة أصدقائي ليعملوا على تقوية قاعدة صداقتهم.

* إن كنت تريد مُلك الإسكندر بطيب العمل وحُسن السيرة..

* فاعمل على أن يكون أعداؤك أصدقاء، وأصدقاؤك أكثر من أصدقاء.

(حكاية)

كان الإسكندر يجلس مع قوّاده حين وجّه إليه أحدهم الحديث قائلاً: قد أعطاك الله تعالى ملكاً كبيراً، فأكثِر من الزوجات يكثر أبناؤك، ويبقى في الدنيا ذكرك.

فقال الإسكندر: ليس ذِكر المرء في وَلَده.. وإنما في السنن الطيّبة والسِيَر الحميدة. ولا يَجْمُل بمن تغلَّب على رجال العالم أن تتغلّب عليه النساء.

* ما دام الأب لا يمكنه يقينا أن يؤكّد ما إذا كان ابنه سينخرط في سلك الحمقى، أو ينضم لزمرة العقلاء..

* فإنّ السيرة الحسنة تكفي لأن تكون للحكيم ابناً..
فلماذا إذاً يضعُف أمام المرأة رغبةً في الأبناء؟!.

* * *

الهوامش

(١) كان كسرى أنوشيروان ـ كما ورد في شاهنامة الفردوسي ـ يدين بالزردشتيّة.

(٢) قيادشاه: والد أنوشيروان، ملك ساساني. (اقرأ حوله الكثير في ٣٥٠٠ عام من عمر إيران، ١٨٠ وما بعدها)؛ (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٢٥٣)؛ (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ١١٩).

(٣) أردشير: هو (ارتخشتر) بن بابك مؤسّس الأسرة الساسانية (٢٢٦ ـ ٢٤١).
أقرأ الكثير حوله في: (٣٥٠٠ عام من عمر إيران ١٥٨ وما بعدها؛ تاريخ أدبي إيران جـ ١، ١١٠).

(٤) محمود بن سبكتگين: سلطان الغزنويّين. تولّى العرش بعد أبيه سبكتگين عام ٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م. كثرت فتوحاته وارتقت الدولة في عهده. شجّع العديد من الأدباء والفنّانين غير أنه عامل بعضهم بقسوة.
انظر تفصيل ذلك في: (٣٥٠٠ عام من عمر إيران ٣٨٢ وما بعدها؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢، ١١٠ وما بعدها).

(٥) عيد النيروز: أحد الأعياد القومية الإيرانية القديمة، ومثله المهرجان والرام.
وكان الاحتفال بها قد توقّف فترة من الزمن عقب الفتح الإسلامي، ثم عاد في العصر العبّاسي. وكان الفرس يحتفلون بالنيروز في أول العام وبالمهرجان في آخره. ويقال إن عهد الاحتفال به يرجع إلى زمن سليمان بن داود عليه السلام، ويقال غير ذلك.
(الآثار الباقية عن القرون الخالية ١١٩)؛ (٣٥٠٠ عام من عمر إيران ٧٨ ـ ٨٠)؛ (النوروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢، صفحات عديدة).

(٦) المأمون: ابن هارون الرشيد الخليفة العبّاسي. ولي الخلافة بعد قتل أخيه الأمين (٨١٣ ـ ٨٣٣م).

(٧) عقيل بن أبي طالب: ابن عمّ الرسول عليه السلام.

(٨) معاوية بن أبي سفيان: ابن صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس الأمويّ. منشىء الدولة الأموية ومؤسّس خلافتها في دمشق. توفي عام ٦٨٠م (خلاصة تذهيب الكمال، ١٤٦).

(٩) علي بن أبي طالب: ابن عمّ الرسول، ورابع الخلفاء الراشدين، ومن السابقين الأولين، وزوج فاطمة بنت النبي، ولي أمر المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفّان. (تاريخ بغداد جـ ١، ١٣٣ ـ ١٤١).

(١٠) عبد الملك بن مروان: الخليفة الأموي الذي حكم من ٦٦ ـ ٨٦هـ (٦٨٥ ـ ٧٠٥م)، (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ١٠٠).

(١١) يزدجرد وبهرام: ملكان ساسانيان (انظر سيرتيهما في: ٣٥٠٠ عام من عمر إيران ـ الدولة الساسانية).

(١٢) هرمز بن شابور: ملك شجاع، حكم مكان أبيه مدة عام فقط. (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٢٣٠ وما بعدها، ٣٥٠٠ عام من عمر إيران، ١٦٧ ـ ١٦٨).

(١٣) عمر بن الخطّاب: هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى العدوي، أبو حفص المدني. أحد فقهاء الصحابة وثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، وأول من سُمّي أمير المؤمنين. شهد بدراً والمشاهد إلّا (تبوك). ولي أمر المسلمين بعد أبي بكر سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة. قتله أبو لؤلؤة فيروز المجوسي ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ فجر يوم السبت ١٦ ذي الحجة عام ٢٣هـ الموافق ٢٣/١٠/٦٤٤م. (٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ ١ ص ٢٦٠)؛ (خلاصة تذهيب الكمال ١٣٩).

(١٤) البصرة: مدينة مشهورة بالعراق، وقد يقال لها هي والكوفة «البصرتان». مصّرها عمر بن الخطّاب، وكان محلّها مدينة فارسيّة قديمة. (معجم البلدان جـ ٢، ١٩٢ ـ ٢٠٧).

(١٥) حدّ السرقة قطع اليد: وقد قال سبحانه: ﴿السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله، والله عزيز حكيم﴾. (قرآن كريم: سورة المائدة، آية ٣٨).

(١٦) لفظ هاشمي أو بني هاشم. يطلق على أئمة الهدى من ذرّية علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله. ويطلق كذلك على الخلفاء العباسيّين، ولكنه لا يطلق على بني أميّة. (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٣١٦).



الرَّوضَة الرَّابعَة



في وصف أشجار حديقة الجود والكرم، وما تنثره من براعم عن طريق بذل الدينار والدرهم.

فائدة: الجود منح ما يجب منحه دون انتظار لغرض أو مطالبة بعِوَض ولو كان الغرض أو العوض ثناءً جميلاً أو ثواباً جميلاً.

* من الكريم؟ إنه من لا ينتظر لقاء كرمه الجزاء.
* فالبذل بغية الثواب والثناء ليس إحساناً وجوداً، وإنما هو بيع وشراء.
* كل من يرجو من وراء كرمه الشهرة والثناء والإجلال والإكبار.
* يكون منزله خارج بوابة مصر الجود، ومدينة الكرم والإيثار.

(حكـايـة)

سئل جواد: ألا يداخلك الغرور بسبب ما تغدقه على السائلين وتعطيه للمحتاجين؟ ألا تَمُنّ بسبب ذلك على الفقراء والمساكين؟.

قال: هيهات، إنّ كفّي في السعي والعطاء.. حكمها حكم المغرفة في يد الطاهي، فكلّ ما يقدّمه الطاهي من طعام يترك أثراً على المغرفة.. أما هي فلا يداخلها غرور العطاء.

* الرزق وإن يكن من يد السيد.. إلاّ أن الرزّاق هو الله،

فلا تمنّن على الطاعمين.

* لا يعدو الغني أن يكون قدحاً ومغرفة لقِدر الطعام..
فليخْلُ القدح والقِدر من المنّة على المساكين.

كان أحد المتصوّفة يمتدح آخر، ويتحدّث حول معرفته ودرايته، فكان مما قاله: فلان يزيّن المائدة ولا يملكها، إنه يعتبر نفسه شريكاً فيها لا مالكاً لها، فهو كسائر الجالسين إليها، الطاعمين عليها. بل إنه ينظر إلى نفسه على أنه مجرّد ضيف متطفّل عليهم.

* إذا ما أعدّ الغنيُّ في دار الضيافة ـ مائدةً للفقراء..

* وجب أن يعتبر نفسه مريداً في بداية الطريق،
إن لم يعتبرْ نفسه ضيفاً متطفّلاً على الغرباء.

(حكاية)

جاء أعرابي إلى أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه، وجلس أمامه صامتاً وذلّ الفقر يطلّ من جبينه، فسأله حضرة الأمير: ما حاجتك؟، فخجل أن يتكلّم، وكتب على الأرض: «إنّي فقير». فأعطاه حلّتين لم يكن يملك غيرهما، فارتدى واحدة واتّخذ من الأخرى إزاراً، ووقف وأنشد عدّة أبيات على البديهة مناسبة للمقام، استحسنها الأمير لبلاغتها غاية الاستحسان. ثم أعطاه ثلاثين ديناراً كانت لأمير المؤمنين الحسن وأمير المؤمنين الحسين.. رضي الله عنهما. فقبلها الأعرابي وقال: يا أمير المؤمنين، لقد صيّرتني أغنى أهل بيتك. قال حضرة الأمير: سمعت من حضرة الرسول عليه السلام أنه قيل: قيمة كل امرء ما يحسنه. أي أنه تقاس قيمة الشخص بقدر ما يتقن من محاسن الأفعال وبدائع الأقوال.

* ليست قيمة الرجل بفضّته وذهبه وإنما بفضله وأدبه.

* فكم من عبدٍ فاق سيّده قَدراً بما اكتسبه من فضل وأدب.

* وكم من سيّد لا يحظى باحترام عبده لافتقاره إلى الفضل والأدب.

(حكـايـة)

روي عن عبد الله بن جعفر[1] رضي الله عنه أنه سافر يوماً، وحطّ رحاله في مزرعة نخيل يملكها بعض الناس، ويحرسها لهم عبد أسود. ولاحظ عبد الله أن القوم قد أعطوا حارسهم ثلاثة أرغفة ليقتات بها، وأن كلباً اقترب منه فألقى إليه برغيف، فلما أكله ألقى إليه بالثاني، فلما أكله ألقى إليه بالثالث. فسأله رضي الله عنه: ما قوت يومك؟. قال: ما رأيت.

قال له: ولماذا لم تختصّ به نفسك؟ قال: الكلب غريب عن الديار، ولعله جاء من بعيد، فهو جائع، ولا أحبّ أن أتركه جائعاً.

حينئذ قال عبد الله: وماذا تأكل اليوم؟ قال: أصوم. قال عبـد الله لنفسه: يلومني كل الناس على سخائي، وهذا العبد أكثر مني سخاء. وقرّ قراره، فاشترى العبد والمزرعة وكل ما بها، وحرّر العبد ومنحها له.

* من آثر الكلب على نفسه رغم اشتهائها..
وأعطاه لقمة أو اثنتين من فوره..

* يجب على السادة أن يقرّوا بعبوديتهم له.
وإن يك عبداً في حقيقة أمره.

(حكـايـة)

كان في المدينة عامل يعمل بعلمه، عارف بعلوم دينه يحظى باحترام قومه. واتّفق أن مرّ بسوق العبيد، فرأى جارية تغنّي، تفتن بصوتها آلهة العشق وتحار في جمالها الشمس. فراعه حسنها، وجنّ بطرّتها وخالها، فحمل لدى سماع صوتها مال الوجود إلى صحراء العدم، وانتقل باستماعه لألحانها، من مضيق الحكمة إلى طريق الجنون.

* جمال الوجه وحُسن الصوت.. كلٌ واحد منهما يسلب القلب دون عناء.

* فإذا اجتمعا معاً في مكان ازدادت مشكلات المتديّنين الفضلاء.

فطرح لباس العِلم والنور، وارتدى لباس الفحش والفجور. وخلع ثوب

الحياء دون وجل، وأخذ يتجوّل في أحياء المدينة وسوقها بلا هدف ولا خجل، وهبّ أصدقاؤه للومه دون فائدة.. ففقدوا الأمل. وكان يدور ويدور ولسان حاله يردد هذه الأنشودة:

* إذا ما تعلّق القلب بجلالها.. كيف يفرّ العاشق من البلاء؟.

* لومكم ريح بأذني، لكنّها تضرم نار قلبي، فيزداد العناء.

وروي البعض قصّته «لعبد الله بن جعفر» رضي الله عنهما، فطلب مالك الجارية واشتراها منه بأربعين ألف درهم، .وأمرها أن تغنّي بنفس الصوت الذي أسر العالمَ سماعُه، ثم سألها: ممن تعلّمت هذا الغناء؟ قالت: من فلانة المغنية، فطلبها بدورها، ثم استدعى العالم وسأله: أتريد سماع ذلك اللحن الذي فُتِنت به من أستاذة تلك الجارية؟ قال: نعم، فأمرها بالغناء. فلما غنّت فقد العالم وعيه إلى درجة ظنّ معها الحاضرون أنّه قد مات، فهتف عبد الله بن جعفر: أرأيتم؟ لقد أذنبنا بقتل هذا الرجل، ثم أمر أن يرشّوا وجهه بماء الورد. فلما أفاق، قال له: لم نكن نعلم أنك تحبّها كل هذا الحب. قال العالم: والله إن ما أخفيه أعظم مما أبديه..

فسأله عبد الله: أتريد أن تسمع نفس اللحن من جاريتك التي فتنتك؟ قال: لقد رأيت ما حلّ بي عندما سمعت اللحن ممن لا أعشقها، فإلام يؤول حالي إذا سمعته من شفتي معشوقتي. وعاد عبد الله فسأله: أتعرفها إذا رأيتها؟. فبكى وقال:

تسألني: أتعرف من سلبتك العقل والدين.. إني لا أعرف ـ والله ـ في الوجود سواها. فأمر بإخراجها وتسليمها له، وقال: هي لك، والله إنّي لم أنظر إليها إلاّ بطرف عيني، وركع العالم أمام عبد الله، وقال:

* أصلحت أموري وأحييتني بكرمك،
وانتشلتني من موج الفراق وبلغت بي ساحل الأمان.

* وجلبت الصبر لقلبي الجريح الحزين،
فلم تعد عيناي تسهران وتدمعان.

ثم أخذ بيد الجارية وأسرع بها إلى منزله. فأرسل عبد الله وراءه غلاماً يحمل إليه أربعين ألف درهم، وأمره بمرافقتهما.. حتى لا يكدّر غبار التفكير خاطرهما بحثاً عن وسيلة كسب معاشهما، وليتمتّع كل منهما بالآخر. مرتاح البال فارغ الفؤاد.

(حكـايـة)

في عهد «معاوية»، كان «عبد الله بن جعفر» يتقاضى سنوياً ألف درهم من خزانة بيت المال. فلما تولّى «يزيد»[٢] الحكم زادها إلى خمسة آلاف درهم، فلامه الناس قائلين: إنه مبلغ يكفي كلّ المسلمين، فلماذا تعطيه لشخص واحد؟ قال: إني أعطيه كلّه لكافّة المحتاجين من أهل المدينة.. فعبد الله لا يمنع المال عن محتاج قط. وأرسل إلى المدينة سراً من يراقب عبد الله، فعاد وأبلغه أنه أنفق المال كله في شهر واحد، حتى لقد صار في حاجة إلى من يقرضه.

* لو وُضِعت الدنيا بأسرها في يد كريم جواد،
ما كفته الدنيا ولا مائة مثلها.

* فلماذا يتحسّر الفقير ويدمي قلبه..
ما دام كيس الغنى خزانته.. يأخذ دوماً ما بها.

(حكـايـة)

كان خليفة بغداد يتقدّم راكباً في موكب مهيب، فاعترض سبيله مجنون، وقال له: أيها الخليفة، إجذب عنان جوادك، فقد قلتُ في مدحك ثلاثة أبيات. قال الخليفة: أنشدها. فلما أنشدها بدا السرور على وجهه. فلما رأى المجنون ذلك قال له: أعنّى بمنحي ثلاثة دراهم أشتري بها زيتاً وبلحاً، فآكل حتى أشبع. فأمر له الخليفة بألف درهم لقاء كل بيت.

* إذا سيطر ذلّ الفاقة على أديب
جاز له أن يمدح من شاء من الملوك ذوي السخاء.

* ويليق بالممدوح الكريم أن يعطيه ولو خزانة من جوهر لقاء كل بيتٍ، ليرفع عنه البلاء.

(حكاية)

يقول «إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان»: عندما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس، شرع بنو العباس في القبض على بني أمية وأخذوا يقتلونهم. وكنت وقتها خارج الكوفة[٣]، أجلس على سقف قصر يشرف على الصحراء.. فرأيت أعلاماً سوداء تخرج من الكوفة، فأيقنت أنها جماعة تسعى في طلبي، فنزلت عن السقف ودخلت الكوفة حائراً، وأنا لا أعرف فيها من اختبىء عنده. وقادتني خطاي إلى باب قصر منيف، فرأيت رجلاً حسن الهيئة يمتطي صهوة جواده وقد التفّ حوله خدمه وعبيده، فسلّمت، فقال: من أنت؟ وما حاجتك؟ قلت: هارب من خصومي لجأت إلى منزلك لتجيرني. فقادني إلى الداخل، وأسكنني حجرة بجوار حرمه، قضيت فيها عدة أيام لا يكدّر صفوي شيء، فقد كان يُحضِر إليّ أطيب الطعام وأفضل الشراب وأفخر الثياب، ولا يسألني عن شيء.

وكان يركب كل يوم مرة، ويغيب قليلاً ثم يعود، فسألتُه ذات يوم: أراك تمضي كل يوم راكباً، ثم تعود على عجل.. فلأي أمر تذهب؟. قال: لقد قَتَل «إبراهيمُ بن سليمان» أبي، وقد بلغ سمعي أنه يختفي في هذه المدينة، فأنا أخرج كل يوم على أمل أن أجده لأقتصّ منه.

فلما سمعت مقالته تعجّبت من إدبار حظي الذي قادني إلى منزل من يريد قتلي، وشعرت برغبتي في توديع حياتي، وسألت الرجل عن اسم والده، وتأكّد لي صدقه، فقلت: أيها الرجل الكريم الذي طوّق عنقي بكرمه، يجب علي أن أقصّر عليك الطريق، وأضع خصمك بين يديك. أنا إبراهيم بن سليمان، فاقتصّ منّي لوالدك.

ولم يصدّقني الرجل، وقال: لا شك أنك ضقت ذرعاً بحياتك، وتريد

التخلّص من محنتك. قلت: لا والله، لكنني قاتل والدك. وأعدت عليه الشواهد فتأكّد من صدقي، واشتعل لونه، واحمّرت عيناه. وصمت لحظة ثم قال: قد يقتضي الواجب أن تلحق بأبي، وأن أثار منك لدمه، لكنّي لا أنقض عهد أمان قطعته لك، فانهض وانصرف، فأنا لا آمن نفسي، وقد ألحق بك الضرر. ثم أعطاني ألف دينار، فأخذتها وانصرفت.

* أيّها الرجل، تعلّم المروءة والرجولة من رجال الدنيا المجرّبين.
* وامنع لسانك عن ذمّ ذوي البذاءة، وصُن نفسك من حقد الحاقدين.
* وأَحْسِن لمن أساء إليك، فقد أحدَثَ صدعاً في مستقبله وحظه بإساءته.
* ولا تندم لاختيارك طريق الخير، فسوف يرتدّ الخير إليك برمّته.

(حكاية)

ذات ليلة، شبّت النار في المسجد الجامع بمصر، وأحرقته، فتوهّم المسلمون أن ذلك من فعل النصارى، وأشعلوا النار في منازلهم.

وقبض سلطان مصر على من أشعلوا النار في المنازل، وجمعهم في مكان واحد، وأمر أن يُحضروا رقاعاً بعددهم، وأن يُكتب في بعضها: قَطْع اليد، وفي بعضها: الجَلْد، وفي بعضها: القتل. ونُثِرت تلك الرقاع عليهم ليعاقب كل واحد وفق مضمون الرقعة التي تقع عليه.

ووقعت رقعة تتضمّن عبارة: (القتل) على أحْدهم، فقال: أنا لا أخشى القتل، غير أني سأترك ورائي أماً لا أحد لها في الوجود سواي، وكان بجواره شخص عقوبته (الجلد)، فأعطاه رقعته، وأخذ تلك التي كانت معه، وهو يقول: لا أمّ لي.. وهكذا قُتِل من كان مقدّراً له الجلد، وجُلِد من كان مقدّراً له القتل.

* يمكن اكتساب المروءة بالفضة والذهب،
 لكنّ السعيد من اكتسبها بحياته.

* السعيد من إذا أحسّ بحاجة صديقه إلى روحه..
ضحّى بروحه، وافتداه بحياته.

(حكـايـة)

يقول الأصمعي: كنت على صلة بأحد الكرماء، وكنت أذهب إلى منزله متوقّعاً كرمه وإحسانه. وذات مرة قصدت بابه، فوجدت حارساً قد وقف أمامه.. وفوجئت به يمنعني من الدخول عليه، ويقول: يا أصمعي، أمنعك من الدخول عليه لضيق ذات يده. فكتبت هذا البيت، وطلبت منه أن يوصله إليه:

إذا كان الكريم لـه حجاب فما فضل الكريم على اللئيم؟

وغاب الحارس فترة، ثم خرج وقدّم لي رقعة كتب على ظهرها:

إذا كـان الكريم قليـل مال يستّر بالحجـاب عن الغريم

وقدّم لي مع الرقعة كيساً به خمسمائة دينار. فقلت لنفسي: لم يمرّ علي في حياتي أغرب من هذه النادرة، لهذا سأجعلها تحفة مجلس المأمون. ولمّا ذهبت إلى مجلس المأمون قال لي: من أين قدمت يا أصمعي؟ قلت: قدمت من لدن أكرم شخص في أحياء العرب، فسألني: من يكون؟ قلت: رجل أفدت من علمه وماله. ووضعت الرقعة والكيس أمامه، فما أن رأى الكيس حتى احمرّ وجهه، وقال: إنه مختوم بخاتم خزانتي، ولا بد من استدعاء ذلك الشخص، قلت: يا أمير المؤمنين، أخشى أن يعتريه الخوف حين يرى حاشيتك ورسلك. فقال المأمون لأحد أعوانه: رافق الأصمعي، فإذا رأيت الرجل تلطّف إليه، وأخبره أن أمير المؤمنين يطلبه.

ولما حضر الرجل قال له المأمون: ألستَ من جاءنا بالأمس وأبدى فاقته وحاجته، فأعطيناك هذا الكيس لتدبّر به أمور معاشك؟ ألستَ من أعطى الكيس للأصمعي مقابل بيت واحد أرسله إليك؟.

قال: لم أكذب والله حين أظهرت فقري وفاقتي بالأمس، لكني أبَيْت

أن أُعيد الرجل إلاّ كما أعادني أمير المؤمنين.

فأمر المأمون له بألف دينار. فقال الأصمعي: ألحِقْني معه في العطاء يا أمير المؤمنين، فأمر أن يكملوا له مبلغه ليصل إلى ألف دينار، واتّخذ الرجل الكريم من زمرة ندمائه.

* إذا خلت كفّ الكريم من الدراهم،
 فاعلم أن إعساره سبب إغلاق بابه في وجوه الفقراء.

* فهو لا يغلق بابه إلاّ لأن فتحة كيس دراهمه قد أغلقت، لا مراء.

(حكـايـة)

سئل حاتم: هل صادفت من يفوقك كرماً؟ قال: نعم، نزلت يوماً في ضيافة غلام يتيم يملك عشر خراف، فذبح لي واحداً فور نزولي عنده، وطهاه ووضعه أمامي، فاستحسنت قطعة معيّنة منه، أعجبني مذاقها، فقلت له: والله إنّها أفضل الأجزاء مذاقاً.

وخرجَ الغلام، وذبح الخراف واحداً واحداً، وطبخ الموضع الذي استحسنته وأحضره أمامي، دون علم مني بما أقدم عليه. ولما خرجت لأمتطي جوادي، لاحظت وجود دماء كثيرة خارج المنزل، وسألت عن السبب فقيل لي: لقد ذبح خرافه كلّها. فلمته قائلاً: لماذا فعلت ما فعلت؟ قال: سبحان الله، أتستحسن شيئاً أملكه وأبخل به عليك؟ لو فعلتُ لكانت هذه أسوأ سيرة بين العرب.

وهنا قيل لحاتم: وأي شيء أعطيته مقابل ذلك؟.

قال: ثلاثمائة جمل ذا شعر أحمر وخمسمائة خروف.

فقيل له: ألستَ إذاً أكرم منه؟ قال: هيهات، لقد أعطاني كل ما يملك، ولم أعطه إلاّ القليل على كثرة ما كنت أملك.

* حين يعطي الفقير ـ الذي لا يملك غير نصف رغيف ـ هذا النصف برمّته..

* فهذا يعدّ أكثر مما يعطيه ملك الدنيا، ولو أعطى نصف خزانته.

(حكـايـة)

وقف شاعر بباب «مَعْن» عدّة أيام ينتظر نواله، فلما طال انتظاره دون أن يمنح فرصة لقائه والمثول بين يديه، رجا بستانيّه قائلاً: أرجو أن تخبرني حين يَفِد معن إلى البستان. وجلس على حافة جدول (يمرّ بالبستان). وبعد طول انتظار، حانت الفرصة، وأخبره البستاني، فكتب هذا البيت على قطعة من الخشب، وألقى بها في الماء الجاري:

أيا جودَ مَعْنٍ ناجِ معناً بحاجتي ... فمالي إلى معنٍ سواك شفيع

وحمل الماء قطعة الخشب فوصلت أمام معن، فأمر بإحضارها. ولما قرأ ما فيها، طالب بإدخال الشاعر عليه، وأعطاه عشر أكياس من الذهب، ووضع قطعة الخشب هذه تحت بساطه. وفي اليوم التالي أخرجها وقرأها، وأحضر الشاعر وأعطاه مائة ألف درهم. وفي اليوم الثالث كرّر الشيء ذاته. وخشي الشاعر أن يندم معن، ويسعى لاسترداد ما أعطاه له، فهرب. وفي اليوم الرابع، حين طلبه معن كعادته ولم يجده، قال لمن حوله: كان الكرم يقتضيني أن أعطيه عطاء لا يحدّ.. أعطيه حتى لا يبقى في خزانتي دينار أو درهم.. لكنّه ـ وا أسفاه ـ لم يصبر على ذلك.

* مَن الكريم؟، إنه من يأتي السائل إلى بابه..

* فيفتح بالإحسان كفّه، ويمنحه أكثر مما كان يتوقّعه حين لجأ إلى رحابه.

أنشأ أعرابي قصيدة يهنىء فيها كريماً من رؤوساء العرب بالقدوم، وأنشدها بين يديه، وجاء في نهايتها بيت يقول فيه:

اُمدد إليَّ يداً تعـوّد بطنهـا ... بذل النوال وظهرها التقبيـلا

يعني: أمدد لي يداً قد تعوّدت كفها منح الذهب والفضة.. وتعوّد ظهرها تقبيل المحتاجين، فلما أنشد البيت، مدّ الكريم يده نحوه، فلمّا قبّلها، قال له الكريم ممازحاً:

(مـصـراع)

خدشت يدي شعراتُ شفتك.

قال الأعرابي:

وهل يضير مخلب الأسد الهصور شوك قنفذ مهما كان غليظاً؟.

وأعجبتِ الكريم كلمته إلى حدٍ كبير، فقال: كلمتك أفضل عندي من قصيدتك، ثم أمر له بألف درهم مقابل قصيدته، وثلاثة آلاف درهم مقابل كلمته.

* إن لم يكن من يُعلي قدرك بمديحه بليغاً فصيحاً،
  فهو أقلّ من سواه وأحقر.

* أتعلم من البليغ؟ إنه القادر على التمييز بين الطيّب والخبيث، والطيّب والأطيب.

* * *

الهوامش

(١) عبد الله بن جعفر: ابن عم الرسول عليه السلام. كان مشهوراً بكرمه.

(٢) يزيد: تولّى الحكم بعد موت معاوية عام ٦٨٠هـ ـ ١٢٨١م. يكره المسلمون ـ خاصة الإيرانيين ـ اسمه إلى حد كبير. دام حكمه ثلاث سنوات ونصف.. قتل الحسين في السنة الأولى منها، وأغار على المدينة ونهبها في السنة الثانية، وهاجم الكعبة في السنة الثالثة. (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٢٣١ ـ ٢٣٢).

(٣) الكوفة: يقال لها أيضاً كوفان. مصّرها سعد بن أبي وقاص بأمر من عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية. (معجم ما استعجم جـ ٤، ١١٤١ ـ ١١٤٢).


الرَّوضَة الخَامِسَة



في إثبات رقّة حال بلابل خميلة العشق والمحبّة، واحتراق أجنحة فراشات مجلس الشوق والمودّة.

من مقتبسات مشكوٰة النبوّة هذا الحديث: من عشق وعفّ وكتم ومات.. مات شهيداً. يعني أن كلّ من تعلّق بالعشق، واكتسب لطافة العشق، وسلك في عشقه طريق العفّة والكتمان، ثم فاجأه الموت.. فإنه يموت شهيداً. فالرغبة حين يلوّنها ميل الطبع وهوى النفس، وحين يبحث العشّاق بوسائل متنوعة عن وسيلة تمكّنهم من الوصال.. يكون ذلك بتأثير شهوات النفس الحيوانيّة، لا عن طريق فضائل الروح الإنسانية.

* العفّة والستر من خواصّ العشق الإنساني..
* والتوحّش والبهيميّة من خواصّ العشق الذي تسيطر عليه شهوة الطبع وهوى النفس.

(فائدة)

دار حوار حول العشق بين عاقلين، فقال أحدهما: خاصيّة العشق العناء، والعاشق منه في بلاء. قال الآخر: إصمت، فأنت لم تر ـ ولا شك ـ وفاقاً بعد شقاق، ولم تذق طعم وصال بعد فراق. لا يوجد في الدنيا ألطف من أصفياء القلوب.. العشّاق. ولا يوجد فيها أشد حزناً وكدراً ممن يجنّبون

أرواحهم العشق، ولا يقفون في صفّ العشّاق.

* جمال قلب المرء انعكاس لجمال العشق،
إذ كيف يعشق الجمال من لا يَغْمُر قلبه الجمال؟.

* إن يطلب الجاهل حجّة وبرهاناً، فيكفيني قولهم:
شبيه الشيء منجذب إليه، وأن الله جميل يحبّ الجمال.

(حكـايـة)

كان الصدّيق أبو بكر رضي الله عنه يتجوّل ـ ذات مرة ـ في أزقّة المدينة، ويمرّ بأبواب المنازل. فبلغ سمعه صوت نحيب امرأة يأتي من خلف أحد الأبواب. وبين النحيب والدموع السخينة كانت المرأة تنشد قائلة:

* يا من يفوق الشمسَ بهاءُ طلعتِك، يا من تغمر القمرَ بالضياء طلعتُك.

* قبل أن تعرف شفتاي لبن مرضعتي..
عانيت من ذِكر شفتيك الحمراوتين.. وفتنتني طلعتُك.

فأثّر قولها في قلب الصدّيق، وطرق الباب، فلمّا خرجت سألها: أحرّة أنت أم عبدة؟.

قالت: عبدة. قال: في هوى من كنت تنشدين؟، ولأجل من كنت تبكين؟. قالت: يا خليفة رسول الله، دعني وحدي، بحق روضته المنوّرة. قال: لن أبرح مكاني حتى أقف على سرّ قلبك. فأصدرت الجارية آهة حزينة من قلب يعصره الألم، وذكرت اسم شاب من بني هاشم. فتوجّه الصدّيق إلى المسجد، واستدعى سيّدها، ودفع ثمنها كاملاً، واشتراها، وأرسلها إلى معشوقها.

* أيّها القلب، من يحقق لك السعادة
سوى من يعينك على نيل رغبات الزمان.

* ويتألّم.. فإن لم يثر اهتمامك..
أنَّ وتوجَّع حتى تمتلىء قلوب المحبّين بالأحزان.

(حكـايـة)

كانت جارية مغنية تشتهر بإجادة الغناء، ولطف الأداء، وتمتاز بالحسن والجمال، والرقّة والدلال.. توقّع لحناً في شرفة منزلها وتنشد غزلاً.. وقد وقف شاب صغير تحت نافذتها. وكان الشاب ـ وقد تمكّن العشق من سويداء قلبه ـ يصغي إلى صوتها بكلّ حواسه، وقد فتنته دقّةُ أشعارها، وأسكرته لذّة ألحانها.

* سعيد من حُرِم رؤية حبيبه، وأتاه صوته من خلف حاجز الحرمان.

وفجأة أطلّ سيّدها برأسه من الشرفة فرأى الشاب واقفاً، فناداه، وأجلسه معه على مائدته، وأخذ يحدّثه في شتى الموضوعات، وينظم له من جواهر الفضل قلائد وعقوداً.. والشاب يستمع إليه وهو لا يعي حرفاً ممّا يقول. كانت عيناه على الجارية، وكلّما سألته بغمزة أجابها بحاجبه. فإذا عقصت طرّتها رسم ابتسامة على ثغره.

* أي شيء يفضل وصال هذين العاشقين المتَّفِقَيْن.. رغم الأعداء والحسّاد.

* بالعين والحاجب يحكيان حكايات العشق،
ويتحايلان لتحقيق الأحضان والقُبَل.

ولما تماديا في الوصال، وأسرفا في الاتصال، انصرف السيد لقضاء حاجة يعرفها كلّ الآدميين، تاركاً الحبيبين المشتاقين، فخلا المجلس وتوالت دعاوي الوصال من الجانبين، وناجته الجارية، وردّدت بصوت عذب هذه الأغنية:

* بحقّ الظاهر والباطن، بحقّ الله خالق المَلَك والإنسان

* إنك أعزّ عندي من كل من أراهم في دنياي.. في كل مكان.

ولما سمع الشاب مقالتها صرخ قائلاً:

* يا من أنتِ عيني ومنزلك قلبي، يا من جمعتِ حُسن كلّ فاتنات الدنيا.

* لا عجب أن يميل قلبي إليك، فما لا يميل إليك حجر لا قلب.

فقالت الجارية: أمنيتي من الدنيا أن تتشابك أيدينا، وأن يأكل كل منا السكّر من شفة الآخر وفمه. وقال الشاب: إنّها أمنيتي أنا الآخر، ولكن ماذا أفعل.. واللّهُ تعالى يقول: ﴿الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلاّ المتّقين﴾[1]. يعني أنه غداة يوم القيامة تنقلب محبّة المحبّين إلى عداوة، بينما قد تزيد محبّة المتقين المتعففين على مرتبة المحبّة وتتجاوزها. فلا أريد أن ينهار ـ غداً ـ صرحُ محبّتنا، وتتبدّل إلى عداوةِ صداقتُنا.

قال هذا، وترك صحبتها ورفقتها، وانصرف إلى حال سبيله.

* أيها القلب، أترك هذا اللون من العشق غير العفيف، فلا فائدة منه تُرجى.

* واختر العشق الذي تستقرّ وإياه في دار القرار، وعنه الله يرضى.

(حكـايـة)

يقول أحد العلماء: كنت في فترة من فترات حياتي أعقد مجلساً أزرع فيه بذور الإرادة في أرض قلوب من يستمعون إليّ. وكان أحد الشيوخ يلازم مجلسنا ولا يتخلّف قط.. لكنه كان دائم التأوّه، يصبّ الدمع صباً، ولا يكفّ لحظة عن تأوّهاته ودموعه.

فخلوت به يوماً، وسألته سرَّ بكائه وتأوّهاته، فقال:

كنت أشتري العبيد وأبيعهم، وأتكسّب من عملي هذا. وحدث أن اشتريت عبداً صغيراً بمبلغ ثلاثمائة دينار..

* شفته كالسكّر الصافي ووجهه كالبدر المنير،
ولا يزال يتمتّع بحلاوة الطفولة وبراءتها.

وتعبت في تربيته كلّ التعب. فلمّا تعلّم قانون الحب، وتطلّع لامتلاك القلوب، حملته ـ شبيهاً بيوسف ـ إلى السوق، وطفقت أعدد للمشترين شمائله وأمتدح أخلاقه.

وفجأة وفد إلى السوق راكب منعّم مدلّل.. في زيّ أهل الصلاح،

يجلس على سرج جميل منقوش، فما أن وقع بصره على العبد حتى طرح نفسه عن جواده وجلس إلى جانبه، وسأله: ما اسمك؟. من أيّ الديار أنت؟. أيّ فنٍ تعرف؟ أي عمل يمكنك مزاولته؟... ثم تطلّع إليّ وسألني عن ثمنه؟ قلت: قد لا يساوي في الحُسن أكثر من دينار، غير أنّ ثمنه ألف دينار كاملة العيار.

ولم ينبس الشاب ببنت شفة. وفي غفلة من الحاضرين.. دسّ في يد الغلام شيئاً، فوزنته بعد انصرافه.. فكان مائة دينار. وكرّر الشيء عينه في اليومين التاليين.. فوصل ما أعطاه للعبد إلى ثلاثمائة دينار. وهنا قلت لنفسي: لقد أدّى ثمن الغلام الأصلي كاملاً، ولا ريب أن فؤاده قد تعلّق به، لكنه غير قادر على أداء ما طلبت.

وانصرف الشاب فاقتفيت أثره، وعرفت منزله. فلما جنّ الليل.. زيّنت العبد بأفخر الثياب، وضمّختُه بأطيب العطور، وأوصلته داره وقرعتُ بابَه. وفتح الشاب.. فلما رآنا عرته الدهشة. وحين ثاب إلى رشده قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون[٢]. ما الذي دفعكم إلى الحضور، ومن دلّكم على مسكني؟ قلت: إشترى أحد أبناء الملوك هذا الغلام، ولكن الأمر لم يستقر بيننا بصورة نهائية. وقد خشيت أن يطلب الغلام في ليلتنا هذه ـ لا قدّر له ـ فرأيت أن أودعه عندك لينام في حماك آمناً هذه الليلة.

قال: ادخل أنت أيضاً. قلت: لا بدّ من ذهابي لأمر هام.

وتركت الغلام عنده، وعدت إلى منزلي. فما أن أغلقت بابي وأويت إلى فراشي حتى راودتني آلاف الأفكار.. كيف ستمرّ الليلة بينهما، وعلام ستستقرّ صحبتهما؟.

وفجأة سمعت صرير الباب، ودخل الغلام عليّ باكياً مرتعداً، فسألته: ماذا جرى؟ وماذا بدا لك منه حتى تأتي أليّ في مثل حالتك هذه؟.

قال: لقد مات ذلك الشهم وأسلم الروح لخالقه. قلت: سبحان الله، وكيف كان ذلك؟.

قال: بعد انصرافك قادني إلى الداخل، وأحضر لي طعاماً. وما أن فرغت من تناوله وغسلت يدي حتى أعدّ لي فراشاً، ونثر عليَّ المسك وماء الورد، وأرقدني، ثم وضع إصبعه على وجهي، وقال: سبحان الله، ما أجمله من وجه محبوب مرغوب، وما أبغض ما تأمرني به نفسي وتهفو إليه. إنّ عقوبة الله أشد وأقسى، والمتمسّك بهواه أتعس الناس حظّاً. ثم أردف قائلاً: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ثم وضع إصبعه ثانية على وجهي، وقال: أشهد أن هذا الوجه في غاية الجمال، ودليل نهاية الأماني والآمال، ولكنّ العفّة أغلى والطهر أجمل، والثواب الموعود أفضل من الجمال وأكمل. ثم وقع، فلما حرّكته كان قد مات، وحمل أثره وذِكره، وانتقل بهما إلى حياة الخلود.

قال الشيخ: إنّي أبكي ذكرى ذلك الشاب الذي لا يغيب عن بالي قطّ طهره ولطفه وظرفه، ولا يفارق مخيّلتي حُسن شمائله ولطف مخائله، وسوف أظلّ على هذا ما حييت.. وبعد موتي.

* إذا قضى صديقي نحبه وكان يَفْضُل غيره طيبة وحسناً.

بكيت على فراقه أكثر من بكائي على أي شيء في دنياي.

* وتركت دم قلبي يسيل على خدّي الأصفر ويبلّل التراب..

فإذا وُوريتُ الثرى، لم أكفّ عن هذا اللون من البكاء في مثواي.

(حكـايـة)

كان شاب اسمه «سليل» - ينتمي إلى أسرة كريمة لها شهرتها بين قبائل العرب، وتعرف من قديمٍ بالكمال والأدب، ينال أبطالها في ساحة المعركة الأرب - يضمّ قلبه على عشق إبنة عمّه، ويكاد يصيبه الجنون من فرط حبّه لها.

وتحمّل «سليل» الكثير من الآلام إلى أن نال ما يصبو إليه، وصبر على ضربات العشق حتى رأى جمال معشوقه بعينيه. ولم يكن قد اتّخذ بعد مقعداً في حفل الوصال، أو شرب أكثر من جرعة من كأس الاتّصال.. حين عزم

على الرحيل من المكان. فأجلس قمرَه في هودج ساقه في الطريق الذي اختاره قلبه وعلّق به خاطره.

وبعد مسيرة يوم واحد، بلغ مكاناً بهيجاً، وموضعاً جذّاباً، فحطّ رحاله وأرسى هودجه. وفجأة برز له ثلاثون فارساً، فنهض وامتشق حسامه وامتطى جواده. واقتربوا منه فعرف فيهم أعداءه الذين يريدون قتله، فشُغِل بلقائهم ومقاتلتهم، وتمكّن من قتل عدد كبير منهم، لكنّه أصيب بجراح بالغة. فلما فرغ من الحرب عاد إلى ابنة عمّه، وقال لها:

* قرّر الأعداء قتلي، فاجلسي أمتّع ناظريّ بمرآك، وأبدي حسرتي عليك.

* سأريق دمك، فإذا ما أراقوا دمي.. لا يحقق غيري رغبة قلبه من شفتيك.

فقالتِ الفتاة: والله، إن لم تُرِق دمي أرقته بنفسي، ومزجته بدمك. لكنّي أفضل أن تكون البادىء، وأن تنهي بقتلي حيرةَ قلبي.

وهنا نهض سليل وانطلق ينشد:

* انظر كيف ألقى بي الفلك القاسي إلى الثرى في دنيانا الملتوية المتقلّبة.

* هأنذا اليوم أقتل بيدي من مِن أجلها حصدت مئات الأرواح بيدي.

ثم أجرى سيفه على الحنجرة التي طالما حسدها جيب رداء محبوبته، وغار منها عقد معشوقته. فما هي إلّا لحظة واحدة حتى أطفأ ـ وإلى الأبد ـ تلك الشمعة التي كانت تضيء الدنيا، وأسال دمها فوق الثرى، ومرّغ وجهه فيه.

ونظر بوجهه المدرج بالدم تجاه المحرومين، ورفع رأسه عدّة مرّات قبل أن يتركها تسقط دون حراك. وحين علم قومه بما حدث سارعوا إلى مكانهما.. وقد مزّقوا ثيابهم. وحملوا القتيلين إلى مقابر القبيلة وأودعوهما قبراً واحداً.

* ووري جسداهما الثرى في عزّة.. كي لا ينهضا يوم الجزاء ذليلين.

* ودفِنا في قاع الأرض واقتسما نفس الفراش.. ليناما معاً وينهضا معاً.

(حكـايـة)

كان شاب جمّ الأدب يُدعى «أشتر» يعشق فتاة جميلة اسمها «جيدا» تنتمي إلى قبيلة كبيرة. وقد توثّقت بين الشاب والفتاة رابطة الوداد، وقاعدة الاتّحاد، وكانا يخفيان مشاعرهما عن القريب والبعيد، ويبذلان في سبيل ذلك غاية جهدهما. ولكن بحكم ما يقال:

* العشق سرٌ لا يمكن البوح بـه   ولا يمكن إخفاؤه خلف مائتي ستار

ظهر في نهاية الأمر سرّهم، وبرز للجماعة ما خفي من أمرهم، وشبّت الحروب بين قوميهما، فأريقت الدماء، واقتلعت قبيلة «جيدا» خيمة التوطّن من تلك الديار، وفي ديار أخرى حطّت الرحال. فلما زادت آلام الفراق، وتأجّجت نيران الاشتياق، قال أشتر يوماً لأحد أصدقائه: أيمكنك أن تأتي معي وتمهّد لي السبيل لزيارة جيدا؟ لقد بلغت روحي الحلقوم اشتياقاً إليها، وتبدّل نهاري بليل مدّة مفارقتي لها.

قال الصديق: سمعاً وطاعة، إنّي طوع بنانك ورهن إشارتك.

وسرعان ما هيئا رحالهما، وسارا نهاراً كاملاً، فلما جنّ الليل بلغا ديار «جيدا»، ونزلا شِعباً في أحَد الجبال قرب قومها. ولما حطّا رحالهما، قال أشتر لصديقه: إنهض واتركني، وجُس خلال ديارهم، ولا تـذكر اسمي لشخص سوى فلانة جاريتها وراعية أغنامها ومحرم أسرارها. أبلغها سلامي وسلها عن أخبار جيدا، وحدّد لها مكان نزولنا.

يقول الصديق: فنهضتُ، ودخلتُ مضارب تلك القبيلة. وتصادف أن كانت الجارية المذكورة أوّل من قابلت، فأبلغتها سلام أشتر، وسألتُها عن جيدا، فقالت: إن زوجها قد ضيّق عليها، وهو يراقبها بكل دِقّة.. فليكن موعدكم عند الأشجار التي تلي الجبل الصغير الفلاني، وذلك وقت صلاة العشاء.

وأنهيت الخبر لأشتر، ونهضنا معاً، وسقنا راحلتينا ببطء إلى أن وصلنا في الوقت الموعود والموعد المرصود.

* قضينا فترة الانتظار باكيين متأوّهين، وفي طريق عبور الحبيب جالسَيْن.

* وفجأة تناهى إلى سمعَينا وسوسة حُلِيٍ ورنين خلخال.. تعني..
جاء قمر التمام.. فقوما واقفين.

فقفز أشتر واستقبلها، وأقرأها السلام وأخذ يدها فقبّلها. فأشحت بوجهي عنهما، وابتعدت عن طريقهما. فناديا عليّ قائلين: عُد، فلن يحدث بيننا ما يشين، ولن يجري على لساننا حديث يضعنا في مصاف الآثمين. فعدت وجلسنا، وتحدّثنا حول الماضي والمستقبل، إلى أن قال أشتر: إن ما أتمنّاه في ليلتي هذه أن تكوني معي، وألاّ تخدشي بظفر الفراق وجه أملي.

فقالت جيدا: كيف يقدّر لهذا أن يتمّ.. أتريد لما حدث أن يتكرّر، فتفتح عليَّ تقلباتُ الأيام أبواباً جديدة من الشدائد والآلام؟.

قال أشتر: والله لا أتركك.. ولا أبعد يدي عن ذيلك.

(مصراع)

قولي لما تريدين حضوره: «تعال»، وقولي «صِر» لما تريدينه أن يصير.

فقالت جيدا: أملي كبير في صديقك.. ورجائي أن ينفّذ ما أقول. فنهضتُ وقلتُ: سأنفّذ كلّ ما تقولين، وأمنّ على روحي ألف منّة أن أصْغَت إلى ما به تأمرين.. سأطيعك ولو زهقت روحي في سبيل ما تبغين.

عندئذ خلعت جيدا ملابسها، وقالت: ارتديها وأعطني ملابسك وانطلق إلى خيمتي، واجلس خلف حجاب. فإذا جاء زوجي وأحضَرَ قدحاً من اللبن، وقال: هذا عشاؤك، فلا تتعجّل في أخذه، وانشغل عنه.. فإنك إن فعلت فسوف يضع القدح بين يديك، أو يتركه على الأرض ويذهب إلى حال سبيله فلا يعود حتى مطلع الفجر.

ونفّذتُ ما قالته بحذافيره، فلمّا أحضر زوجها القدح أمعنتُ في الدلال، فأراد أن يضعه على الأرض، وأردت أن آخذه فارتطمت يدي به، فانقلب وانسكب اللبن. وتملّك الرجل الغضب، فقال: هذا هجوم عليَّ

وانتقاص من شأني. ومدّ يده فتناول سوطاً من جلد حمار وحشي، ومزّق لحمي من أسفل عنقي إلى عَجُزي، وقد اجتمَعَت في قبضته القوّة والشدّة والمهارة.

* شبيه الأفعى غلظة، وقرين الثعبان طولاً،
صنعْتَه تصويرُ الثعبان، ولوْحَته الجسدُ العريان.

وكشف عن ظهري الشبيه ببطن الطبلة، وأخذ يوقّع عليه بضربات متعاقبة كأنه الطبّال يوم النزال، فلم تصدر عنّي صرخةٌ خشية أن يعرف صوتي. ولم أعد أطيق صبراً، فقد خيّل لي أن جلدي يتمزّق فوق جسدي. وفكّرت ـ لشدّة ألمي ـ أن أنهض فأقطع حلقه بخنجري وأريق دمه، ثم عدت فقلت: سوف أتسبب بذلك في قيام فتنة لا يمكن لأحد إخمادها.. ولهذا صبرت.

وعلمت أمّه وأخته فحضرتا وأنقذتاني من يده، وأخرجتاه. وبعد ساعة جاءت أم جيدا، ودخلت عليَّ وهي تظنّني ابنتها، فانخرْطتُ في البكاء، وأخذتُ في الأنين، وأخفيت رأسي بملابسي، وأوليتها ظهري، فقالت: إخْشَي ربّك يا ابنتي، ولا تفعلي أمراً يخالف رغبات زوجك، فإنّ شعرة واحدة من شعره أفضل من ألف أشتر. مَن أشترك هذا الذي تتحمّلين من أجله كلّ هذه البلايا؟ مَن أشترك هذا الذي تحتسين السمّ من أجله؟. ثم نهضت وهي تقول: سأرسل لك أختك لتكون مؤنستك وأمينة سرك في ليلتك هذه. وانصرفت.

وبعد ساعة جاءت أخت جيدا وانخرطت في البكاء ودعت على من ضربني بأسوأ دعاء. ولم أتحدّث إليها فنامت بجواري. فلما استقرّ بها المقام.. مددت يدي وأطبقت على فمها بشدّة، وقلت لها: إن أختك الآن مع أشتر، وقد أخَذْتُ مكانها، وحفظتُ سرها، وتحمّلتُ الآلام بدلها، فاحفظي سرّي وسرّها وإلّا لحقت بك الفضيحة كما ستلحق بها. وقد خافتني أول الأمر، ثم تبدّل خوفها أمناً وألفة، وظلّت تردد قصتي وتضحك حتى الصباح.

وتنفّس الصباح ودخلت جيدا، فلما رأتني على هذا الوضع أبدت خوفها، وقالت: ويحك.. من التي تنام بجوارك؟ قلت: أختك.. وهي لك نعم الأخت. قالت: وكيف جاءت هنا؟ قلت: سليها أنت فالوقت ضيّق. وأخذتُ ملابسي، ولحقتُ بأشتر، وركبنا، وشققنا طريقنا. وأثناء الطريق، قصصت عليه قصّتي، فكشف عن ظهري ورأى جراحي، فاعتذر لي كثيراً، وقال: وقت الحاجة يُلتمس الصديق، فهو لا يُفتقد وقت اليسر وإنما يُفتقد وقت الضيق.

* أيها القلب، لن يخلّصك من الهمّ غير الصديق.
* فهو المرجيّ في المحن.. ولا يفتقد إلاّ وقت الضيق..

(حكاية)

بينما الرشيد في الكوفة.. ذهب وزيره إلى سوق العبيد. وهناك رأى عبداً إذا غنّى أصغت لصوته طيور السماء. فأخبر الرشيدَ خبره، فأمره بشرائه. وبينما هم راحلون عن الكوفة سمع العبد يبكي بعد فراق يوم واحد، ويقول متغنّياً بهذا الحُداء:

* سيف هَجْر الحبيب أجرى دمائي، وأضاع عمرَ العاشق المفتون.
* جننت حين تركته يوماً، فما بال الحبيب إذا مرّت عليه سنون.

ووصل الخبرُ الرشيدَ، فأمر بإحضاره، وسأله عن حاله.. فعلم أنه يهيم بعشق فتاة من فتيات الكوفة، فرقّ قلبه له وأعتقه. فقال الوزير: من الظلم أن يحرّر مثل هذا الصوت الجميل. فقال الرشيد: بل المؤسف أن يؤسر مثل هذا الطائر ويحرم من الارتفاع والتحليق.

* يا من تتطلع إلى العَظَمة وتشتهي المُلك،
  وفي قدرتك أن تحرر العبيد من الرِقّ.
* حرّر من هو عبد للعشق، إذ يكفي العاشق عبوديته للعشق.

(حكـايـة)

فقدت إحدى الجميلات جمالها، وانتهى عهد حسنها، وفقدت آلاف المولّهين بحبها، وآلاف المتردّدين على حيّها. وتوالت النكبات، فطوى العاشقون بساط الانبساط، وسحبوا أقدام الاختلاط.

فقلتُ لأحدهم: هذه نفس الحبيبة التي عرفتَها آنفاً.. عينها وحاجبها في مكانهما، شفتها وأسنانها على حالها. قامتها أعلى مما كانت عليه، وجسدها أقوى مما عهدت.. أليس من الوقاحة وعدم الوفاء والقسوة أن تهجرها وتنأى عنها وتتركها؟.

قال: هيهات هيهات لما تقول، إن من سلبت قلبي وخلبت لبّي، كانت روحاً تتنفس في جسد متناسب الأعضاء، وكانت تمتاز بنعومة البدن، ورقّة الجلد، ورخامة الصوت، فما دامت تلك الروح قد فارقت ذلك القالب.. فلا عشق لي أزاوله مع قلب ميّت، ولا نغمة عندي أوقّعها على وردة ذابلة.

* لم يَعُد في البستان ورد فما علاقتي بالشوك والجذور الرقيقة؟.

غادر المَلِك المدينة فما شأني بالعسس؟.

* الحسناوات قفص وحسنهن ببغاء، فإذا ما طار الببغاء.. ماذا أفعل بالقفص.

(حكـايـة)

رأت معشوقة ولّى رونق جمالها، وكست ظلمة شعر ذقنها صفحة وجهها.. أن طالبيها قد سئموا صحبتها، وعشّاقها ينفرون من وصالها، فعلمت أن الحائل الواقف في طريق المحبّة هو كثرة الشَعر النامي على عارضها وذقنها، وأدركت أن طائر قلبهم يجفل من تلك الشباك التي لا نظام لها، فطلبت حجّاماً وقالت له: قد ضقت بحياتي ذرعاً دون حب، وأصرخ مستغيثة لعدم وجود الراغبين فيّ، فتعال وأزل ذلك الحجاب ومزّق تلك

الشباك. وكان الحجّام رجلاً ظريفاً ضحوكاً، فأخذ ينشد وهو يجري موساه:

* إذا ما انتهى عهد حُسن الأمرد، فمن الأفضل له
ألاّ يحلق شحمة أذنه وذقنه بغية الدلال والحب.

* فصفحة الوجه إذا ما تسببت إزالة الشعر في غلظتها..
«كالمبرد» لا يُزيل سوى عشق القلب.

(حكـايـة)

كان عاشق يُبدي ضيقه من صدّ حبيبه، ولا يستطيع أن يتحرّك خوف رقيبه، فتمنّى أن يكون لوجه معشوقه الأملس لحية، وأن يُزايل الغرور رأسه فلا يعتدّ بحسنه وجماله.. وبذا يمكنه أن يكون في خدمته، ويرتاح في رفقته.

وتحققت أمنيته حين بلغ رونقُ جمال معشوقه منتهاه، فابتعد هو الآخر عن طريق عشقه وهواه، وأصبح لا يطيق زيارته ورؤياه. فقيل له: هذا خلاف ما كنتَ تقول. قال: ما علمتُه هو أن الصيد يفرّ من رعبه، ويكسر الشعرُ قيدَه.

* قرأت أن العالِم العارِف ينظر إلى الذقن على أنها جناح..

* لكنّه الجناح الذي يطير به طائر الحُسن إلى وكر العدم.

* قد ذهب عنك الحسن يا بني، فلا تلتمس من الغصن الجاف الاخضرار.

* ها هي لحيتك النامية حديثاً تميل إلى السواد،
فاصرف عن الجمال ذهنك، ودعك من الانتظار.

* فالشعرة أو الشعرتان اللتان نبتتا في ذقنك..
تـجعلانك في عداد المسنّين والكبار.

(حكـايـة)

وقع درويش[٣] في أسر معشوق طبعه الجفاء، فكان يهيم في الطرقات

يرسل الآهات ويكثر البكاء. ومع ذلك لم تبد منه بادرة شفقة ولا نظرة رحمة.

فقيل له: معشوقك لا يفارق السكارى والمعربدين، وهو لعَبَدَة الخمر ومدمنيها نعم القرين. ينفر من صداقة الدراويش ولا همّ له سوى إنكار المعتقدين. يجب أن يكون طالبه مثله، وأن يكون رفيقه على شاكلته. لهذا ننصحك بالابتعاد عنه والسعي وراء عملك. وسمع الدرويش كلامهم فضحك وقال:

* أجني من العشق الألم ولا أفيد من الحبيب،
  سواي ينعم بالجمال ولي الهموم ولي النحيب.

* أحببت بستان الجمال فلا عجب..
  أن أجمع الشوك ويجني الوردَ غيري لو أحبّ.

(حكاية)

جذبت شبكة الإرادة فتاة مليحة الوجه إلى حلقة الدراويش، فاستقرّت كنقطة المركز في دائرة الصوفيّين.

* صار وجهها قِبلة الباحثين عن الله، يبحث كلُّ واحدٍ فيها عن خالقه ومولاه.

* وتهافت الدراويش على الفم المعطّر.. تهافت الذباب على السكّر.

وكان كلُّ شخص يريدها خالصة له، ويزيّن نفسه في عين قبولها، فكان أن قام بينهم الصراع، ووقع الخلاف واحتدم النزاع.

* ليس بعيداً على العشّاق أن يسحق بعضهم البعض
  إذا تحدّثوا حول عِشق معشوق جميل.

* فالطائفون بالكعبة، إذا ما احتدم الشوق..
  يتصادمون، رغم تلازمهم من زمن طويل.

فطلب شيخ الرباط تلك الفتاة ـ وكان يعشقها بدوره ـ وقال لها ناصحاً: أيتها الابنة العزيزة والشابة المحبوبة، لا تخالطي الجميع كاللبن والسكّر، ولا

تتعلّقي بحبل خداع يمدّ إليك طرفه ذو مكانة أو وضيع، فأنت تمثلين مرآة الله تعالى، ولكنك، وا أسفاه، تكشفين وجهك لكل عاجز ضعيف.

* لا تسلم العنان كل وقت لقبضة الأغيار، ولا تأذن بالخلوة للخاص والعام.

* وجهك مرآة نظيفة مصقولة، فلا تسلم مرآتك المصقولة للصدأ والرغام.

وسمعت الفتاة الجميلة نصيحته فآلمتها، وخرجت من الرباط حزينة كاسفة الوجه، بعد أن اعتذرت بعذرٍ ما. ومرّت الأيام وهي لا تأتي، فبلغ الشيخ والمريدون أقصى درجات الغم حزناً على فراقها، وضجّوا بالشكوى لهجرانها، وثقبوا بأهداب الماس جوهر العجز والاضطرار، وقالوا ـ ضمن ما قالوا ـ على سبيل الاعتذار:

* عودي أيتها الفتاة فلا حُكم لأحد عليك،
إجلسي مع من تريدين، وابتعدي عمن لا تحبّين.

* عودي ليهدأ القلب الحزين، ولو أنك مضلِّلة للعقل عدوّة للدين.

* يكفي أن تراقبي بلاءنا ومحنتنا لتجالسينا وتتطفّلي كالآخرين.

واستمعت الشابة إلى اعتذار الدراويش، وتجاوزت عن إهاناتهم، فعادت إلى صحبة المنبوذين المتعَبين.

* أربعة تصدر عن الأحبّة، يعقبها أربعة تَفْضُل الراحةَ بعد العذاب.

* الوصل بعد الفراق، والوفاق بعد الشقاق،
والصلح بعد النزاع، والرضا بعد العتاب.

* * *

الهوامش

(١) قرآن كريم: سورة الزخرف، آية: ٦٧.

(٢) قرآن كريم: سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٣) درويش: بفتح الدال وكسرها. يقال في تفسير هذا اللفظ عادة أنه مشتق من الفارسية بمعنى الذي يطلب الأبواب أي الشحّاذ، ولكن الصيغة الأخرى (دريوش) مناقضة لهذا المعنى. وظاهر أن الاشتقاق الحقيقي لكلمة درويش مجهول. ويمكن أن نقول بصفة عامة أن هذه الكلمة استعملت في تاريخ الإسلام للدلالة على العضو في طريقة من الطرق الصوفيّة. على أن معناها في الفارسيّة والتركيّة أضيق من ذلك. . فهي تدلّ على الشحّاذ الصوفي الذي يُعرف في العربيّة بالفقير. والكلمة الدالّة على الدراويش بصفة عامة في مراكش والجزائر هي الإخوان، وينطقونها (خوان).

وشريعة الدراويش هي دائماً ضرب من الصوفيّة، تتفاوت باختلاف الطرق من سكينة الزهادة بالقول بأن الإيمان إنّما يكون بالقلب، وذلك تمشّياً مع مذهب وحدة الوجود. (دائرة المعارف الإسلامية).



الرَّوضة السَّادِسَة



في تاريخ الطيور التي تسجع في بستان البلاغة والفصاحة، والببغاوات المنشدة المتغزّلة في أراضي النظم السكّرية.

الشِعر في عُرف قدامى الحكماء كلام مؤلَّف من مقدّمات المخيّلة.. يعني أنه من شأنه أن يحمل إلى خيال السامع معاني تستوجب إقباله على الموضوع أو إعراضه عنه.. ولا يهمّ هنا ما إذا كانت هذه المعاني صادقة في حدّ ذاتها أو غير صادقة، كما لا يُلتفت إلى اعتقاد السامع في صدقها أو عدم اعتقاده. كأن يُقال: الخمر لعل مذاب أو ياقوت سيّال. أو يقال: العسل شيء مرّ أو قيء النحل.

وينظر متأخرو الحكماء للوزن والقافية باهتمام، بينما يرى الكثيرون أنه لا أهميّة إلاّ للوزن والقافية، فالشعر في عرفهم كلام موزون مقفّى، ولا اعتبار في حقيقة ذلك للتخيّل وعدم التخيّل، والصدق وعدم الصدق.

ولله درّ الشعر ما أعظم شأنه، وما أرفع مكانته. ويا ليت شعري أية فضيلة أجلّ من الشعر، وأي سحر أجزل من هذا السحر.

* لا شيء يَفْضُل في جماله جمال الكلام الموزون،
ولا حُسن يخرج عن ساحته ومجاله.

* يصعب الصبر عنه والتسلّي، خاصة إذا ما اجتذب القلبَ جمالُه.

* فهو يصنع من الوزن للصدر خلعة الدلال،

ويطرّز بالقافية العَجُزَ في كل الأحوال.

* ويزيّن القدم بخلخال الرديف، ويضيف الخال والخيال على الجبين.
* ويجلو الوجه بالتشبيه كالقمر، فيسلب عقل مئات العشّاق المولّهين.
* ويشقّ الكلام بالتجنيس، ويعقص طرّتين لا فرق بينهما في المظهر.
* ويجعل الشفة من الترصيع[1] تنثر الجوهر،
كما يزيّن خصلة الشعر المسكيّة بالجوهر.
* ويجعل العين تغمز من الإيهام[2]،
فيثير الوهمُ الفتنةَ والاضطراب بين الأنام.
* ويضع من المجاز خصلة على الجبين،
ويزيّن الحقيقة من خلف الحجاب.

وقد طهّر الحقّ سبحانه كلامَ القرآن المعجز من دنس وصفه بالشِعر.. عندما استعمل (ما) النافية في قوله تعالى: ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾[3]. ورفع علم بلاغة الرسول الكريم من حضيض الدنس الناجم عن: «بل هو شاعر»[4] إلى أوج التقديس بقوله: ﴿ وما علّمناه الشِعر وما ينبغي له ﴾[5]. ولا يعني هذا أنّ الشعر ـ في حدّ ذاته ـ مذموم، أو أن الشاعر بسبب ما ينظم معاتب ملوم. وإنّما المقصود منه هو ألاّ يظنّ المفتقرون إلى عبقرية النظم أن القرآن يعتمد على سليقة الشعر، وألاّ يضع المعاندون نبيّنا الكريم في زمرة الشعراء. وهذا في حدّ ذاته أوضح دليل على رفعة مقام الشعر والشعراء، وعلوّ منزلة خالقي السحر.. لا مراء.

* مما يؤكّد منزلة الشعر أنهم عندما أرادوا ألا ينسبوا للرسول كريمَ رسالته..
* اتّهموه بأنه شاعر، ليبيّتوا أصل القرآن ومصدره ويكشفوا سرّ أصالته.

والشعر مقسّم إلى عدّة أقسام، منها: القصيدة والغزل[6] والقطعة والمثنوي والرباعي[7]. غير أن الشعراء يتفاوتون فيما بينهم في استعمالها، فالبعض يتفنّن فيها جميعاً، والبعض يميل إلى قسم منها ولا يميل إلى الآخر،

فقد كان اهتمام معظم القدامى ـ مثلاً ـ ينصبّ على القصائد التي تدور حول المديح والوعظ وغيرهما. وكان القليل منهم يهتم بالمثنوي. أما المحدثون فيرد كلامهم ـ أكثر ما يرد ـ في قالب الغزل. وعدد من طرقوا هذا الباب خارج عن حدود الحصر، لهذا سنقصر كلامنا على جملة من مشاهيرهم.

● «الرودكي» رحمه الله: شاعر من بلاد ما وراء النهر. ولدته أمه أعمى. اشتهر بالذكاء، وسرعة الفهم، حتى ليقال إنه حفظ القرآن في الثامنة، وتعلّم القراءات. عالج قول الشعر، واتّجه إلى الموسيقى والغناء بسبب حُسْن صوته، تعلّم التوقيع على العود وبرع في ذلك، فقرّبه نصر بن أحمد[٨] الساماني إليه. ويقال إنه كان يمتلك مائتي غلام، وأربعمائة جمل يستخدمها في حمل متاعه، وأنه لا يُعرف من بين من جاؤوا بعده من الشعراء واحد نال مثل هذه الثروة وتلك المكانة. ويقال ـ والعهدة على الراوي ـ أن أشعاره قد ملأت مائة دفتر. وقد ورد في شرح يميني أنّ له مليوناً وثلاثمائة بيت من الشعر. ومما قاله في الشراب:

* الخمر والعقيق يتشابهان لونا،
  فلا يمكن لمن يراهما أن يفرّق بين الخمر والعقيق المصهور.

* كلاهما من جوهر واحد.. غير أن أحدهما جامد بطبيعته..
  والآخر ذائب مصهور.

* لوّنت الخمر يدي دون أن أمسّها، وعلا العقيق مفرق رأسي..
  دون أن أذوق العقيق المصهور.

وقال في النصيحة:

* نصحني الزمان نصيحة الحرّ الشريف، والزمان يمنح العظة لمن يطلبها..

* قال لي: لا تبد حزنك إذا ما كانت السعادة من نصيب سواك..
  فما أكثر من يشتاقون ليومك.

وقد ورد في بعض كتب التواريخ أن «نصر بن أحمد» ترك بخارى[٩] إلى مروشاهجان[١٠]، وطالت مدّة إقامته بها، فهفت قلوب أركان دولته

وعظمائها إلى بخارى وقصورها وبساتينها، ووعدوا الرودكي بالكثير إذا تمكّن من إنشاء أبيات تشوّق الأمير إلى بخارى: على أن يترنّم بها على أنغام عوده ـ على مسمع من الأمير ـ في الوقت المناسب.

وحانت اللحظة المناسبة في وقت السَحَر، فبعد أن تناول الأمير الصبوح.. وقّع الرودكي على عوده، وغنّى هذه الأبيات على أنغامه:

* روائح نهر موليان لا تني تهبّ علينا .. حاملة معها رائحة حبيبنا
* وحصى سهل آمو غليظ، ولكن .. نحسّه كالحرير تحت أقدامنا
* ومياه جيحون رغم غزارتها .. لا يتجاوز ارتفاعها وسط جوادنا
* فاسعدي يا بخارى ودومي، فسوف يحلّ ضيفاً عليك.. أميرُنا
* الأمير بدر وبخارى سماؤنا .. والبدر في طريقه إلى سمائنا
* الأمير سرو وبخارى بستاننا .. والسرو آتٍ نحو بستاننا

وقد أثّرت الأنشودة في نفس الأمير تأثيراً جعله يركب حصانه دون أن يرتدي ملابس الخروج، وقد انتعل فردة حذاء ونسي الأخرى. وقطع على هذه الصورة مرحلة من الطريق. وتُنسب هذه الحكاية في بعض كُتُب السِيَر إلى السلطان سنجر[١١] وشاعره الأمير معزّى.

● الدقيقي ـ رحمه الله ـ من الشعراء المتقدّمين، بدأ نظم الشاهنامة؛ فقد نظم منها حوالي عشرين ألف بيت قبل أن يكملها الفردوسي. ومن جملة أشعاره هذان البيتان:

* اخترت محبوبة لها طباع الحور،
لمّا اختفت قلت ذي حقا طباع الحور.

* ذهب الجيش وولّى قاهرُ الجيش معه،
إنّ من يُسْلِم قلباً لجيوشٍ تصرعه.

وله أيضاً:

* طال مُكثي هنا فصرت ذليلاً، ذاك حال العزيز بعد البقاء.
* أنا ماء ببِركةٍ تركوه، فغدا آسناً بطول البقاء.

● عمارة ـ رحمه الله ـ أحد قدامى الشعراء أيضاً. نشأ في عهد السامانيّين، وكان حَسَن الطبع ينظم شعراً جذّاباً يأسر القلوب. ومن جملة أشعاره هذان البيتان:

* لقد اكتسى وجه الأرض باللون الفضيّ نتيجة لوجود الجليد،
ثم جاء الزمرّد ليحلّ مكان كثيب الفضة، ويعطي بريقه.
وفي الربيع تبدّل الحال غير الحال..
فسلّمت صالة تصوير أهل كشمير كلَّ نقوشها إلى الحديقة.

وله أيضاً:

* لا يغرنّك إعزاز الدنيا لك،
فكم من عزيز ذلّ على يدها في مدّة قصيرة.

* إنها ثعبان وطالبها حاو،
والثعبان يُهلِك الحاوي، فيلقى مصيره.

وقد ورد في سيرة سلطان الطريقة.. الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير ـ قدّس سرّه ـ أن شخصاً أنشد هذا البيت يوماً في حضرته:

* سأختفي يا حبيبي في ثنايا غزلي،
لأطبع على شفتك قبلة.. حين تقرأ غزلي.

فسرّه سماع ذلك البيت، وسأل عن قائله، فقيل: إنّه لعمارة.
فقال: هيّا بنا نذهب لزيارته، وذهب مع كل المريدين لهذا الغرض.

● العنصري ـ رحمه الله ـ كان في مقدّمة شعراء عصره، يلحظه يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتگين بعين القبول. ومما قاله في مدح هذا السلطان:

* أنت الملك الذي يدعو له اليهوديّ والمجوسيّ والمسلم والمسيحيّ، في الشرق والغرب.

* قائلين في تسبيحهم وتهليلهم: اللهم أحسن خاتمة محمود، بحيث تستأهل مديح الشرق والغرب.

ومـن رباعـيّاته:

* من سواد قلبك اكتسبت طرَّتُك سوادها،
ولم يفلح الودّ والوفاء في إزالة سواد قلبك.

* لم يزل الكِبر يعمُر قلبك..
من قلبي يُؤخذ الشمع، ويُقطع الحجرُ من قلبك.

وقد نظم العديد من المثنويّات المزخرفة، وزيّنها بتبجيل السلطان المذكور ومدحه، ومن بين مثنوياته واحدة تسمّى «وامق وعذرا»، وقد ضاعت ولم يعد لها وجود.

● العسجدي ـ رحمه الله ـ، وهـو من مـرو. أحـد مـادحي يمين الدولة[١٢]. وقد امتدحه في قصيدة هنّأه فيها بفتح بلاد الهند[١٣].. هذا مطلعها:

* حين سافر الملك العاقل البعيد النظر إلى بيت النار «سومنات»[١٤] جعل همّه في هذه السَفرة تقديم المعجزات.

ومما قاله هذا الشاعر خلال وصفه لبِطّيخة:

* زبرجديّة اللون، مسكيّة الرائحة.. لها طعم الشهد،
ولون الديباج، ورائحة العود الخام.

* إذا ما قطعتها إلى شرائح.. مثّلت كلّ شريحة هلالاً يروقك احمراره.

* وإذا لم تقطعها تكون في حدّ ذاتها قمراً تام الاستدارة.

● الفرّخي ـ رحمه الله ـ، كان يعيش إبّان سلطنة يمين الدولة أيضاً. وقد جمع من وراء إنعامات محمود ثروة عظيمة. وفي طريقه إلى سمرقند[١٥] للسياحة والنزهة.. سلب قطّاع الطريق كلّ ما كانَ معه، فدخل سمرقند، واختفى عن الأنظار عدة أيام ثم عاد إلى بلده بعد أن نظم هذه القطعة:

* ورأيت سمرقند وما فيها من نعيم، وطفت بحدائقها وخمائلها،
وشهدت الوادي والصحراء.

* واليوم وقد خلا من الدراهم كيسي وجيبي، طوى قلبي بساط السعادة. .
وابتعد عن بلاط الأمل والرجاء.
* حدثني أهل الفضل مراراً فقالوا إن في كل مدينة كوثراً وثماني جنّات.
* وقد تأكّد لي أن بسمرقند ألف كوثر وأكثر من ألف جنّة،
ولكن ما فائدتها ما دمت سأعود ظامئاً. . قرين الحسرات.
* حين تقع العين على النعيم والكفّ خال من الدراهم.
* يكون الأمر بمثابة رأس مقطوع وسط طشت ذهبي. .
كيف ترتسم على شفتيه البسمات؟!.

● الفردوسي ـ رحمه الله ـ، من أهل طوس(١٦). . فضله ظاهر وكماله واضح، فإن من ينظم عملاً كالشهنامة لا يحتاج إلى مديح ولا يفتقر إلى تعريف. يقال إنه كان يعمل بالزراعة، فوقع عليه ظلم، فتوجّه إلى غزنين ليشكو ظالمه. وكانت غزنين عاصمة السلطان محمود. فلمّا بلغها ومرّ بإحدى حدائقها رأى ثلاثة رجال يسمرون، وعرف أنّهم من أتباع السلطان المقرّبين.

فقال في نفسه: سأقترب منهم لأعرف ما يقولون. فلما فعل، أبدوا ضجرهم، وقالوا: سيكدّر مجلسنا، فالأفضل أن نقول له أننا شعراء المَلِك، وأننا لا نجالس غير الشعراء. وسوف ننظم ثلاثة مصاريع لا رابع لها. . ثم نقول له: سنجالس من ينشىء المصراع الرابع، فإن لم يفعل قلنا عذرنا في عدم قبوله جليساً. فلمّا صار بينهم أخبروه بما اتّفقوا عليه، فقال لهم: أسمِعوني مصاريعَكم. .

فقال العنصري: القمر لا يضيء كنور وجهك.
وقال العسجدي: والورد في الروض ليس له لون وجناتك.
وقال الفرّخي: وأهدابك تنفذ من الجوشن.
وهنا قال الفردوسي على البديهة:
وكأنها سنان گيو في حربه مع پشن(١٧)

فتعجّب الثلاثة وسألوه عن قصة گيو وپشن فذكرها مفصّلة.

واستدعاه السلطان إليه، وصار أثيراً لديه، وشمله برعايته، وقال له: لقد أحَلْت مجلسنا «فردوساً». لهذا صار يتخلّص بالفردوسي.

وبعد مدّة أمره بنظم الشهنامة، فنظم ألف بيت منها، وأحضرها إلى السلطان فقابلها بالاستحسان. ومنحه ألف دينار ذهبية سرخسيّة. وعكف الفردوسي على نظمها، ومثل بين يديِ الملك بعد ثلاثين سنة حين تمكّن من إتمامها. وكان يتوقّع طِبقاً للعطاء الذي ناله من قبل أن ينال ديناراً من الذهب الأحمر عن كل بيت نظمه. لكن الحاسدين تدخّلوا، وقالوا: ما قيمة الشاعر حتى ينال هذا القدر العظيم من العطاء؟ وتقلّصت عطيّة السلطان فصارت ستّين ألف درهم، مما أغضب الفردوسي وآلمه أشدّ الألم.

ويقال إن الشاعر كان في الحمّام حين أعطيت له الدراهم. فلما خرج أعطى عشرين ألفاً للحماميّ ومثلها لبائع الفقّاع الذي كان قد قدّم له الكثير منه. وأعطى الباقي لمن أحضروا الدراهم، وهجا السلطان فيما يقرب من أربعين بيتاً، من بينها:

* لو كان للملك أب من نسل الملوك،
  لوضع على رأسي تاجاً ذهبيّاً.. لا مراء..
* لكن افتقار أرومته إلى العظمة والنبل،
  جعله لا يطيق سماع أسماء العظماء.
* ولو غرستَ شجرة طبعها المرارة
  في حديقة الجنّة.. وكنت لها راعياً..
* ثم صببتَ على جذورها ـ وقت ريّها ـ
  من نهر الخلد.. عسلاً ولبناً صافيا..
* فسوف تُظهر جوهرها في النهاية،
  وتعطيك ثمراً مراً.. كما نَشأت هيَ.

واختفى الفردوسي، وجدَّ الملك في طلبه دون طائل. وبعد مدّة أنشد وزير السلطان ـ خواجه حسن الميمندي ـ[١٨] أبياتاً من الشاهنامة في حلبة الصيد يعلّق بها على حَدَثٍ ما. واستحسن السلطان الأبيات، فسأل عن ناظمها، فقال الميمندي: هي للفردوسي. فندم السلطان على ما فعله به، وأمر بمنحه ستّين ألف دينار من الذهب الأحمر، يضاف إليها خِلَعُ التشريف، وأن يُحمل كل ذلك إلى طوس. لكن الحظّ كان قد تخلّى عن الشاعر، فقد بلغت العطيّة باباً من أبواب طوس بينما تابوته يخرج من باب آخر. وعُرضت العطيّة على ابنته الوحيدة ـ صاحبة الحقّ في الميراث ـ فأبت قبولها في إباء وشمم. وقالت عندي من الخير ما يكفيني، ولا حاجة بي إليها، فصرف الرسل تلك الأموال في تعمير رباط يقع في تلك النواحي.

* ما أطيب أن تعرف قدر الآخرين،
فالفلك المنحَنِي حين وضع سهم النهاية في قوسه الخطير..

* ذهبت شوكة محمود ولم تبقَ من قصّته
سوى أنه لم يعرف قدر الفردوسي الكبير.

● ناصر خسرو ـ رحمه الله ـ، كان ماهراً في صناعة الشعر، كاملاً في فنون الحكمة. ومع ذلك وُجِّهت إليه تهمة سوء العقيدة والزندقة والإلحاد. له كتاب اسمه «سَفَر نامه»، ألّفه نتيجة كثرة أسفاره إلى معظم الأماكن العامرة. وفي الكتاب محاورات أجراها مع كبار القوم.. نظمها ولم يوردها نثراً. والأبيات الآتية ـ وقد أوردها عين القضاة، قدّس سرّه، في كتابه زبدة الحقائق ـ من جملة منظوماته:

* كل آلامي سببها البلغاريات، وعليّ أن أتحملهنّ قدر إمكاني.

* ولسن هنّ المخطئات، فإن أطقت سماعي أخبرتُك من المخطىء الجاني.

* إنها فتنتك يا رب، ولكن أين الشجاع الذي ينسب إليك ما منه نعاني.

* يجلب القوم الحسناوات من البلغار، فيمزّق ستر الناس حسنُهن..

* فلا تهب كل هذا الحسن لشفاه وأسنان تلكم الحسناوات..
التي تشبه الأقمارَ وجوهُهُن.
* فنعضّ شفاهنا بأسناننا ندماً وألماً بسبب عشقنا شفاههن وأسنانهن.

● الأزرقي الهروي ـ رحمه الله ـ، كان ماهراً في قواعد الشعر والأدب، كاملاً في قوانين العلم والحكمة. عجز ممدوحه عن الجِماع لمرض طارىء، ويئس الأطباء من شفائه، فنظم من أجله كتاباً رسم فيه صوَراً، وأسماه «ألفيّة وشلفيّة» ثم زوج أحد عبيد «الملك» بإحدى الجواري، وأنزلهما في حرمه بحيث لم تكن تفصل بين مخدعهما وفراش الملك أكثر من شبكة. ووضع الكتاب أمامهما، وأمرهما بمحاكاة ما صوّر فيه من صور تبدي ألواناً مختلفة للمعاشرة والمباشرة.

وطلب إلى الملك مشاهدتهما من خلف الشبكة دون علمهما. فلما تكرّرت المشاهدة قويت حرارة غريزته، وزالت المادة التي كانت تُعجِزه، وخرج منه ما يشبه الجبن المتجمّد، وعاد سيرته. ومما قاله في وصف الشراب:

* هاتها لعليّةً يا ساقي، فيزهر خيالي،
وتصبح العين من تلألئها روضةً بهيّة المنظر.
* لو أن حورية بالليل قطَعَت شعاعها..
لا تستطيع عن أعيننا اختفاءً.. لا بد أن تظهر.
* أزكى من العنبر.. تفوق العقيقَ احمراراً، والنجم تألّقاً..
وهي أصفى من الروح وأطهر.

● معزّي ـ رحمه الله ـ، عاش في سلطنة معزّ الدنيا والدين سنجر بن ملكشاه، وكان من جملة مادحيه. وقد تخلّص بالمعزّي نسبة له. وقلّ من بين الشعراء من نال ما ناله من رفعة منزلة وعلوّ شأن. والشائع أن ثلاثة شعراء حظوا بالإقبال دون غيرهم في ثلاث دول: الرودكي في دولة آل سامان، والعنصري في دولة آل محمود، والمعزّي في دولة آل سنجر.

وقد توفيّ المعزي بسبب سهم ألقاه السلطان يوماً وهو داخل خيمته. . إذ كان المعزّي يقف خارجها، فأخطأ السهم هدفه وأصابه، فوقع وأسلم الروح في الحال. وهذه أبيات من شعره:

* ما أن عقصت حبيبتي خصلات شعرها السنبليّة في حلقات. .
حتى وسمت قلوب مثّالي الصين بنيران الحسد والغيرة.

* وباتت القلوب النافرة المتمرّدة خاضعة لِما في أسفل خصلاتها من مسك. .
وهي الآن أسيرة.

* وأنا الآن عبد ذاك الخطّ المسكي الذي يشبه ما تتركه النملة على ورق الورد والنسرين(١٩)، بما علق من مسك في أقدامها الصغيرة.

ومن أبياته التي يحاكي فيها أسلوب شعراء العرب:

* أيها الحادي، مرّ بي على ديار الحبيب،
لأبكي لحظة على الربع والأطلال والدمن.

* بدم قلبي أملأ الرّبْع، وأجعل الأطلال جيحونا. .
فيكتسب الاحمرارَ من دمع عيني. . ترابُ الدمن.

* أرى الإيوان وقد خلا من وجه حبيبي،
أرى البستان يهفو إلى قدّه السروي الفارع.

* كان البستان موضع محبوبي وأحبابه،
فغدا مكان الذئب والثعلب والبومة والنسر الجائع.

● عبد الواسع الجبلي ـ رحمه الله ـ، كان فاضلاً كاملاً، وشاعراً ماهراً. ينظم الشعر باللسانين. . العربيّ والفارسيّ. وتُجمع الآراء على أنه ما من شخص استطاع أن ينظم مثل قصيدته التي يستهلّها بقوله:

* من الذي قدّر له أن يعشق جميلاً مثلك. . لطيفاً ذا طرّة مرسلة وعين نرجسيّة،
ووجه يحاكي اللعل احمرارا، وصدر فضيّ كالنسرين ذي الرائحة الزكيّة؟
ومما قاله في بداية قصيدة له:

* لا يضارعك في الدنيا حبيب يلهب القلوب،
ولا يماثلك في المدينة ولد يحرق الأكباد.

* رأيت لالَئيك الحمراوتين، وشهدت نرجستيك الناعستين..
يا من سلبت الفؤاد.

* فغدا وجهي يكتسب نضرة اللعل حين الوصال،
ورأسي ينكّس كالنرجسة وقت الفراق والبعاد.

● أديب صابر ـ رحمه الله ـ، كان شاعراً فصيحاً، وفاضلاً لبيباً، تجمع أشعاره بين اللطافة والملاحة، ويعترف له الفضلاء بالأولوية.. حتى ليفضّله الأنوري على نفسه في قطعة يعدّد فيها محاسنه ويشيد بكماله.. ويقول في آخرها:

* دعك من هذا، فقد ولجت باب الشعر فردا،
فإذا كنت لا أضارع صابراً فإني أضارع سنائي.

ومن أقـوال صـابر:

* يا من وجهك جنّة الخلد وشفتك السلسبيل.
روحي وقلبي وقْفٌ على هذا الخلد وذاك السلسبيل.

* قلبي عبد هواك، مخلص في طاعتك..
فمن هواك وطاعتك يُدرَك الخلدُ والسلسبيل.

* كيف يمكن للزُهرة أن ترسل ضياءها أمام طلعتك؟
وكيف نعترف للشمس ـ في مقام خدمتك ـ بالجميل؟.

* أنت بغدادُ الحسن ومصرُ الجمال..
عيني لبغداد دجلة، ولمصرَ عيني نيل.

* قامتي كالدال أضحت حين أثقلها الألم.
أزرقَ خدي من ضربات عشقك، يا حبيبي.. إرحم الصبَّ العليل.

ومن جملة أشعاره هذه القطعـة:

* المحبرة يا بني آلة الثروة وعُدّتها، فروِّض بها حظّك النافر الجموح.
* إن أردت من وراء محبرتك ثروة..
صِل ألفها بتائها.. تصبح لاماً.. وذاك طريق الفتوح.

● أنوري ـ رحمه الله ـ، كان حكيماً كاملاً وفصيحاً فاضلاً. حُسن شعرِه ولطف نظمه مجرّد ذرّة من علوّ حاله، وخال من جمال إتقانه وكماله. كلامه مشهور وديوانه مسطور.

ومن لطائف شعره تلك القطعة التي قالها في نصح الشعراء:
* بالأمس سألني شاعر رقيق أما زلت تنظم الغزل؟
قلت: قد نفضت يدي منه، ومن المدح والهجاء.
* فعاد يسألني: كيف؟ قلت له:
حالة ضلالٍ ولّت ولن تعود.. لا مِراء.
* بتأثير الحرص والغضب والشهوة..
كنت أنظم الغزل والمديح والهجاء.
* فكنت أمضي الليل مع أوّلهما في هم وتفكير،
أبحث عن الوصف المناسب للشفاه السكريّة والخصلات المجعّدة والملساء.
* كيف أكسب خمسة دراهم، من أين وممن؟
كنت مع هذه الأسئلة أقضي يومي ـ مع ثانيهما ـ في محنة وعناء.
* وكان ثالثهما كلباً هائجاً يجد تسليته..
في نهش من يفوقه وضاعة.. وذاك هو الهجاء.
* ولأن الله قد أبعد عن رأسي ـ أنا العبد العاجز ـ بكرمه وفضله..
هذه الكلاب الجائعة.. ومنحني الهناء..
* أقول: ربِّ.. قد عذّبت العقل وظلمت العلم كثيراً،
فامنعني اللهم ـ منذ اليوم ـ من نظم الغزل والمدح والهجاء.

* ليس من الرجولة أن تتباهى يا أنوري، فإن كنت قد فعلت. .
فراقب ـ كرَجُلٍ ـ خطواتِك.
* إتّخذ لك ركناً، والتمس طريق النجاة. .
حتى يكفيك الدرهم والدرهمان فترة طويلة من فترات حياتِك.

يقال إنّه نمى إلى سمع ملك الغور أن الأنوري قد هجاه. فكتب رسالة إلى ملك هراة[٢٠]، يطلب الأنوري، ويبدي له اللطف والودّ، مخفياً هدفه الحقيقي. . وهو الانتقام.

وأدرك ملك هراة ـ بفراسته ـ[٢١] ما يُراد بالأنوري من سوء، لكنّه لم يستطع أن يكتب إليه صراحة، فأدرج أبياتاً في رسالته التي أرسلها إليه، من بينها:

(أبيات عربية)

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ طول ابتسامي فقولي مضحك والفعل مبكي

فأدرك الأنوري ـ ببعد نظره ـ ما وراء الأبيات من تحذير، فعمل على أن يصرف ملكَ هراة عن تنفيذ أمر ملك الغور.

لكنّ ملك الغور أرسل في استدعائه مرّة أخرى، ووعد ملك هراة بألف رأس من انغنم إن هو أرسل إليه الأنوري. فأرسل ملك هراة شخصاً إلى الأنوري يطلب منه أن يستعدّ للذهاب إلى بلاد الغور. وأخبره أنهم سيعطونه في مقابله ألف رأس من الغنم.

وأرسل الأنوري إليه يقول: أيها الملك. . من يساوي ألف رأس من الغنم. . ألا يساوي لديك شيئاً؟ إنك إن عفوت عنّي وتركتني وشأني، كنت بقيّة عمري في زمرة أتباعك، أنثر جواهر مدائحي عند قدميك. واستحسن ملك هراة كلامه، فمنحه حمايته.

● رشيد الدين الوطواط ـ رحمه الله ـ، أحد شعراء ما وراء النهر. كان

أستاذاً أو قائداً في عصره، ويعتبر إمام طبقة الشعراء من معاصريه. صنَّف كتاب حدائق السحر في صنائع الشعر[٢٢].

ومما قاله في مخاطبة أحد الوزراء:

* أنت الوزير وأنا مادحك، فكيف تجيز ردّ يدي بدون عطاء؟.

* أترك وزارتك لي وامتدحني، لترى كيف يكون عطاء الوزراء.

وقد جادت عبقريّته بهاتين الرباعيّتين أيضاً:

* فكّرت فيك يا قمري فغفلت عن دنياي،
وأنتِ لا تدرين شيئاً ولا تعلمين.

* نفضت يدي من كل شيء، وقبعت في أحد الأركان،
فكما انقضى العمر معكِ.. ينقضي مع الآخرين.

* * *

* صورة الحبيب تملأ عيني،
وأحبّها ما دام يسكن فيها الحبيب.

* فلا تجهدنّ نفسك لتتبيّن الفرق بين الحبيب وعيني.
فالحبيب عيني، وعيني هي الحبيب.

● عمعق ـ رحمه الله ـ، أحد شعراء ما وراء النهر[٢٣] أيضاً، وأستاذ شعراء وقته. وهذه أبيات بديعة وردت في مستهل إحدى قصائده:

(شعر)

* لو أن هناك نملة تنظم شِعراً، وشَعرة تنبض بالحياة،
لكنت أنا النملة الناظمة والشَعرة النابضة.

* فجسدي خيال شَعرة، وقلبي عين نملة..
من جرّاء هجران حبيبٍ معطّر الشَعر ذي خصر كخصر النملة.

* ولو واصلت الليل بالنهار في رفقة شَعرة أو صحبة نملة..
فلن تعلم النملة شيئاً، ولن تجد لي الشعرة أثراً.

* لفرط حزني وشدّة هزالي وضعفي تتسع لي عين النملة،
فالنملة ـ إن شاءت ـ أخفتني في عينها.

* أضحيت من فرط حزني نملة تخفيها شعرة،
وصرت من فرط وهني شعرة تفوق النملة نحافة.

● سوزني ـ رحمه الله ـ، كان من مدينة نسف[٢٤]. وفد إلى بخارى للدراسة، وكان يعشق (صبياً) يعمل عند رجل يحترف صناعة الإبَر. فعمل لدى الرجل بدوره ومهر في تلك الحرفة إلى حد كبير.

وكان يميل إلى الهزل ميلاً كبيراً، لهذا نظم العديد من الهزليّات، ومما قاله في الاعتذار:

(شعر)

* إلى متى نُلقي الحجارة على منزل الطاعة والعبادة؟
إلى متى نعزو إلى دوران الفلك ما نكسر في هذا المنزل من زجاج؟.

* إنّ كل ما نحسنه هو إلقاء الحجارة على الزجاج..
ثم إلقاء التهمة على الفلك الملوّن الزجاج.

وفي قصيدة أخرى نجد له أبياتاً في نفس المعنى:

* أنا أسوء ألف مرة مما تنسبه إليّ من سوء،
ولا أحد يعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

* أنا سيء في العلن، وأسوأ من السوء في الخفاء.
والله يعلم ظاهري وباطني، وأعلم ذلك أنا نفسي.

* كان الشيطان مرشدي في إحدى الصغائر.
وأنا الآن أقود الشيطان إلى الكبائر وأرشده بنفسي.

ويخرج عن هذا النمط في قصيدة أخرى يقول فيها:

(شعر)

* أيها الغازي، حين تتدلّل فتلقي سهم غمزتك،

إجعل قلبي المسكين هدف سهم غمزتك.

* أردت في بداية أمري أن ألعب معك بقلبي،
والآن ضاع القلب.. فاجعل روحي لعبتك.

* ما دام لطفك يأتي عقب جرح سهمك.. يا حبيبي..
فاجرحني بغمزتك.. ثم لاطفني بقبلتك.

* لك ألف عاشق.. وأنا التالي لهم..
فأنت لا تأتي للقائي حتى لا تُشغَل عمن يعشقون جمال طلعتك.

وللسوزني قصيدة (موقوفة) في مدح حميد الدين المستوفى الجوهري[٢٥].. أحد فضلاء ما وراء النهر، وهي من ابتكاره كما يقال، ومطلعها:

أين روح مجلس المستوفى، أين حظ حميد الدين؟.

ولا يخفى علينا ما في بناء الأبيات من طرافة، فقد راعى الشاعر ـ في الكلمات التي يقع جزء منها في مصراع وجزء في الآخر ـ أن يكون في بعض هذه الأجزاء معنى مستقلاً في ذاته يؤدّي الغرض المقصود منه[٢٦].

ويتمثل ذلك في هذه القطعة:

* أرسل لي عبقريٌ عاقل فاضل بالأمس (قطعة).

* تعمّد فيها ـ ثلاث مرات أو أربع ـ أن يقسّم اللفظ إلى قسمين،
حتى أعجز عن كتابة الردّ إليه والإجابة عليه.

* فقلت له مجيباً: يا مفخرة البشر، وقاضي حاجة أصحابك،
أيها الفاضل المفضال.. إني أدعو لك كثيراً[٢٧].

كما يتمثل في هذه الرباعية:

* يا فرحة عيدي، حين يأسرني الأسف ويسجنني الهمّ،
وتتحقق لأعدائي فرحتهم..

* سوف يلتمس المحبّون لي العذر ويغفرون لي توقّعي قبلة منك..

تحرّرني من أسري وسجني، وفقاً للعادة المتّبعة في المعايدة.

● خاقاني الشيرواني ـ رحمه الله ـ، كان يلقّب بحسّان العجم بسبب كماله في صناعة الشعر ـ يمتاز شعره على شعر غيره في أسلوبه وطريقته الغريبة الفريدة. سار على طريق الحكيم سنائي في المواعظ والحِكَم، لكنه نال قصب السبق فيما توصّل إليه من معان، لهذا وجدناه يقول مفتخراً:

* إني شاعر مبدع أمتلك مائدة المعاني،
ويأكل فضلات مائدتي العنصري والرودكي.

* إسمي حيٌ كروح الفيلسوف لما أعمد إليه من تجديد،
وحرصي ـ لقلّة ما معي ـ قد أختفي.. كما يختفي مال الكريم.

وقد امتدحه رشيد الدين الوطواط بقوله:

* يا من أنت لفلك العظمة شمس وقمر، ولسرير الفضل وزير وملك.

* أفضل أهل الدين، أبو الفضائل.. بحر الفضل..
أنت الفيلسوف معز الدين، قاهر الكفر.

وله قطعة يقول فيها:

* يا خاقاني، كفّ عن عشق الحسناوات..
فالعشق يحيّر العقل ويظلمه ويشقيه.

* وجه الحسناء ـ لو عَلِمتَ ـ مرآة..
سطحها الخارجي مضيء مشع، وما وراءه مظلم معتم لا ترى ما فيه.

وله مثنوي بعنوان: «تحفة العراقين» يقول في مفتتحه:

* نحن النظّارة المهمومون..
بين الصندوق الأخضر والصَدَفَة الترابيّة حائرون.

* الصندوق في مكانه، والصدفة في مكانها
فلا بد إذاً أن يُفتح كيس العمر ويُكشف عنه الغطاء.. لو تعلمون.

* إنهما ساحران عجيبان، يجلبان النهار بما فيه من صخب،
والليل وما يتميّز به من سكون.

* حان الوقت. . لينتهي الوقت، ويأتي سيل العدم والمنون.

* آن لمحفّة الشهر والسنّة أن يضعها الأربعة الحمّالون.

* حان الوقت لأن تُسقِط خيولُ النجوم نعالَها وحوافرَها. . ألا تشعرون[٢٨]؟.

● فخر الجرجاني ـ رحمه الله ـ، من أفاضل عصره. أهّله كماله وفضله ودقّة شعره لأن يؤلّف كتاباً بعنوان: «ويس ورامين»، وهو كتاب نادر في عصرنا هذا. ومن مواضع مختلفة في هذا الكتاب اخترنا هذه الأبيات:

* يقول أحد العارفين المجرّبين: المعركة تسهل على المتفرّجين.

* أنا لست صاحب الطشت الذهبي الذي سيرى العدوّ دمي فيه.

* الحيّة لا تلد إلاّ حيّة، والبذرة السيئة لا تثمر سوى النبات السيء.

* إذا كانت الرحلة لا تسرّ مع الصحّة وسلامة البدن،
فكيف يكون تأثيرها مع التعب والوهن؟.

* الورود والنرجس يروق لعينك شكلها، لكنّها مرّة في طعمها.

* الملك مثل النار، والنار بطبيعتها معاندة شديدة المراس.

* إن كنت تعدل الفيل قوة والأسد طبعاً. .
فلا تظهر شجاعتك وصلابتك في وجود النار المحرقة.

● ظهير الفاريابي ـ رحمه الله ـ، من مشاهير الدنيا وأفاضل العصر. ديوانه محبوب، وأشعاره متداولة. لم يوصف غيره بما وُصِف به من لطف القول وسلامة الكلام. وقد نال ـ في دولة الأتابك أبي بكر ـ[٢٩] الكثير من العطايا والإنعام. ويقال إنه قال هذا الرباعي ذات ليلة في مجلسه:

* يا من وِرد الملائكة دعاء رأسه، ولا يجد الزمان رأساً مكان رأسه.

* خاطَبَ غمدُ سيفك الأعداء فقال: ليكن سرّ قلبي فداء رأسه.

فأمر أن يُنثَر عليه في المجلس ألف دينار من الذهب الأحمر، مما جعله يقول هذا الرباعيّ على البديهة:

أيها الملك بفضلك تآلف المُلك والدين،
وبعدلك خمدت روح الفتنة وزال الظلم اللعين.
واتّفق الرافضيّ[٣٠] والسنيّ كلاهما في عهدك..
على أن أبا بكر هو الخليفة[٣١] بحقٍ، وهو صاحب التمكين.

ومن لطائف أشعاره تلك الأبيات التي نظمها في قالب المثنوي:

* قال عالم من ذروة منبره: يوم القيامة..
يغفر الله لذوي اللحى السوداء إكراماً لذوي اللحى البيضاء.

* كما سيكون ذوي اللحى السوداء في حماية ذوي اللحى البيضاء..
يوم الأمل والرجاء.

* وكان رجل ذو لحية حمراء يحضر مجلسه،
فتخلّلت أصابعه لحيته حين سمع ذلك الهراء.

* وقال: ألا يُحسب لنا حساب في ذلك الأمر؟
ألا فائدة لنا في الدارين؟ أليس لنا شفعاء؟.

ونتيجة لكمال شعره، اختلفت آراء الشعراء حين فاضلوا بينه وبين الأنوري.. حتّى أن أحدهم أرسل إلى زميل له يسأله رأيه في ذلك الشأن، فقال:

* يا وقار الأرض، وقمر سماء الفضل.. مبارك التكوين،
يا من طلعتك كطلعة الشمس.

* إن جماعة من النقاد يفضّلون أشعار ظهير على أشعار الأنوري..

* بينما هناك من يرى عكس ذلك،
فهم ـ باختصار ـ يتنازعون ويتخاصمون.

* فأي الرأيين ترجِّح؟، يا من في إصبعك خاتم مُلك البلاغة والأدب.
وقد أجابه العالم الهروي بقوله:

* يا من تسأل وتبدي حيرتك، لا عذر لك إذا ما وجَّهت هذا السؤال.

* إذ لا وجه للشبه بين الحالتين، ولا حاجة لإيجاد الفرق، ولا موجب للجدال.

* فهذا معجزة وذاك سحر، وهذا نور وذاك مصباح.

* وهذا قمر وذاك كوكب، وهذا مَلَك وذاك جان لا يُنال.

وقال آخر مجيباً أيضاً:

* المبتدىء وحده هو الذي يفضّل ـ على غير أساس ـ
شعر ظهير على الشعر النقيّ الطاهر الذي ينظمه الأنوري.

* ومَثَل من يفعل ذلك وأمثاله
كمَثَل من لا يفرّقون بين معجزات موسى وسحر السامري.

● الشيخ نظامي ـ رحمه الله ـ، ينتمي إلى گنجة. فضائله وكمالاته واضحة لا تحتاج شرحاً. ولا يمكن لشخص أن يدرج ذلك الكمّ من اللطائف والدقائق التي أدرجها في كتبه: «پنج گنج»، بل وليس ذلك في مقدور بشر. وتُنسب إليه أشعار لا يجوز لنا أن نثبتها في كتابنا هذا، وهي أشعار قليلة. وهذه الغزليّة منسوبة إليه:

(غـزل)

* كل ذَرّة من متاعبي أعزوها إلى ذلك الوجه القمحيّ..
مهما تفهت متاعبي.

* فبسبب وجهها يحتقن وجهي الأصفر بالدم ـ طوال الليل ـ
ولا تصفو مشاربي.

* حبّة قمحها ـ مع حبّات أخرى تشكّل سنبلة خضراء،
تضارع سنبلة الفلك.. إذا ما وصفتها.

* لم أذق ثمرة من ثمارها، وأكل غيري منها قمحاً..
إنها الجنّة، ولا قدرة لعيني على مشاهدتها.

أشتري من ميزان طرّتيها المسك كما أشتري الشعير،
وأريد شراء المزيد من القمح ليوزن الكلام.

* إنشقّ قلبي كالقمحة إلى نصفين حزنا،
فلم تعن لحظة بمعرفة حال نظامي، ولم تُلقِ السلام.

● كمال إسماعيل أصفهاني ـ رحمه الله ـ، لقّبوه بخلّاق المعاني لكثرة ما أدرجه في شعره من معان دقيقة. ولم يحظ أي شاعر قديم أو محدث بمثل ما حظي به. لكنّه ـ بسبب مبالغته في دقّة معاني عباراته ـ جاوز حدود السلاسة. هذا، وأشعار كمال كثيرة، وديوانه مشهور.

● سليمان الساوجي ـ رحمه الله ـ، كان شاعراً فصيحاً، ومحدّثاً بليغاً، لا نظير له في سلاسة العبارات ودقّة الإشارات. له قصائد في الإجابة(٣٢) على قصائد أساتذة الشعر، بعضها أفضل وبعضها أقلّ وبعضها مساوٍ للأصل. وهو يورد الكثير من المعاني والمصطلحات التي سبقه إليها أساتذة الشعر، خاصة كمال إسماعيل. ولمّا كان قد استعمل هذه المعاني وتلك المصطلحات في صورة أفضل وبأسلوب أكثر قرباً للقلوب.. فإنه لم يسمع طعناً من أحد بسبب الأخذ عن سواه.

* المعنى الجيّد كبدن الحبيب الطاهر،
يمكنك أن تكسوه بمختلف الثياب دواما.

* لكن آخر ثوب.. قد يكون كسوة خزي وعار..
إذا لم يفق سابقه لطفاً وانسجاما.

* من الحكمة أن تنزع خرقة الصوف عن صدر المعنى الجيّد،
وأن تكسوه أطلساً وحريراً، ليفوق غيره مقاما.

ولسلمان كتابان في فن المثنوي، أحدهما بعنوان «جمشيد وخورشيد» وقد تكلّف فيه إلى حدٍ كبير فنأى به عن الذوق. وثانيهما بعنوان «فِراق نامه» وهو كتاب بديع لطيف النظم، يضمّ الكثير من الغزليّات المصنوعة المطبوعة

(الفنية المقبولة). غير أن خُلوّ هذه الغزليات من التذوّق والعشق - اللذين يعتبران الهدف من الغزل - جعلها بعيدة عن طباع المتذوّقين.

* كيف يا قلب يمكنك أن تملأ مهدك وحضنك بالطمع، وتبعد عن القناعة؟.

* أطرق يا صغيري باب الفقر والقناعة،
فالذلّ يولد من الطمع، والعزّة أمّها القناعة.
قَدَم الغنيٍّ سهلٌ انزلاقها، فلتسعد رأس الفقر ولتسلم رأس القناعة.

● محمد عصّار التبريزي - رحمه الله -، صاحب كتاب «مهرومشترى».
وقد أدرج فيه العديد من اللطائف والبدائع. ومما قاله في وصف أنف معشوقته:

* خطَّت معشوقتي على النسرين خطا
هو عين اللطف، وخلاصة الدلال.

* وقد نصبت يد القدرة عموداً فضياً..
تحت ذلكما القوسين المليئين بالعنبر، والحافِلَيْن بالجمال.

* بين الصدفتين اللتين تجمعان البياض والسواد، ووسط اللعل الورديّ..
هناك كتلة من الفضّة الخام النقيّة.. قائمة.

* زهرة ياسمين لم تتفتّح، فوق الياسمين واللعل نائمة[٣٣].
وهذه قطعة لها نفس الطابع:

* لا تلتمس الشفقة يا عصّار في طباع الناس،
فالوردة لا تنمو مطلقاً في الأرض الملحة.

* والوفاء يفرّ من وجوه من عدموا الفضيلة،
فرار الملائكة من الأصنام.

* والقَدَر لا ينخل على رؤوس أمثالهم - بغربال الفلك - سوى تراب الغدر.

* ومن تحبّه وترجو الخير له، يسعى في دهاء إلى الانتقام منك.

* ومن تُحِلّه مكان الدموع في عينك إعزازاً..
سوف يريق دمك لو سنحت له الفرصة.

● الشيخ سعدي الشيرازي ـ رحمه الله ـ، إسمه مصلح الدين، أما «سعدي» فإنه لقب اتّخذه نسبة إلى اسم ممدوحه ولا شك. وسعدي هو قدوة المتغزّلين، وقد فاق سواه في بذر البذور في طريق الغزل. وكان كلامه محبوباً مقبولاً لدى كل الطوائف. ومما قاله أحد الشعراء ـ منصِفاً ـ في حقّه:

للشعر ثلاثة أنبياء، رغم قول الرسول: لا نبيّ بعدي.

فشعر الوصف نبيّه الفروسي، والقصيدة نبيّها الأنوري، والغزل نبيّه السعدي.

● حافظ الشيرازي ـ رحمه الله ـ، معظم أشعاره تتّسم باللطف وتحظى بالقبول، وبعضها يقرب من حدّ الإعجاز. وإذا قورنت غزليّاته بغزليّات غيره ـ في سلاستها وروحها وانسجامها ـ كان لها حكم قصائد ظهير بالنسبة لقصائد غيره.

وأسلوب حافظ أقرب إلى أسلوب نزاري القهستاني، لكنّ شعر الأخير يختلط فيه الغث بالسمين على نحو لا يتحقق عند حافظ. ولما كانت أشعاره خالية من التكلّف لُقّب بلسان الغيب.

● الشيخ كمال الخجندي ـ رحمه الله ـ، لطف أشعاره ودقّة معانيها تبلغ درجة من السموّ لا يمكن تصوّرها، لكن المبالغة تخرج بها عن حدّ السلاسة وتجرّدها من ذوق العشق والمحبّة. سار على طريقة حسن الدهلوي في إيراد الأمثال، واختيار البحور الخفيفة الغريبة القوافي والمترادفات التي قد تبدو سهلة بينما هي ممتنعة على المقلّدين. غير أن أشعار حسن لا تحفل بنفس القدر من المعاني اللطيفة التي نجدها في أشعار كمال. ونتيجة لهذا التقليد يُطلَق عليه «سارق مؤلّفات حسن»، ولعلّ هذا ما دعاه إلى أن يقول:

* لم يقبِض عليَّ أحدٌ وأنا أرتكب إثماً،
ومع ذلك يُعرف عنّي أني سارق مؤلفات حسن.

وقد قال بعض العارفين الذين قُدّر لهم صحبة كمال وحافظ: إنّ صحبة الشيخ أفضل من شعره، وشعر حافظ أفضل من صحبته.

● خسرو الدهلوي ـ رحمه الله ـ، متفنّن في الشعر، طرق أبواب القصيدة والغزل والمثنوي وحقّق الكمال فيها جميعاً. وقد قلّد الخاقاني فلم يدانه في القصيدة وإن فاقه في الغزل. وقد أحب الناس جميعاً غزليّاته لما اشتملت عليه من معان لطيفة يجد فيها العشّاق ما يوافق ذوقهم ويخاطب وجدانهم. ولا يوجد بين الشعراء من تفوّق عليه في معارضة خمسة نظامي. وله في ذلك منظومات مطبوعة مصنوعة.

● حسن الدهلوي ـ رحمه الله ـ، اتّبع طريقة خاصة في الغزل، فأكثر من اختيار القوافي النادرة، والكلمات المسجوعة غير المألوفة، والبحور اللطيفة التي تُضفي على الشعر ـ خاصةً الغزل ـ أهميّة بالغة. فلا جرم أن أكسبت هذه الميزات أشعاره خاصيّة معيّنة.. فهي تبدو للوهلة الأولى سهلة التقليد، بينما هي في حقيقتها صعبة الإنشاء.. ولهذا تسمى: «السهل الممتنع» وكان حَسَن معاصراً لخسرو، تجمع بينهما الصحبة والألفة والمودّة، وهو يقول في مدحه:

* يتقبّل خسرو ما أقوله كرماً منه..
أين شعري من شعره، إنّ الشعر بحقٍ هو ما يصدر عنه.

● عماد فقيه ـ رحمه الله ـ، شاعر آخر من شعراء الغزل، وشيخ أحد دور العبادة. كان يقرأ شعره على الواردين دون استثناء، ويطلب منهم تصحيحه؛ ولذا يقال إن شعره شعر كل أهالي كرمان.

● خواجو ـ رحمه الله ـ، ينتسب بدوره إلى كرمان. وقد بذل جهداً كبيراً في تزيين ألفاظه وتحسين عباراته، ولذا يسمّونه: «بستانيّ الشعراء».

● ناصر البخاري ـ رحمه الله ـ، أحد شعراء ما وراء النهر، وفي أشعاره نماذج من التصوّف.

● خواجه عصمت ـ رحمه الله ـ، من أهالي بخارى. كان يقلّد خسرو في الغزل.

● بساطي ـ رحمه الله ـ، ينتمي إلى سمرقند. شعره لا يخلو من حلاوة وعذوبة، لكنّه يدلّ على افتقاره كثيراً إلى الفضائل المكتسبة.

● خيالي ـ رحمه الله ـ، شعره لا يخلو من الخيال. وهذا الغزل له:

* يا من قلوب العشّاق هدف سهام حبّك،
تختفي عن أنظار الناس، ويُشغَل الناسُ بأمرك.

* ألجأُ للدير حيناً والمسجد حيناً علّني أحظى بقربك.

* تتّخذ طريقك إلى الكعبة للزيارة ونحن نرجو زيارتك.
تبحث عن البيت ونحن أصحاب البيت والمنزل.

* جمالك سرّ بقائك، وهو سحر وأسطورة وخرافة.

* فإن يك خيالي قد قصّر في وصفك. فقد فعل ذلك أملاً في كرمك،
ولا عذر لي أفضل من ذلك الاعتذار.

● آذري ـ رحمه الله ـ، من إسفرائين. وفي أشعاره كثير من العبارات الزاخرة بالفخر بالنفس، وهي عبارات يُشكّ في صحّة نسبتها له. ومن مطالعه المحبوبة:

* أقبل الليل وفاض الدمع من عيني . . كـأنّ الـعـين مـيـدان الـبـكـاء
* ثم صار الدمع سيلاً . . جيّش نومي مـنـه قـد لاقـى الـعـنـاء

● كاتبي ـ رحمه الله ـ، ينتمي إلى نيسابور. يمتاز بكثرة إيراد المعاني الخاصّة، وينفرد بأسلوب خاصّ يؤدّي به تلك المعاني، إلاّ أن شعره غير متناسق، لا سهولة فيه ولا وضوح. وتنسب إليه منظومة «شتر وگربه».

● شاهي ـ رحمه الله ـ، من مواطني سبزوار. أشعاره لطيفة متناسقة سهلة واضحة، وعباراته طاهرة صافية، ومعانيه مستساغة مقبولة.

● عارفي ـ رحمه الله ـ، من مدينة هراة. من أفضل ما نظمه كتاب:

«گوی وچوگان». وهذه عدّة أبيات من هذا الكتاب قالها في وصف الحصان المدرّب على اللعب:

* أخذ يعدو في دائرة كأنّها فلك السماء،
ويقفز في الميدان ككرة لا تستقرّ.

* فلمّا غرِق في عَرَقه، صار يشبه البرق
في وسط المطر والسحاب المكفهرّ.

* تفرّ النار من حوافره، وتعلق بذيله ريح صرصر عاتية.

* وكلّ ساق له ـ تتبع كرة ـ قد حوّلتها إلى كرةٍ سرعتُهُ الطاغية.

* وفي فترات انطلاقه إلى ميدان المعركة،
كانت تتراجع ريح الصبا.. محمّلة بالغبار.

* وفي طريقه، عَبَرَ الجبلَ كالسيل،
ومرَّ فوق البحر كالريح والإعصار.

● مير نوائي ـ رحمه الله ـ، صاحب السلطان الذي يتشرّف زمـاننا بوجوده. ومهما تكلّمنا عن منزلته وعلوّ قدره لا يمكننا أن نوفيه حقّه، نظراً لقربه من الملك صاحب الشوكة، ولما يتمتّع به من مناقب معنويّة وفضائل موهوبة ومكتسبة.. فقد اشتهر بحسن شعره، ووصف بجودة نظمه.

غير أنه حين سيطر خاطره على نفسه لفرط تواضعه، وبعد أن انـخرط في سلك طائفة الشعراء.. رفع حجاب تحاشيهم والبعـد عنهم، ولهذا اعتبروه واحداً منهم وسلكوه في زمرتهم. ويقتضي الإنصاف اعتباره قائدهم، وكتابة اسمه قبل أسمائهم. وحول هذا المعنى يدور المُعَمّى التالي، ذلك المعمّى الذي يرتبط باسمه الشريف:

(معمّى علي شيـر)

على سير الأفاضل سرت دهرا ... وأحرزت الفضائل بالفواصل
وباسمك فقت أهل الفضل طرا ... لذا صوّرته فوق الأفاضل

ولما كان جوهر اسمه أكبر من أن يحويه نظم، ولما كان علوّ قدره أسمى من مقام كل شعر.. فإن تخلّصه الشعري يمكن أن يُدرَك من هذا المعمّى المسمّى باسمه:

(معمّـى نوائـي)

* لم ير أحد اسمه وسط تخلّصات الشعراء..
لذا اختار له من يعرفونه: «نوائي» تخلصاً.. وانتهى الأمر.

ورغم أنه كان يسيطر على اللغتين الفارسيّة والتركيّة، ويستطيع بفضل عبقريّته وعقليّته وسعة أفقه ـ أن ينظم بهما معاً، فقد مال إلى النظم بالتركيّة أكثر من ميله إلى النظم بالفارسيّة.

وله أكثر من مائة ألف غزليّة تركيّة، أما مثنويّاته ـ التي يمكن مقارنتها بخمسة نظامي ـ فإن أبياتها تقارب الثلاثين ألف بيت. ولا شك أنه أفضل الجميع في ثقب جواهر النظم في تلك اللغة وأسبقهم، وأغزرهم إنتاجاً.

ولمير نوائي قصيدة في الإجابة على قصيدة خسرو الدهلوي، أسماها «درياي أبرار». وهي تشتمل على كثير من المعاني الدقيقة والخيالات اللطيفة ومطلعها:

* الياقوت الناري، ذاك الذي يتّخذه الملوك حلية لتيجانهم..
هو الشرارة التي تنضج ما في الرؤوس من أفكار وخيالات فِجّة.

وفي رباعيّة له، كتبها في رقعة مهنّئاً بقدوم اثنين عائدين من سَفْرة الحجاز، يقول:

* أيتها السماء اللازورديّة..
أصدري حكمك العادل فيسرّ واحد من اثنين:
شمس دنياك القادمة من الشرق،
أو قمري السوّاح القادم من الغرب.

وفي رباعيّ آخر كان قد كتبه في رقعة أخرى، يقول:
ليست هذه رقعة فحسب، وإنما هي بلسم يزيل سقمي.

مرهمٌ يريح قلبي الحزين ويعزّيني ويدفع الأنفاس في صدري.
يكفيك أن تعلم أنّها تحمل أخبار قمري جوّاب العالم.

وفي رباعي ثالث ورد في إحدى الرقاع أيضاً، يقول:

إن أكن في الدير، أتكلّم معك وأتحدّث
أو أكن في الحرم، أفتّش عنك وأبحث.
في حضرتك، لا أكفّ عن مطالعة وجهك،
في غيبتك، يتّجه قلبي نحوك.



وبين نيسابور سبعون فرسخاً، وإلى سرخس ثلاثون فرسخاً، وبها نهرا الرزيق وماجان. . وكلّها ببلاد فارس. (مراصد الاطّلاع جـ ٣، ١١٨٥)؛ معجم البلدان جـ ٨، ٣٢ ـ ٣٨)؛ (معجم ما استعجم جـ ٤، ٦، ١٢١).

(١١) سنجر: ملك سلجوقي، ولد في سنجار عام ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م، وتولّى عرش السلاجقة عام ٥١٣ هـ = ١١١٩ م، ومات عام ٥٥٢ هـ = ١١٥٦ ـ ١١٥٧ م.

لمعرفة كلّ ما يتعلّق به ارجع إلى: (السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٥٣ وما بعدها).

(١٢) يمين الدولة: لقب من ألقاب السلطان محمود الغزنوي.

(١٣) استطاع محمود أن يغزو الهند، وقد نازل الهنود في اثنتي عشرة معركة خلال أربع وعشرين سنة (٣٩٢ ـ ٤١٥ هـ = ١٠٠١ = ١٠٢٤ م). (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ١١١)؛ (٣٥٠٠ عام من عمر إيران، ٣٦٣، ٣٦٤)، (السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٩٩، ١٠٠).

(١٤) سومنات: نسبة إلى «سومنات» التي غزاها السلطان محمود الغزنوي، وحطّم أصنامها. (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٤٤٠).

(١٥) سمرقند: في «تاج العروس» بفتح السين والميم وسكون الراء، وفي «معجم ما استعجم» بفتح أول الإسم وإسكان ثانيه، بعده راء مفتوحة مهملة، ثمّ قاف مفتوحة ثمّ نون ساكنة مدينة الصغد معروفة. وهي من خراسان، ببلاد فارس. (معجم ما استعجم جـ ٣، ٧٥٤، ٧٧٥).

(١٦) طوس: مدينة بخراسان، بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. تشتمل على بلدتين (الطابران) و (نوقان). فتحت أيام عثمان بن عفّان، وبها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد. وهي (كما يقول السمعاني) تعتبر أيضاً قرية من قرى بخارى. ومن أشهر من نسب إليها الإمام الغزالي. (معجم البلدان (W) ، جـ ٣، ٥٦٠ ـ ٥٦٢).

(١٧) گيو، پشن: شخصيتان أسطوريّتان فارسيّتان.

(١٨) الميمندي: أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي، أشهر وزراء السلطان محمود. كان يلقّب بـ (شمس الكفاة)، ويقال إنّه تشفّع للفردوسي الشاعر أكثر من مرّة. ولمعاصريه عدد من القصائد في مدحه. (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ١٢٠).

(١٩) النسرين: زهر ناصع البياض، وهو من أعظم الزهور رائحة. (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٨).

(٢٠) هراة: بالفتح، اسم يطلق على مدينتين. . إحداهما عظيمة مشهورة، من أمّهات مدن خراسان، خرّبها التتر سنة ثماني عشرة وستمائة، والأخرى بفارس قرب

اسطخر، وهي كثيرة البساتين. (معجم البلدان، جـ ٤، ٩٥٨ ـ ٩٥٩).

(٢١) الفراسة: بكسر الفاء، مأخوذة من التفرُّس... وهو التثبّت والنظر. وقد تكون وهبيّة إلهامية يخلقها الله، وهي المراد غالباً عند القوم. (تعليق زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية، ١٢٥).

(٢٢) حدائق السحر في صنائع الشعر: يسمَّى أحياناً: حدائق السحر في دقائق الشعر. ألّفه رشيد الدين الوطواط، ونقله إلى اللغة العربيَّة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ونشره عام ١٩٤٥ م.

(٢٣) ما وراء النهر: المدينة التي وراء النهر المسمَّى Ouxs (Trans - Oxiana).

(٢٤) نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند.

(٢٥) حميد الدين الجوهري: كانت بينه وبين السوزني خصومة، وقد تبودلت بينهما جملة من المعارضات الشعريّة. ويمكن أن يرجع في ذلك إلى لباب الألباب لعوفي. (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ٤٣٣).

(٢٦) راعى الشاعر في كل بيت أن يكون المقطع الأخير من الكلمة الأخيرة في المصراع الأول قابلاً للنقل إلى المصراع الثاني، ومكوّناً كلمته الأولى.

(٢٧) يمكننا ترجمة هذه الفقرة على النحو التالي:

أنت حمار بين خلق الله، وإني لأدعو عليك بأن يصيبك الكثير من الركلات.

(٢٨) في المثنوي بيت محذوف ذكرته النسخة الهنديّ، ونصّه:

وين طرفه كه بر بساط دوران مهره زمن است وحقه گردان

والترجمة: ومن الطريف المدهش أن تكون الصَدَفَة عاجزة...

لا تتحرك على بساط الكون، والحقُّ دوَّار.

والحُقُّ الأخضر هنا هو الفلكُ والسماء، والصدفة الترابية هي الأرض، والحمّالون الأربعة هم العناصر الأربعة.

(٢٩) الأتابك أبو بكر: هو نصرة الدين أبو بكر بيشكين بن محمد بن إيلدگز، حفيد قزل أرسلان ووارث ملكه. كان يلقب باسم (جهان بهلوان) أي بطل العالم، وقد مدحه الشاعر في ٣٥ قصيدة. (تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ٥٢٦، ٥٢٨).

(٣٠) الرافضي: نسبة إلى الرافضة، وهي فرقة من شيعة الكوفة. أُطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم رفضوا (أي تركوا) زيداً بن علي بن أبي طالب حين نهاهم عن الطعن في الصحابة، فلما عرفوا مقالته وأنه لا يبرأ من الشيخين رفضوه. ثمَّ استعمل هذا اللقب في كلّ من غلا في هذا المذهب وأجاز الطعن في الصحابة. (المصباح المنير جـ ١ ـ ٣١٦ ـ ٣١٧).

(٣١) استعمل كلمة (الخليفة) في النصّ الفارسي بدل (الملك) وهي الأنسب بالنسبة للسياق.

(٣٢) الجواب: قد يكون (معارضة) لقصيدة أخرى أو مجرَّد تقليد لها، وفي هذه الحالة يسمى (نظيرة).

(٣٣) العمود: الأنف، القوسان: الحاجبان، الصدفتان: العينان، اللعل: الشفتان الحمراوتان، اللعل الوردي: الوجه، الكتلة: الأنف، الياسمين واللعل: الخدود والشفاه.





الرَّوضة السّابعة



في سرد عددٍ من الحكايات تصف أحوال الحيوانات البكماء، وَضَعَها الجادّون والمهزارون يبغون بها ضرب المَثَل، ليتقبلها العقل نظراً لغرابتها وندرتها، ويستوعب ما فيها من حكم وفوائد.

* ألم تَـرَ إلى الفَطِنِ الأريب كيف يحيل الدواء المرّ إلى شيء حلو.. بما يضيفه من سكّر؟

* فيطرد ـ بحيلته تلك ـ ألم المريض وسقمه المزمن.. فكأنما شرب من الكوثر.

(حكـايـة)

عقد ثعلب وذئب معاهدة صداقة، وسارا معاً على درب الوفاق. فمرّا معاً على حديقة ذات باب محكم وحائط تكسوه الأشواك. فدارا حولها حتى وجدا فجوة تتّسع لدخول الثعلب دون الذئب، فدخل الأول بسهولة ودخل الثاني بصعوبة بالغة.

وفي الداخل، رأيا أعناباً مختلفة الأنواع، وفواكه متعدّدة الأشكـال والألوان. وكان الثعلب شديد المكر والدهاء فاهتمّ بتحديد مكان الخروج. وأكل الذئب الغافل الغبيّ قدر إمكانه.

وفجأة أحس البستانيّ بهما، واكتشف أمرهما، فحمل هراوته وتوجّه

نحوهما، فخرج الثعلب النحيل في سرعة من الثقب، بينما صَعُب على الذئب ـ كبير البطن ـ وُلوجُه، فأدركه البستاني، وأخذ يضربه بقسوة، فلما خرج من الثقب كان يعدو وهو بين الحياة والموت.. ممزّق الجلد ناحل الشعر.

* لا يدفعك ذهبك إلى التكبّر يا سيدي،
فسوف تتركه ضعيفاً وتمضي.

* لقد تسببت كثرة النعم في بدانتك،
ففكرّ في ذلك الأمر حين تمضي.

* بعد أن صارت لك مثل هذه الجثّة،
لا أدري كيف تخرج من باب الموت وتمضي.

(حكاية)

عزم عقرب على السفر، فحمل سَمّ الضرر في حمّته وسهم الخبث في جعبته، وسار إلى أن بلغ شاطىء نهر واسع، فتسمّر في مكانه متحيّراً عاجزاً لا يتقدّم ولا يتأخّر.

وشاهدته سلحفاة على ذلك الوضع، فعطفت عليه، وأركبته ظهرها، ونزلت إلى الماء، وشرعت في السباحة مولّية وجهها شطر الشاطىء الآخر. وفي تلك الأثناء تناهى إلى سمعها صوت يدلّ على أنّ العقرب يضربها بشيء على ظهرها. فسألته: أيّ صوت هذا؟ فأجابها: صوت حُمّتي أضرب به ظهرك، ورغم علمي أنّ ذلك لا تأثير له على هذا المكان.. إلاّ أنّي لا أستطيع ترك خاصيّتي.

فقالت السلحفاة لنفسها: أفضل شيء أفعله أن أخلّص هذا العقرب اللعين من سوء طبعه، وأريح الوادعين من ضرره. ثم غاصت في الماء، فاختطفه الموج، وحمله بعيداً وأهلكه.

* كل شرير تصدر عنه أنغام الحِيَل في محفل الشرّ والفساد..

* لا شيء أفضل من أن يجرفه موج الفناء،
ليتحرّر من خلقه، ويتخلّص منه العباد.

(حكـايـة)

عاش فأر عدة سنوات في دكّان بدّال ثري، غاصٍ بالحلوى المسكّرة والفاكهة الطازجة، وكان يأكل من تلك النِعَم اليابسة والطازجة، والبدّال يرى ذلك فيتغاضى عنه ولا يؤذيه. وطبقاً للقول السائد:
* إذا امتلأت معدة السِفلة اللئام، أقدموا في جرأة على ارتكاب الآثام.

جاء يومٌ دفعه فيه حرصه وجشعه إلى قَرْض كيس البدّال وسَلْب ما فيه من فِضّة وذهب. ولمّا احتاج السيّد إلى المال.. ووجد كيسه فارغاً كسائر المفلسين، وخالياً كمعدة الجائعين.. علم أن هذا من عمل الفأر، فكمن له كالقط، وأمسك به، وربط خيطاً طويلاً في رجله، ثم تركه إلى أن دخل جحره.. وبقياس الخيط عرف عمق الجحر، فأخذ في الحفر إلى أن بلغ مسكنه، فبدا له كدكّان أحد الصرّافين، قد امتزج فيه الذهب بالفضـة، واختلطت فيه الدراهم بالدنانير، فاستخلص حقّه، وأودع الفأر مخلب إحدى القطط، فنال ما نال من عقاب وشهد ما شهد من عذاب، وجرّ عليه ما جرّ من هلاك.

* الطامعون في دنيانا يحرّكهم شرّهم وخبثهم،
والسعيد من خـلا قلبه من الشرّ والخبث والشهوات.

* الروح والراحة ماثلتان في عزّ القناعة،
لا سعادة في الحرص، ولا يعقبه غير الحسرات.

(حكـايـة)

كان ثعلب يقف في بداية الطريق ينظر يميناً ويساراً، فرأى على البعد شيئاً أسود، فانتظر إلى أن اقترب منه، فوجده ذئباً ضارياً يسير برفقة كلب كبير، وقد اتّخذ كل منهما من الآخر صديقاً مخلصاً. فلا هذا يتوقّع غدر

ذاك ولا ذاك يخشى ضرر هذا.

فسارع الثعلب للقائهما، وسلّم عليهما، وقدّم فروض الاحترام لهما، وقال: أحمد الله أن بدّل خصامكما حباً وعداوتكما صداقة، لكنّي أريد معرفة السبب.

قال الكلب: السبب هو عداوتنا المشتركة للراعي. إن عداوة الذئب والراعي غنيّة عن البيان أما عداوتي مع الراعي فمرجعها إلى ما يلي:

بالأمس أغار هذا الذئب ـ الذي لي اليوم شرف الاتّفاق معه ـ على قطيعنا، وخطف حملاً، فعدوت خلفه كعادتي لاسترداده، لكني أخفقت في اللحاق به. فلما عدت ضربني الراعي بهراوته وآذاني دون ذنب أو جريرة، فقطعت بدوري رباط صداقتي معه، وصادقت عدوّه القديم.

* صادِق عدوَّك على نحو يجعلك تضمن ألّا يخدش جلدَك سيفُ عداوته.

* ولا تسرف في عداوتك لصديقك،
فتدفعه إلى صداقة عدوّك.. على غير رغبته.

(حكـايـة)

قيل لثعلب: أتستطيع أن توصل رسالة إلى كلاب القرية؟ إنك إن فعلت.. أعطيناك ألف دينار. قال: الأجر باهظ، ولكن في الصفقة خطورة على حياتي.

* توقّع الكرم والنبل من السِفلة كإبحار السفينة في لجّة العدم..
لو أمعنت النظر.

* تحقير النفس وإبداء العجز أمام العدو طلباً للمال والجاه..
إلقاء للنفس في دوّامة الخطر.

(حكـايـة)

كان جمل يرعى شوك الصحراء وعشبها، فوصل إلى نبات شائك ملتفٍّ

كطرّة الحسناوات، نضرٍ كوجه المعشوقات. فلما مدّ رقبة الأماني ليأخذ نصيباً منه، رأى أفعى تلتفّ حوله كالحلقة، وقد وصلت ما بين رأسها وذنبها.

وتراجع الجمل وعدل عن أمنيته، فظنّ النبات أن إحجامه راجع إلى خوفه من جراح أشواكه وحدّة حرابه. وأدرك الجمل ما يدور بخلد النبات فقال له: إنما خوفي من الضيف المختفي وليس من المُضيف الظاهر، إني أخاف سمّ أنياب الثعبان ولا أخاف أسنّة سهام الشوك.. ولولا خوفي من الضيف لالتهمت المضيف.

* لا عجب في أن يخاف الكريم من اللئيم..
 يخاف خبث طبعه.. لا شعره وعظامه.

* إن من يضع قدمه في الرماد،
 لا يخاف غيرَ سعيرٍ.. يخفي الرمادُ ضِرامَه.

(حكاية)

وقف كلب جائع ببوّابة إحدى المدن طلباً للطعام، فرأى رغيفاً يخرج متدحرجاً.. ويتّجه نحو الصحراء فأسرع خلفه وهو يصيح: يا قوت الجسد والنفس ومنية القلب، وراحة الروح.. إلى أين مسيرك، وما هي وجهتك؟ فأجابه الرغيف: إن لي في هذه الصحراء كثير من الأصدقاء.. وأنا الآن في طريقي لزيارة جمع من رؤساء الذئاب والنمور. قال الكلب: لا تخفني.. فسوف أقتفي أثرك، ولو ذهبت إلى حلق التمساح أو فم الأسد.

* أنا الذي لن يتخلّى عن حبّك أو يسلو هواك.

* سأطوف الدنيا بأسرها بحثاً عنك، وأعاني وأقاسي لأراك.

* إن من لا يحيون بدون الخبز،
 لا يضيرهم خدمة الأرذال للحصول على الخبز.

* تنهال صفعات اللئام على أقفيتهم،

ومع ذلك يجرون كالكلاب الجائعة وراء الخبز.

(حكـايـة)

قيل للسرطان: لماذا خُلِقت مشوّه الخلقة، ولماذا تسير في خط مُعْوَجّ؟

قال: لمّا رأيت رأس الثعبان تهشّمها أحجارُ الجور، وذَنَبه تقطعه ضرباتُ الظلم.. رغم استقامة جسده ومشيته.. أخذت العظة، واكتسبت الخبرة، ولزمت الطريق المعوجّ، وواظبت فصارت عادتي.

* حينما تُظهر الجِنيّة نفسها في صورتها الحقيقية يحتضنها الناس ويقرّبونها، ويرون فيها الروح والحياة.

* فإذا استقام عودها، وقلّدت الثعبان في سيرها، ضربها القساة ـ من بعيد ـ بالحجارة والهراوات.

(حكـايـة)

انفصل ضفدع عن أنثاه، فوقف على شاطىء البحر يقاسي محنة فقدها، وينظر حائراً في كل اتّجاه. وفجأة:

* رأى سمكة وسط البحر، تجري بسرعة وكأنها الماءُ..

* أو مقراضٌ فضيّ يقسم إلى نصفين متساويين سطحَ الماء.

* أو هلالٌ ناقص لامع، يتمايل ذات اليمين وذات الشمال في خيلاء.

فلما رآها علِق بها قلبُه، وانصرف إلى مصاحبتها فكرُه.. فقصّ عليها قصّة فقده رفيقته، وطلب منها أن تكون صديقته. فقالت السمكة: المصاحبة تلزمها المجانسة، فأيّ تجانس بيني وبينك؟ أسكُنُ قاع البحر وتسكن أحضان الساحل. فمي صامت، ولسانك لا يكفّ عن إصدار الضوضاء. وجهك قبيح يجنّبك البلاء والمحن، وينفّر الناس من الجلوس معك، ومنظري الحسن مصدر الخوف والخطر؛ فمن بهره جمالي طمع في

وصالي.. طيور السماء تسبّح بهواي، ووحوش الفلاة مجنونة بحبّي. والصيّادون يلقون آلاف الشباك بحثاً عني، وتنحني ظهورهم أحياناً كالشصّ من حِمل طلبي.

قالت السمكة هذا واتخذت طريقها إلى قاع البحر البعيد، وتركت على الساحل ذاك الضفدع الوحيد.

* لا تجالس من يخالفك في المِزاج والطبع..
فتشابهكما هو خيط الاتّحاد والتآلف في مضمار الصداقة والوفاء.

* لو أنك ضممت جنساً إلى من يشبهه، وجنساً إلى من لا يشبهه..
لكان المتشابهان كاللبن والسكّر، والمتعارضان كالزيت والماء.

(حكـايـة)

قيل لحمامة: لماذا لا يزيد فراخك عن صغيرين؟، لماذا تعجزين عن إفراخ عدد أكبر بينما الطيور المنزلية قادرة على ذلك؟. فأجابت الحمامة: صغير الحمامة يعتمد في طعامه على حوصلة أمه، بينما فرخ الطائر المنزلي يعتمد في ذلك على كل مزبلة يصادفها في طريقه.. فمن حوصلة واحدة لا يمكن تقديم الغذاء لأكثر من طائرين، ومن نصف مزبلة يمكن أن يفتح باب الرزق على ألف فرّوج.

* إن شئت أن تحيا على رزق حلال، فلا تكن رباً لأسرة كبيرة.

* واعلم أنه من الصعب إدراك الحلال كثيراً..
في هذه الدنيا الضيّقة الصغيرة.

(حكـايـة)

هجر عصفور عشّ أجداده، وبنى له مسكناً في فرجة عش طائر اللكلك[1]. فقيل له: ما الذي دعاك ـ وأنت بهذه الجثة الحقيرة ـ إلى مجاورة

طائر ضخم؟ كيف تساوي نفسك به في محل الإقامة؟ فأجاب العصفور: أعرف قدري وهوان شأني. لكنّي أعرف أيضاً أنه بجوار عشّ أجدادي يوجد ثعبان يغير كل عام على سكني كلّما أنجبت صغاري، فيقتات بمن - بمشقةٍ بالغة - ربّيتهم. ولقد هربت منه هذا العام، ولجأت إلى هذا الطائر العظيم، أنشُد الحماية عنده، وآمل أن يأخذ لي حقّي منه. وكما كان الثعبان يتّخذ من صغاري - في كل عام - قوتاً له، آمل أن يصير هو - هذا العام - قوتاً لصغار اللكلك.

* إذا سكن الثعلب غابة الأسد أمِنَ مخالب الذئاب الضارية.

* ومن سكن بجوار العظماء، أمِنَ مكر السافل وظلم الطاغية.

(حكـايـة)

قيل لكلب: لم يخاف المتسوّل من الطواف حول منزلٍ أنت فيه، أو المرور بعتبة دار تنام عندها؟.

قال: يخاف لأني بعيد عن الحرص والطمع، مشهور بالقناعة وعدم الجشع. فأنا أقنع من الخوان باللباب، ومن اللحم المشويّ بالعظام. أما الشحّاذ فإنه عبدُ الحرص والطمع، يدّعي الجوع وينكر الشبع، يسأل الناس خبز ليلة وفي كيسه خبز أسبوع، يتوكأ على عصا السؤال والحاجة.. وهو يعلّق غذاء عشرة أيام على ظهره. القناعة والحرص على طرفي نقيض، والقانع ينفر من الحريص الطامع.

* كل قلب تسكنه القناعة.. تُغَلُّ فيه يدُ الحرص والطمع.

* وحيثما تعرِض القناعةُ متاعَها يلحق الكسادُ سوقَ الحرص ومعرض الطمع.

(حكـايـة)

خاطب ثعلب صغير أمّه قائلاً: علميني حيلة أنجو بها إن عجزت عن

مقاومة أحد الكلاب. قالت الأم: الحِيَلُ كثيرة، لكن أفضلها أن تقيم في مسكنك بحيث لا يراك ولا تراه.

* حين تُبتَلى بعداوة السافل الوضيع،
فليس من الحكمة أن تستخدم الحيلة في خصومته.

يمكنك اللجوء لآلاف الحيل، ولكنّ الأفضل ألّا تحاربه أو تصالحه، وألّا تمتدحه أو تعرّض بوضاعته.

(حكاية)

أمسك زنبورٌ أحمر نحلةَ عسل ليقتات بها، فبكت وقالت له: الشهد والعسل يملآن المكان، فما قيمتي حتى تتركهما وتكتفي بي؟.

فأجابها: إن يكن هناك شهد فأنت للشهد منجم، وإن يكن هناك عسل فأنت أصله ونبعه.

* سعيد ذلك الطاهر[٢] الذي يشيح عن الرسالة والسلام
ويتّجه إلى مائدة الوصل.

* إذا بدا له الجِذع الأصليّ من خلف ستار الفروع،
ترك الفروع واتّجه إلى الأصل.

(حكاية)

شمّرت نملة عن ساعدها، ورفعت جرادة تعادل عشر أضعاف وزنها. فصاح من شاهدوها في دهشة: أنظروا إلى هذه النملة كيف تجر ـ مع ضَعفها ـ حِملاً بهذا الثقل!. فضحكت من قولهم، وقالت: الرجال يجرّون الأحمال بقوة الهمّة وساعد الحمية، لا بقوة الجسد وضخامة البدن.

* من الصعب على الجسم والروح.
أن يحملا ما أبت السماوات والأرض أن يحملنه[٣].

* فقوّ همّتك بمدد المسافرين في طريق العشق،
فبه وحده يمكن حمل ما أبَيْنَ أن يحمِلنه.

(حكـايـة)

كان جمل يرعى في الصحراء، ساحباً عنانه في قدمه أينما سار. فرآه فأر على هذه الحالة، وأدرك أنه يسير وحيداً دون صاحبه، فتقدّم منه وأمسك بعنانه ـ حرصاً منه وطمعاً ـ وسارع به نحو مسكنه. وانصاع الجمل له بما فطر عليه من سهولة الانقياد، وما جبل عليه من عدم الميل للمخالفة والعناد.

ووصل الجمل إلى مسكن الفأر فرأى ثقباً ضيقاً للغاية، فقال له: يا من تفكّر في المستحيل، ما هذا الذي أقدمت عليه؟ إن مسكنك ضيّق جداً، وجثّتي كبيرة جداً.. فلا مسكنك في مُكنَتِه أن يتّسع أكثر مما هو عليه، ولا جثّتي في مقدورها أن تصغر عما هي عليه.. فكيف ترجو أن تنشأ بيننا صداقة، أو تتصوّر أن تكون بيننا ألفة؟.

* كيف يمكنك أن تقطع طريق الأجل
وأنت على هذه الحالة التي أراك عليها؟
تسير وخلفك حِمل جَمَل.. مما جمعت من متاع.. بحرصك وطمعك.
* أيها الراحل خفّف أحمالك،
فالقبر الضيّق لا مكان فيه لما أخذته بجشعك.

(حكـايـة)

قفزت إحدى النعاج أثناء عبورها أحد مجاري المياه، فارتفعت إليتها، فضحكت زميلتها وقالت: رأيت عورتك. فاستدارت النعجة إليها وهتفت: يا ظالمة، رأيت عورتك عارية عدداً من السنين، فلم أضحك حتى لا أتسبّب في إهانتك.. فلماذا تهتمّين بتوبيخي لمجرّد رؤيتك لي على هذه الحالة مرّة واحدة؟.

* إذا ما رأى اللئيمُ الخطّاء الذي يرى الناس عيوبه جليّة واضحة..
* إذا ما رأى أقلَ عيب يصدر عن رجل كريم.. طعنه ولعنه.
* وهكذا يستغلّ أحدُهما لسانَه في ذمّ غيره،
بينما لا يلوّث الآخرُ فمَه بذِكره.

(حكاية)

كان ثور يتزعّم قطيعاً، ويشتهر بين أفراده بقوّة قرنيه. وكان إذا ما أغار الذئب أبعده بضربات قرنيه وكفاهم ضرره. وفجأة لحق البلاء بقرنيه، فكان إذا ما رأى الذئب زحف واحتمى بغيره من الثيران. فلما سأله البعض عن السبب قال:

* مذ فقدت قوّة قرني، صارت معركة الشجاعة ـ في نظري ـ باردة كئيبة.
* فالمَثَل القديم يقول: يوم المعركة..
تكون الضربة من الحربة، والدعوى من الرجل.

(حكاية)

كان جمل وحمار يسيران معاً، فبلغا شاطىء نهر عظيم، فخاض الجمل في الماء قبل أن يفعل الحمار، وواصل السير إلى منتصف النهر، فبلغ الماء بطنه. وعندها نادى على الحمار قائلاً: أقبِل، فالماء لا يصل إلى أكثر من بطني. فردّ عليه الحمار قائلاً: الحقّ ما تقول، ولكن هناك تفاوت بين بطني وبطنك، فالماء الذي اقترب من بطنك سوف يتجاوز ظهري ويغمره.

* يا أخي، لا أحد يعرفك أكثر من نفسك،
فلا تتخطَّ قدرَك ولو بشعره واحدة.
* وإذا أخطأ ناقصُ الإدراك ووضعك في مكانة تفوق مكانتك،
فاعرف قدرك ولا تتجاوز حدّك.

(حكاية)

تقابل طاووس وغراب في فناء حديقة، وطالع كل منهما عيوب الآخر ومحاسنه، فقال الطاووس للغراب: حذاء قدمك الأحمر يليق بأطلسي الموشّى بالذهب، ويتناسب مع ديباجي المنقوش. ولا شك أننا أخطأنا في لبس حذاءينا.. بينما كنا نخرج من ليل العدم إلى نهار الوجود، فلبستُ حذاءك الجلديّ الأسود الخشن، ولبستَ حذائي الجلديّ الأحمر المعطّر.

قال الغراب: الأمر على خلاف ما تقول. فإن كان هناك خطأ فإنّه يتعلّق ببقيّة الملبوسات، فباقي ملابسك يناسب حذائي، ولهذا أُرجّح أن تكون أنت - خلال ذلك النعاس الكدر - قد نزعت رأسك من طوقي، ونزعت رأسي من طوقك...

وكانت بجوارهما سلحفاة ترقبهما، وتستمع إلى جدالهما، فأخرجت رأسها وقالت: يا صديقَيّ الحميمين وحبيبَيّ الحصيفين، أتركا المجادلات، وكفّا عن المشاحنات، فلا نتيجة لما تقولان. فالله لا يعطي كل شيء لشخص واحد، ولا يضع زمام كل ما يرتجى في يد فرد واحد. وهو سبحانه لم يختصّ شخصاً بصفة لم يختصّ بها أحداً سواه، فليفرح كل شخص بعطيّته وليسعد بما أنعم الله به عليه.

* ليس من التعقّل أن تحسد سواك، وتغار ممن عداك..
  إحذر أن تفعل هذا فتبعد عن جادة العقل والحكمة.

* طَمَعُ الناس كحسدهم، كلاهما يجلب البؤس والألم.

* فلا تجعل الطمع خلّة نفسك، وجزءاً من طبيعتك وخلقك، حتى لا تحزن وتألَم.

(حكاية)

وقع ثعلب في مخالب أحد الضباع، فأطبق عليه أسنان الطمع. فصرخ الثعلب قائلاً: يا أسد غابة القوة، ويا فهد قمّة الرفعة، إرحم عجزي وضعفي، وأبعد شكالك[4] عن قدمي. ما أنا إلّا قبضةٌ من فراء وعظام، فماذا

تجنيه من أكلي؟ وأي فائدة تعود عليك من إيذائي؟. وأكثر الثعلب من إيراد مثل هذا الكلام، وبالغ في الاستعطاف، فلم تلن للضبع قناة.

فقال الثعلب: تذكّر إذاً ما لي عليك من حقّ، فقد طلبتَ مني معاشرتك ففعلتُ وكرّرتُ فعلتي.

سمع الضبع ذلك القول الجارح فتأججت نار غضبه، وصاح قائلاً: ما هذا الهراء؟ متى حدث ذلك وأين؟. وما كاد يفتح فمه حتى ولّى الثعلب هارباً.

* إذا لم تستطع تحرير نفسك من قبضة خصمك بمعسول الكلام،
  فأطلق لسانك بالسوء في حقّه..

* إذا لم يُفلح اللينُ في فتح قفل منزلك،
  فابحث عن حجر قوي لتتمكّن من كسره.

(حكاية)

أمسك ثعلب ديكاً في السحر، فصرخ مستعطفاً: أنا مؤنس اليقظين، والمؤذّن بانتهاء ليل الساهرين، فلا تتمسكنّ بقتلي، ولا تُرِق بسيف جورك دمي.

* لماذا تعاديني بلا سبب، لماذا تصرّ على إراقة دمي.. أنا البريء؟

فقال الثعلب: لا أعتزم قتلك بتلك الطريقة، لكنّي ـ في نفس الوقت ـ لن أحجم عن قتلك، مهما كانت الأسباب، وأني لأترك لك حريّة الاختيار إكراماً لخاطرك.. فلو شئت أخذتُ روحَك بضربة من مخلبي، ولو شئت جعلتك طعامي لقمة لقمة.

* إذا باغتك الشرّير بشرّه، فاتّق شرّه بالعقل والحكمة.

* ولا تبغ الحريّة بالذلّة والضراعة، فلو اتقيت بذلك شرّه..
  ألحَقَ بك ما هو أسوأ.

الهوامش

(١) اللكلك: طائر كبير الحجم يسمى العَنَز.

(٢) يعني بالطاهر هنا الصوفيّ الذي يسعى إلى الاتّحاد مع الله.. أصل وجوده.

(٣) اقتبس الجامي هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾. (قرآن كريم: سورة الأحزاب، آية ٧٢).

والأمانة هي التكاليف والفرائض أو كلّ ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا. وسميت أمانة لأنها حقوق أودعها الله المكلّفين وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم مراعاتها والمحافظة عليها وأداءها من غير إخلال بشيء منها. (القرآن الكريم ومعه صفوة البيان جـ ٢، ١٩٢).

(٤) الشكال للدابة معروف، وجمعه شكل مثل كتاب وكتب. وشكلته شكلاً من باب قتل قيّدته بالشكال. (المصباح المنير، جـ ١ ـ ٤٣٨).


الرَّوضَةُ الثّامِنَةُ



في هبوب نسائم الملاطفات، وروائح المداعبات.. التي ترسم البسمات على براعم الشفاه، وتفتّح زهرات القلوب للحياة.

يروى عن رسول الله ـ عليه أفضل الصلاة وأكمل التحيّات ـ أنه قال: المؤمن مزّاح حلو الحديث، والمنافق فظ عبوس.

وقال أمير المؤمنين عليٌّ[1] كرّم الله وجهه: لا دنس في أن يمزح المرء بشرط ألّا يسيء أو يعمد إلى الفظاظة.

وقد قال نبيّنا عليه السلام لعجوز: لن يدخل الجنّة عجوز.

فلما انخرطت في البكاء قال: إنّ الله تعالى يمنح العجائز الشباب، ويضفي عليهن كثيراً من الجمال، ثم يدخلهن بعد ذلك الجنّة.

وقال لزوجة رجل من الأنصار: إسألي زوجك.. هل هناك بياض في عينيه. فأسرعت إليه في لهفة واضطراب، وأعادت عليه كلام رسول الله، فقال لها: صدق رسول الله، ففي عيني بياض وسواد، لكنّه ليس من السوء في شيء.

* لا تلم الموفّق الناجح إذا لجأ إلى المزاح،
  فهذا ـ في نظر العقل والدين ـ عمل مباح.
* القلب مرآة والحزن صدأها،
  ولن يزيل صدأ تلك المرآة غير المزاح[2].

(مطايبة)

كان الأصمعي[٣] يجلس يوماً إلى مائدة هارون الرشيد، فجاء ذكر الفالوذج[٤]، فقال الأصمعي: يوجد كثير من الأعراب لم يروه مطلقاً، ولم يطرق اسمه سمعهم. فقال هارون: أقم شاهداً على دعواك وإلّا فهي باطلة.

وتصادف أن خرج هارون الرشيد، والأصمعي في معيّته، فرأيا أعرابياً قد جاء لتوّه من البادية. فقال هارون للأصمعي: أحضره إلينا. فاتّجه الأصمعي إليه وقال له: أمير المؤمنين يطلبك. قال: وهل للمؤمنين أمير؟ قال الأصمعي: نعم. فقال الأعرابي: لا أصدّقك. فسبّه قائلاً: يا ابن الخاطئة. وغضب الأعرابي فأمسك بتلابيبه وأخذ يجرّه في كل اتجاه، ويكيل له السباب، وهارون لا يكفّ عن الضحك.

ثم توجّه الرجل إلى هارون وقال له: يا أمير المؤمنين ـ كزعم هذا الرجل ـ خذ حقّي منه فقد سبّني. قال هارون: أعطه درهمين.

قال الأعرابي: سبحان الله، أيسبّني وأعطيه درهمين؟ قال هارون: نعم، بهذا حَكَمْنا. عند ذلك نظر الأعرابي للأصمعيّ وقال له: يا ابن الخاطئين، سارع بإعطائي أربعة دراهم وفقاً لحكم أمير المؤمنين.. فوقع هارون على ظهره من الضحك.

وصحبهما الرجل، ودخل قصر هارون الرشيد، فلما رأى ما فيه من عَظَمة، وشهد مجلس هارون.. كبر في عينه، فتقدّم إليه وقال: السلام عليك يا الله. قال هارون: إصمت، ماذا تقول؟. قال: السلام عليك يا نبيّ الله. قال: ويحك، ماذا تقول؟، وهنا قال له الحاضرون: إنه أمير المؤمنين. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال هارون: عليك السلام. وأُعدّت المائدة وجلس الأعرابي يأكل مع الآكلين. وفي النهاية، حين أحضروا الفالوذج، قال الأصمعيّ: أرجو ألاّ يعرفه. قال هارون: إذا حدث.. أعطيتُك كيساً من الذهب. ومدّ الأعرابي يده، وأخذ في أكل الفالوذج، وقد بدا على ملامحه ما يدلّ على أنه لم يأكله قبل ذلك قطّ.

وسأل هارون الأعرابي: ما هذا الشيء؟ قال: أقسم بالله الذي كرّمك بالخلافة أني لا أعرف ما هو. وما دام الله تعالى يقول في قرآنه المجيد: «فاكهة ونخل ورّمان»[٥]، وما دام النخل بجوارنا.. فلا بد أن يكون هذا هو الرمّان. عندها قال الأصمعيّ. يا أمير المؤمنين، الآن وجب عليك أن تعطيني كيسين من الذهب لا واحداً، فهو لا يعرف الرمّان أيضاً. فأمر له هارون بكيسين وأمر بمثلهما للأعرابي.

* أتدري من هو الكريم؟ إنّه من لا تعرف خزانته القفل والإغلاق.
* وكلّ ما يواجهه سواء أكان جداً أو هزلاً..
يؤكّد كرمه وسخاءه.

(مطايبة)

كان أحد الخطباء يأكل لحم حمل مشويّ، فأقبل أعرابي إلى مجلسه وجلس معه بناء على دعوته. وأخذ الأعرابي يلتهم الطعام بشراهة، فقال له: ما الذي يدفعك إلى تمزيق الحمل على هذا النحو؟ ولماذا تلتهمه بشهيّة وكأنّ أمّه قد نطحتك؟ فقال الأعرابي: هذا مخالف للواقع، فأنت الذي تنظر إليه نظرة شفقة ورحمة، ويسوءك تمزيقه وأكله.. وكأنّ أمّه قد أرضعتك.

* يشفق الغنيّ على ماله.. فينظر إلى كلّ ما يمتلك بعين الشفقة.
* فإن تعرّض حَمَله أو تعرَّضت نعجته لأقلّ خطر..
افتداهما بأمّه العزيزة وأبيه الحبيب.
* هناك مَثَل يقول: إن يقدّم لك مُضيفك الغني خبزاً وحَمَلاً مشوياً.
* فاحرص على كسر أسنانه بأحجار الظلم والأذى..
فهذا أفضل من كسر خبزه بأسنانك.
* ولو أنك ضربته بيدك مائة ضربة على كتفه وظهره،
لكان ذلك أفضل من تنمية خاصرتيك من لحم حَمَلِه.

(مطايبة)

قيل لُبهلول. عدّ مجانين البصرة. قال: ليس هذا في مقدوري. غير أنه باستطاعتي أن أعدّ لكم العقلاء - إن شئتم - فهم قليلو العدد.

* كل عاقل له نصيب من الجنون..
* ونصيبه هذا يجعله يعيش في ظل الجنون..
بعيداً عن شمس الحادثات.

(مطايبة)

كان أحد الأدباء يكتب خطاباً لصديق له يأتمنه على أسراره. وكان إلى جواره شخص يقرأ بطرف عينه ما يكتب. ولمّا أحسّ أنه من الصعب عليه أن يكمل خطابه، كتب: لو لم يكن بجواري لص مخنّث يقرأ ما أكتب لبُحت لك بكل أسراري. فقال ذلك الشخص: سيّدي، أقسم بالله أنّي لم أطالع خطابك ولم أقرأه.

فقال الأديب: أيّها الجاهل الغبي: كيف إذاً قلت ما قلت؟.

* كلّ من يسطو على سرّ غيره ويطّلع عليه،
يجوز أن يطلق عليه اسم «لص».
* فإن طالبك بأجر لقاء عمله هذا،
فيكفيه أجراً أن تلقّبه بالمخنّث.

(حكـايـة)

غادر سكران منزله، فوقع في وسط الطريق، وأخرج ما في جوفه فلوّث فمه وشفتيه. وأخذ أحد الكلاب في لعق قيئه، فظنّه آدمياً تطوّع بتنظيفه: فقال: جعل الله تعالى أبناءك وأبناء أبنائك خَدَماً لك.

ثم رفع الكلب رِجله وبال على وجهه، فقال: بارك الله فيك يا سيّدي،

لقد جلبت ماء دافئاً لتغسل به وجهي.

* إن أجاز السكران لنفسه أن يتلوّث شاربه بالقيء الدنس.

* جاز للكلب أن يخرج من مثانته ملء إبريق من الماء الدافىء، وأن يغسل بهذا الماء شاربه الدنس.

(مطايبة)

خرج أحد القضاة من منزله يوم الجمعة، وسار على قدميه قاصداً المسجد، فقابله سكران وعرفه فقال له: أعزّك الله أيها القاضي، أيليق بك أن تسير على قدميك؟ ثم أقسم بالطلاق ليحملنّه فوق رقبته. فقال القاضي: تقدّم أيّها الملعون. ولما ركب، استدار السكران بوجهه إليه وسأله: هل أسرع أم أبطىء؟ قال القاضي: بَيْن بَيْن، فلا أريدك أن تجفل أو تنزلق، وأريدك أن تسير بجوار الجدران لتأمن مزاحمة السائرين. قال السكران: بارك الله فيك أيها القاضي، أنت تعرف أحكام الركوب جيداً.

ولما أوصل القاضي إلى المسجد، أمر هذا بحبسه، فقال معترضاً: أصلحك الله أيها القاضي، أهذا جزاء من يخلّصك من ذلّ السير، ويسمح لك بركوب جسده، ويوصلك إلى المسجد في عزّة الراكب؟. فضحك القاضي وعفا عنه.

* أيها الحكيم، إذا اعترض طريقك ثَمِل يقصد العربدة، فعامِله برفق ودهاء.

* واعلم أن شرف العاقل شعرة دقيقة.. فلا يقطعنّها بمقاومته الأغبياء.

(حكـايـة)

أودع نسّاج وديعة لدى أحد العلماء، وبعد أيام احتاجها فذهب إليه.

وكان العالم يجلس على باب قصره، وقد اعتلى مقعد التدريس. والتلاميذ يصطفّون أمامه. . فقال له النسّاج: إن بي حاجة إلى وديعتي. فقال العالم: إجلس وانتظر إلى أن أفرغ من الدرس؛ فجلس، وطالت المدّة.

وكان من عادة العالِم أن يحرّك رأسه أثناء التدريس، فتصوّر النسّاج أن التدريس ليس أكثر من تحريك الرأس، ولما كان في عجلة من أمره فقد توجّه إلى العالم وقال له: أستاذي، إنهض وأنبني عنك، وسوف أحرّك رأسي بدلاً منك إلى أن تعود. إذهب وأحضر لي وديعتي فأنا في عجلة من أمري. سمع العالِم قوله فضحك وقال:

* يباهي الفقيه في مجلس العامّة بأنه عالم بكل العلوم. .
ما ظهر منها وما بطن.

* فإذا ما سألته عن شيء، أجابك بحركة من رأسه أو إشارة بيده.

(مطايبة)

كان أحد العميان يشقّ طريقه في الظلام وقد أمسك سراجاً بيده ووضع قِدراً على كتفه. فقابله فضولي وسأله: أيها الجاهل، نهارك وليلك صنوان، والضياء والظلمة يستويان، فما فائدة هذا المصباح؟ فضحك الأعمى وقال: ليس السراج من أجلي، وإنما هو من أجل من عميت قلوبهم من الجهلاء أمثالك. . حتى لا يصطدموا بي ويكسروا قِدري.

* لا شخص يعرف حال الجاهل أفضل مما يعرفه هو،
ولو كان هذا الشخص أغزر علماً من أبي علي بن سينا(٦).

* فيا من تزهو بنِعمة البصر. . لا توجّه اللوم إلى الأعمى،
فهو يعرف أموره ويبصر شؤونه. . خيراً منك. . يقينا.

(مطايبة)

رأى عمرو بن الليث(٧) أحد جنوده يمتطي ظهر جواد هزيل. .

* أحد الخيول الهزيلة التي لا ترى منها سوى عظام جوهر تركيبها.

* حصان تجمّعت عظامه كحمار «عُزَير»[٨].. ولكن اللحمَ لم يكسُها.

* حصان أعجف، لو فتّشت عن اللحم بداخله ما وجدته.

* ولو قلّبته من رأسه إلى حافره، لن تقع يدك على غير الجلد والعظام.

فقال عمرو: لعنة الله على جنودي، فإن كلّ دينار ودرهم أعطيه لهم يسمنون به أجساد نسائهم، ويتركون مطاياهم للجوع يُذيبها.

فلمّا سمع الجندي كلامه قال له: أقسم بالله يا أمير أنك لو ألقيت نظرة على زوجتي لتأكّد لك أنها أنحف من ساق حصاني. فضحك عمرو، وأنعم عليه، وقال له: إذهب وأسمِن كلاً من ركوبتيك.

* أعطاك الله مطيّتين فضع حِملك على هذه آناً، وعلى تلك آناً آخر.

* واجعل إحداهما مطيّة ليلك والأخرى مطيّة نهارك.

(مطايبة)

في بغداد، دعا رَجُلٌ امرأة لنفسه، فطلبت منه مالاً، فقال لها: ألا يرضيك أن تحصلي على نطفة من عظيم مثلي؟ قالت: قل هذا لفتيات قم وكاشان، ولا تلجأ لفتيات بغداد بغير الدينار والدرهم.

* إذا لم تضاعف للسافل ما يطلب، فلا تنتظرنّ منه تلبية رغباتك.

* فاحلل عقدة كيسك، فالسافلة لا تحلّ رباط إزارها حباً في الله ورسوله.

(حكـاية منظومـة)

* قالت جارية لمملوكها الذي يأتيها من حيث لم يأمر الله:

* أترك فعلتك التي لا يجيزها أئمة الدين واضعي الشرع.

* قال: إصمتي، فإنّ أحد رجالنا[٩] قد رخّص لنا هذه المتعة.

* قالت: مسكين، فجاريته تسعى لغيره، وتهمله ولا تعترف برجولته.

(مطايبة)

إلتقى عالم قبيح الوجه بالفرزدق وقد اصفرّ وجهه لشدّة مرضه، فقال له: ما سبب اصفرار لونك يا فرزدق؟ قال: رأيتك فتذكّرت ذنوبي واصفرّ وجهي. قال العالم: ولم ذكرت ذنوبك حال رؤيتي؟ قال: خفت أن يعاقبني الله تعالى ويمسخني على هيئتك.

* يرى قلبي وجهك القبيح، فلا يصرّ على ذنوبه وآثامه.

* لأني أخشى أن يمسخني غضب الله على شاكلتك..
بسبب شؤم ذنوبي وعدم امتثالي لأحكامه.

(مطايبة)

يقول العالمُ نفسُه: وقفت أحادث أحد أصدقائي في الطريق، فقدمت إحدى النساء وأخذت تحملق في وجهي، فلمّا تجاوز فعلها الحدّ، قلت لأحد عبيدي: إذهب إليها وسلها عن أي شيء تبحث. فذهب وعاد وأخبرني بأن المرأة قالت له: ارتكبت عيني يوماً جُرماً عظيماً، فأردت عقابها، فلم أجد ما أعاقبها به غير النظر إلى هذا الوجه القبيح.

* بكيت وبكيت.. وملأت إنسان عيني بالدموع..
لكنّ كثرة الدمع لم تغسل إنسان عيني من الذنوب والآثام.

* ولكي أعتق إنسان عيني من عذاب يوم القيامة..
عذّبته اليوم بالنظر إلى وجهك القبيح.

(مطايبة)

يقول الجاحظ[10]: لم أخجل قط قدر خجلي يوم أخذَتني إحدى النساء برفقتها إلى دكّان صانع تماثيل، وتركتني وانصرفت. لقد تملّكتني

الحيرة لتصرّفها هذا.. مما دفعني إلى سؤال المثّال عن سبب إحضارها إياي، وتركها لي على هذا النحو، فكانت إجابته: طلَبَت مني يوماً أن أصنع لها تمثالاً على هيئة الشيطان، فقلت لها: لا أعرف شكل الشيطان، فأحضَرَتْك نموذجاً لهيئته وشكله.

* وجهك عجيب وشكلك غريب،
وليس باستطاعة أحد أن يتصوّر مخلوقاً له مثل وجهك وشكلك.
* ولا يمكن أن يُتّخذ ـ غير وجهك ـ نموذجاً لرسم صورة الشيطان.

(مطايبة)

رأى شخص رجلاً قبيح الوجه يستغفر الله عما اقترفه من ذنوب، ويطلب النجاة من نار الجحيم، فقال له: يا صديقي.. لماذا تبخل على الجحيم بهذا الوجه، ولماذا تحرمه من النار؟.

(رباعية)

* بينما لا ترى أنت وجهك،
نجده يؤثّر في نفوس الناس فيجعلهم ينفرون، ويسلب سعادتهم وراحتهم.
* ولو ألقى الناس بوجهك هذا في النار،
فلن يقع الظلم عليك.. لأنه سيقع ـ ولا شك ـ على النار.

(مطايبة)

ذهب شخص دميم إلى طبيب، وقال له: أصبت بدُمَّل على أقبح مكان.

فحدّق الطبيب في وجهه، ثم قال: كذبٌ ما تقول، فوجهك أمامي.. وليس عليه أيّ دُمّل.

* غريبٌ ألا يجيز المشرّع تعرية الأعضاء التي تحت الوسط..
وألّا يستحسن الكشف عنها وإظهارها.

* فحين يكون وجه المرء أقبح شيء في جسده..
أيّ عجب في أن يستر وجهه ويكشف عن شيء آخر؟.

(مطايبة)

رغب شخص كبير الأنف في الزواج بامرأة، فقال لها يقدّم نفسه:

إني رجل بعيد عن الخفّة والنزق، صبور على احتمال المكاره. فقالت المرأة مؤمّنة على كلامه: لو لم تكن صبوراً على احتمال المكاره ما استطعت أن تحمل أنفاً كهذا مدّة أربعين سنة.

* على عاتق الجميع من أنفك الكبير حِمْل،
فإلى متى تناشدهم أن يتحمّلوا حملك الثقيل؟.

* إنك لا تسجد كل لحظة طاعة وعبادة،
بل لتضع على الأرض أنفك.. حملك الثقيل.

(مطايبة)

رأى ظريف شخصاً قد نبت له في وجهه شعر غزير، فقال له: اقتلع هذه الشعرات قبل أن يتحوّل وجهك إلى رأس.

* إذا لم يُزل مولاي شعره عن وجهه بالملقاط كل يوم، حتى لا يسمح بنموّه.

* فلن تمضي غير أيام معدودات.. يأخذ وجهه بعدها حكم الرأس.

(مطايبة)

كان معاوية وعقيل بن أبي طالب جالِسَيْن معاً، فقال معاوية: يا أهل

الشام، هل سمعتم قوله تعالى: ﴿تبَّت يدا أبي لهب وتب﴾[11]؟. قالوا: نعم. قال: أبو لهب[12] عمّ عقيل. فقال عقيل: يا أهل الشام: هل سمعتم قوله تعالى: ﴿وامرأته حمّالة الحطب﴾[13]؟ قالوا: نعم. قال: حمّالة الحطب[14] عمّة معاوية.

* إن تك قد ابتليت بعيب، فلا تعيّر غيرك بما ابتليت به.
فالفطن الذكيّ لا يقع في خطأ كهذا.

* إنّ غيرك قد سكت عنك وتغافل عن عيبك..
فلماذا تتحدّث عن عيبك أمام صامت كهذا.

(مطايبة)

قال علوي ـ لا طيبة عنده ولا ورع ـ لخصمه: لقد اتخذتني عدواً، وأنت مأمور بأن تصلّي عليّ في كلّ صلاة، فتقول: اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد. قال الخصم: وأقول أيضاً: الطيّبين الطاهرين، وأنت خارج عن زمرتهم.

* يا من تعدّ نفسك من آل النبيّ،
ليكن شاهدك طهارة الذات وكمال الصفات.

* حين تتحدّث عن الطيّبين والطيّبات،
تذكّر صفات الطيّبين وسمات الطيّبات.

(مطايبة)

زيّن مدّعٍ نفسه في زينة العلويّين، وادّعى لنفسه نسبهم العالي.

(بيت)

* تشعّ دعواه بما يدلّ على عدم صدقه،

وعلى كتفيه ذؤابتان.. تشهدان بكذبه.

ودخل دار أحد رجال الدين، فقفز من مكانه وجعله في موضع الصدارة، وجلس هو في صفّ النعال، وأعطاه أكثر مما طلب، وشيّعه بكل فروض الأدب. ولما رأى أصحابه ذلك قالوا له: نحن نعرفه، ونعرف أنّه لا صلة له بهذا النسب، وأنّ ما يدّعيه كذب وزور.. فلا الأب ينتمي لهذه العائلة، ولا الأم إليها تنتسب.

* أمه جوّابة مدينة، شحّاذة منازل،
وأبوه صفّارى آناً، وآناً ينحت المغازل.

* الأب من قبيلة الأوباش..
والأمّ من حظيرة السِفلة الأراذل.

فعلّق المتديِّن الورع على ذلك قوله: وما فعلنا معه لا يليق بأفاضل هذه الأسرة وكبرائها، وإنما يليق بالمدّعين وعابري السبيل.

* من لا ينتمي لأسرة النبوّة.. ليس مكلّفاً بتعظيم من ينتمي إليها.

* وليس غريباً أن يخسر المرء كل ما يملك في سبيل إكرام غريب أحبّه.

(مطايبة)

كان أحد الأثرياء يتناول طعامه مع أعرابي من البادية، فوقع بصره ـ أثناء ذلك ـ على لقمته، ورأى فيها شعرة، فقال له: أيها الأعرابي، إبعد تلك الشعرة عن لقمتك. فقال الأعرابي: لا يمكنني أن آكل على مائدة شخص يدقق النظر في لقمة ضيفه.. إلى حدّ أن يرى شعرة فيها.

قال هذا، وكفّ يده عن الطعام، وأقسم ألاّ يأكل على مائدته مرة أخرى.

* الأفضل للمضيف ـ إذا مدّ خوان كرمه ـ
أن يجلس بعيداً، وألاّ يراقب ضيفه.

* وألا يتطلّع إلى ما على الخوان.. ويتابع اللقيمات بركن عينه..
ويعدّها بقلبه وعقله.

(مطايبة)

جلس جماعة من الناس يتسامرون، وتطرّق بهم الحديث إلى كمال الرجال ونقصانهم، فقال أحدهم: من لا يملك عينين مبصرتين فهو نصف رجل، ومن لا تحوي داره عروساً جميلة فهو نصف رجل، ومن لا يحسن السباحة فهو نصف رجل.

وكان في المجلس أعمى لا زوجة له ولا يحسن السباحة، فصاح قائلاً: عجيب ما تقول يا عزيزي، لقد أخرجتني ـ بقولك هذا ـ من دائرة الرجال، وهأنذا يلزمني الآن نصف رجل ليحقّ لي أن أسمّى: «لا رجل».

* لا يُنقِص قدرَ المرء ويجعله لا يرقى مراتب الرجولة..
سوى فرط الجمود، وعدم الاحتكاك والاختلاط.

* فقد تبدو منه آلاف الفضائل والمحاسن،
لكنّ قدمه لا تتجاوز إطار عدم الرجولة.. بغير الاحتكاك والاختلاط.

(مطايبة)

مثُل بهلول بين يدي هارون الرشيد، فقال أحد الوزراء: أبشر يا بهلول، فقد عيّنك أمير المؤمنين قائداً وأميراً للقردة والخنازير، قال بهلول: عليك إذاً أن تسمع قولي وتنفّذ أمري، فأنت من جملة رعاياي.

* أتبشّرني بسيادة دولة البقر والحمير..
يا من أنت زعيم رعيّة الحاكم؟.

* وتعدّ جندي طائفة من الدببة والخنازير..
وأنت أول المنتمين إلى هذه الطائفة.

(مطايبة)

مات غني إبّان حكم أحد الظالمين. فأرسل وزيره يستدعي ابنه، فلما حضر قال له: ماذا ترك أبوك؟ قال الإبن: ترك من المال كذا وكذا، ومن الوارثين الوزير الكبير أيّده الله سبحانه، وأنا.. الفقير الحقير.

فضحك الوزير، وأمر أن يقسّم الميراث إلى قسمين، وترك له نصفاً، وحمل النصف إلى الملك.

* لا يعرف الوزيرُ الظالم سوى حقّ الملك في مال اليتيم.
* فالعدل ـ في نظره ـ أن يحمل كلّ المال للملك العظيم.
* وهو صاحبُ فضلٍ.. إذا قيل قسمة المال إلى نصفين،
وهو المستحقّ للتكريم.

(مطايبة)

قيل لتركيّ: أيّهما تفضّل.. غنيمة اليوم أو جنّة الغد؟. قال: أفضّل أن أطلق يدي اليوم في الأسلاب، وأنهب كل ما يصادفني، ثم أدخل النار غداً مع فرعون.

* أما سمعت أن تركياً قال لواعظ بعد أن وصف الجنة:
أفيها غنائم وأسلاب ونهب وسطو؟.
* قال الواعظ: لا. قال التركيّ:
إنّ جنّة تقصر اليد فيها عن الغنائم والأسلاب.. أسوأ من الجحيم.

(مطايبة)

وقف شحاذ بباب قصر يطلب صدقة، فصاح سيد الدار من الداخل: معذرة، فأهل الدار ليسوا هنا. قال الشحّاذ: أريد قطعة من الخبز، ولا أريد مؤانسة أهل الدار.

* إذا وقف الشحّاذ بباب قصرك،
أعطه ما عندك. . وكفّ عن الاعتذار.

* ولكي لا يعلق شيء بفكره. . لا تذكر أمامه سيرة أهل الدار.

* إذا كان الخبز ـ في حرم السافل ـ ظاهراً بادياً للعيان.

* فإن المرء يتوقّع من منزله خبزاً أسوأ. .
إذ يتوقع من أهل الدار ما ليس في الحسبان.

(مطايبة)

مرض ابن أحد المعلّمين مرضاً أشرف معه على المـوت، فقال المعلّم: أحضروا من يقوم بغُسله. قالوا: ما زال ابنك حياً. قال: لا بأس، ففي لحظة فراغه من غُسله يكون قد مات.

* من تعجّل في أمره، وسبق ـ بحكم طبعه ـ وقتَه وزمانَه.

* أكل في الليل قوتَه الذي لم يكسبه بعد،
وخلع جوربَه قبل أن يصل إلى الماء.

(مطايبة)

قيل لابن أحد المعلّمين: يا لك من غبي أحمق. قال: لو لم أكن كذلك. . لكنت ابنَ غير أبي.

* إذا لم يشابه الإبن أباه خلقاً وجسماً
فالعيب عيب الأب، والأمر واضح وضوح النهار.

* فأُذُن البغل الطويلة فيها الدليل على أن. .
أبا البغل. . ليس الحصان بل الحِمار.

(مطايبة)

سُئِل معلّم: أأنت الأكبر أم أخوك؟ قال: أنا الأكبر، ولكن بعد مرور

عام سيكون في نفس عمري.

* لا فائدة تجنيها، فلماذا تسأل: كيف يمضي وقت فلان؟.

* إنك تحسب عمر شخصٍ ما، ألا تعلم أن عمرك وعمره معاً يمضيان؟.

(مطايبة)

أشرف مريض على الموت، وكان يجلس على حافة سريره شخص تنبعث من فمه رائحة كريهة. وكان الشخص يقترب برأسه من المريض ليلقّنه الشهادة، فيزفر في وجهه. وحاول المريض أن يشيح بوجهه فازداد الآخر إصراراً، فلما عيل صبره قال: ألا تتركني أيها العزيز أموت سعيداً طاهراً؟ أتراك تريد تلويث ميتتي بما لا يدانيه شيء في القذارة والدناسة؟.

* لا يمكن الإصغاءلكل فضوليّ، ولا يوجد في دنيانا فضلاء.

* ولا يمكن تقبّل أنفاس من تخرج من شفاهم أكره الروائح.. ريح الرياء[١٥].

(مطايبة)

قال رجل لآخر معاتباً: أيليق بك ألّا تعرفني؟، أيصحّ منك ألّا ترعى حقّي؟ فأجاب الآخر في دهشة وحيرة: لا علم لي بما تقول، ولا أفقه ما تعني.

قال الأول: كان أبي يريد الاقتران بأمّك، فلو تمّ هذا لكنّا ـ أنا وأنت ـ أخوين. فقال الثاني: والله إنه لنسب يترتّب عليه أن أرثك وترثني.

* يعتقد خامل الذكر قليل التجربة أنه من المفروض على كل إنسان.. أن يكيل له الثناء ويفرط في الإحسان.

* ولسوف يسقط في هوّة المحنة والألم.. بسبب ضيق أفقه.. إن لم يبادر إلى نبذ أفكاره السخيفة، وترك هذا اللون من الهذيان.

(مطايبة)

قيل لأحدب: أتودّ أن يقيم الله ظهرك ويجعله كظهور الآخرين، أم تودّ أن يصيّر الله ظهور الآخرين كظهرك؟. قال: أودّ أن يجعل الله كل الظهور كظهري، لأنظر إلى أصحابها نفس النظرة التي كانوا يحدّجونني بها.

* ما أجمل أن تتحرّر ـ رغم عدوّك ـ من عيب كان يعيّرك به،
ويوجّه لك بسببه الطعنات.

* لكن الأجمل من ذلك أن يبتلى بنفس عيبك..
فيتعرض للغمزات واللمزات.

(مطايبة)

دعا شخص ربه ـ بعد صلاته ـ أن يدخله الجنة وينجيه من عذاب الجحيم. وكانت خلفه عجوز، فلما سمعت دعاءه قالت: يا إلهي، إجعلني شريكاً فيما يريد.

وسمع الشخص كلامها فقال: اللّهم سلّط عليّ من يشنقني، اللّهمّ أمتني متأثّراً بضربات السياط. وعقّبت العجوز قائلة: اللهمّ قني واحمني واحفظني من الشرّ الذي يطلبه. فاستدار إليها وقال: تلك قسمة ضيزى..، أتشاركينني النعيم والراحة والسرور، ولا تشاركينني المحنة والويل والثبور؟.

* لا يُعدّ منصفاً.. ذلك الطامع الذي يشاركك ما تجد من توفيق.

* فإذا خطوت في طريق الفشل..
بعدت خطواته عن ذلك الطريق.

(مطايبة)

اشتكت زوجة إلى القاضي، وقالت في حقّ زوجها: إنه لا يتركني لحظة واحدة.. لا في الخلاء ولا بين الملأ، ولا في وقت العجن ولا في

وقت تسوية الخبز، ولا في وقت صلاتي ولا في وقت صيامي. فقال زوجها: لقد تزوّجتُكِ لهذا. قالت: أيها القاضي، استحلفك بالله أن تحدّد عدد المرّات التي يقربني فيها خلال يوم كامل.. لأعدّ نفسي لهذا الأمر. قال القاضي: عشر مرات. قالت: لا طاقة لي بذلك. قال: تسع مرات. قالت: لا أستطيع. قال: أفٍ لك، ألا تريدين أن يقضي هذا المسكين منك وطره؟ قالت الزوجة: رضيت. وقال الرجل: عيِّن أيها القاضي من يكفلها. فقالت الزوجة: ليكن قاضي المسلمين كفيلي. وصرخ القاضي: أيّتها الشقيّة، لعلك تزمعين الفرار منه، والإلقاء بي بين يديه ليفعل بي ما يفعله بك، أخرجي لعنة الله عليك.

* لا تكفل شخصاً وتتعهّد بأداء ما يجب عليه أداؤه، فتذلّ بعد عزّة.

* فلو كفل طاهرٌ غيرَ طاهرة، لأسلم نفسه عند الأداء لطالبي اللذة.

(مطايبة)

ادّعى شخص أن أحد الأذكياء الظرفاء مدين له بعشرة دراهم. فسأله القاضي: ألديك من يشهد بذلك؟. قال: لا. فقال القاضي: على المدَّعى عليه أن يُقسم. فقال المدّعِي: وما قيمة قسمه؟.

* سوف يقسم وقتما تشاء.. ألف قسم كاذب..

شأنه شأن الأعرابي الذي يشرب اللبن الحامض في الصحراء.

فقال الظريف الذكي معقّباً: يا قاضي المسلمين، في مسجد حيّنا إمام عفيف صادق طيّب الأخلاق.. هلا استدعيته ليقسم بدلاً مني، فيستريح خاطر ذلك الرجل!!.

(مطايبة)

فقد أعرابي جملاً، فأقسم أن يبيعه بدرهم واحد.. إذا ما وجده.. ووجد الجمل فندم على قسمه. وأراد أن يحتال فعلّق قطّة في رقبته، وأخذ

ينادي: من يشتري جملاً وقطّة معاً.. الجمل بدانق والقطّة بمائة درهم؟.

فاقترب منه شخص وقال له: ما كان أرخص الجمل لولا القلادة التي تحلّي عنقه.

* إذا أهداك البخيل جملاً فلا تأخذه منه،
فإن ما يفعله يخالف عادة الكرماء.

* فالقلادة التي يربطها في عنق الجمل.. كمنّةٍ..
تعادل ألف حِملٍ من أحمال الجمل، ولا مراء.

(مطايبة)

فقد أعرابي جملاً، فقال: من أحضر لي جملي.. أعطيته جملين. فقال بعض الحاضرين: ما هذا الذي تقول؟ إن حِمل جمل يفضل حِمل حمار.

وعقب الأعرابي قائلاً: سوف تلتمسون لي العذر لو ذقتم لذّة استعادة المفقود.

* مهما تفه شأن ما فقدت.. جِدّ في طلبه، ولا ترض عن ذلك بديلاً
واعلم أن البعض يؤمنون بأن لذّة إيجاد الشيء أفضل من الشيء ذاته.

(مطايبة)

لوحظ أن أحد الأطباء كان يخفي وجهه كلما مرّ بالقبور، فلما سئل عن السبب قال: إني أخجل ممن فيها من الموتى، فكل من أمرُّ بقبره قد احتمل ضرباتي، وكلّ من يقع بصري على قبره قد أهلكه دوائي.

* يا من لا تحسن تشخيص المرض،
ويواكب قدومك قدوم الموت.

* لقد رفعت مسئولية قبض الأرواح.. في مملكتنا..

عن عنق عزرائيل. . مَلَك الموت.

* يا من سوق الطب بسببك في كساد،
وآلام المرضى بفضل أياديك في ازدياد.

* لا عجب أن يعيش الغسّال وبائع الكفن وحفّار القبور
ـ بفضل جهدك ـ في أعياد.

(مطايبة)

قال أحد الحكماء: الطبيب غير البارع وباء.

* يا من تنشر الوباء بين خلق الله بنقص معلوماتك في الطبّ والعلاج.
لا عجب إذا لعنك خلق الله. . فلعنك استدعاء للوباء درءً للعلاج.

(مطايبة)

في يوم من أيام الربيع خرجت مع أصدقائي للنزهة في الصحراء، فنزلنا ببقعة بهيجة، وبسطنا سماط الغذاء. ورأى كلب بعيد مائدتنا فاقترب منّا، فالتقط أحد الأصدقاء حجراً صغيراً، وألقاه نحوه وكأنه يلقي إليه بعظمة. وشمّ الكلب الحجر ثم كرّ عائداً. ووسط عجب الأصدقاء وحيرتهم قال أحدهم: أتدرون ماذا قال الكلب لنفسه؟ قال: هؤلاء قوم تعساء، دفعهم الجوع إلى أكل الحجارة، فأيّ خير يُرتَجَى من وراء مائدتهم؟.

* بسط الغني سماطه، فنال منه القريب والبعيد دون إبطاء.

* نال القط المسكين على القرب ضربة عصاة،
ونال الكلب المسكين على البعد حجراً.

(مطايبة)

قيل لابن أحد الأثرياء: أتودّ أن يموت أبوك لترثه؟ قال: لا، إني أريده أن يُقتَل حتى آخذ ديته إلى جانب ميراثه.

* الإبن الذي يحبّ أباه من أجل ماله..
يتمنّى ذهاب أبيه وبقاء ماله.

* ومثله لا يسعده موت أبيه وانتقال ماله إليه،
وإنما يسعده أن يُقتَل أبوه، وتؤول ديته وماله إليه.

(مطايبة)

كانت جارية مليحة تعبر الطريق، فتعقّبها أحد الأشخاص، فقالت له: أتريد ما يفعله سيدي بي؟ قال: نعم. قالت: إجلس هنا فإنه قادم ورائي.

(مطايبة)

* عاد والد أحد الأطفال من سفره، فجلس الطفل أمام باب بيته.
* وكلّما مرّ شخص قال له: أعطني مالاً.. بشارة قدوم والدي.
* فقال له أحد الأذكياء: أي بني، ليس بيننا من يهتم بقدوم والدك.
* أما أمّك.. فقد جاءها زوجها، فاطلب البشارة منها وحدها.

(مطايبة)

أنشد شخص بيتاً أمام أحد الشعراء.. قد جعل القافية في أحد مصراعيه راء مهملة مضمومة، وفي الآخر زاياً معجمة مكسورة. فقال الشاعر: القافية غير سليمة، فحرف الراء غير المنقوط في موضع، وحرف الزاي المنقوط في آخر. فقال صاحب البيت: لا تنقط الزاي. قال الشاعر: والقافية مضمومة في موضع، ومكسورة في آخر. قال الناظم: أنظروا، ما أجهل هذا الرجل: أطالبه بألا ينقط فيعرب.

* سافل من لا يفرّق بين المدح والذم..
سافل من لا يعرف الفرق بين الفتح والكسر، والكسر والضم.

* كم أنا في حيرة من أمره، فهو إذا ما تحدّث عن الشعر..
لا يمكنه التفرقة بين لفظتي: شعير وشعر.

(مطايبة)

اجتمع شاعران على مائدة، ووُضِع أمامهما الفالوذج، فلما وجداه ساخناً جداً، قال أحدهما: هذا الفالوذج أشد حرارة من الحميم والغساق اللذين ستشربهما غداً في جهنم. فقال الثاني: ليتك تنشد بيتاً واحداً من شعرك، وتنفخ في هذا الفالوذج.. لترتاح ويرتاح الناس.

* يتّسم شعرك بالبرودة،
بحيث لو نقشت مصراعاً واحداً منه على باب الجحيم..

* يزيل من جهنم حرارتها،
ويجلب برودة الثلج إلى الحميم.

(مطايبة)

مدح الفرزدق خالداً والي البصرة، فلم يصله بما كان يأمل، فهجاه بهذين البيتين:

(شعر عربي)

لقد غرّني من خالدٍ باب داره ولم أدر أن اللؤم حشو إهابه
ولست وإن أخطأت في مدح خالد بأوّل إنسانٍ خرا في ثيابه

* رأيت قصراً.. أحاطت به الزينة من كل الجهات،
فأخذت أمدح صاحبه وأنعته بأجلّ الصفات.

* لكنّي أحسست أن مجرّد تفكيري في مدحه..
قد لوّث أشعاري الطاهرة وعرّضها للدناسات.

فلما وصل البيتان إلى خالد وصله بعشرة آلاف درهم، وقال له في رسالة أرسلها إليه: إغسل بهذه الدراهم علانية ما تخفي في باطنك من معاني

تنضح بالقذارة، ويتّسم بها ظاهرك.

* لا تعجب إذا ما أحسن الممدوح نيابة عن المادح. . وأحسَنَ إن أساء.

* فبِحار جُودِهِ ترشح على عجل. .
ما يغسل كلمة الذمّ من لوح خاطر المادح وصفحة قلبه، ويزيل الاستياء.

(مطايبة)

قرأ شاعر شعره على أحد الفضلاء، ولما أتمّه قال: قلته في دار الخلاء.

فقال: والله إنك لعلى حقّ، فرائحة المكان تفوح منه.

* لا تذكر المكان الذي جاء منه الشعر أيها البليغ. .
فهو إما أن يكون من بحر الكدر أو بحر الصفاء.

* ومن حيث أتى ذلك الشعر يهبّ النسيم. .
نسيمٌ يضرب صاحب الذوق على أنفه. . أنّى يشاء.

(مطايبة)

ذهب شاعر إلى طبيب، وقال له: أحسّ في قلبي عقدة تكدّر عيشي، وتجمّد أعضائي، وتوقف شعر جسدي.

وكان الطبيب ممن يتّصفون بالظرف، فقال له: هل استحدثت شعراً جديداً لم يسمعه منك أحد إلى الآن؟ قال: نعم. قال الطبيب: إقرأه. . فقرأه، فعاد وقال: إقرأ ثانية. . فقرأ. ثم قال: أعِد ما قرأت. . فأعاد. بعدها قال الطبيب: إنهض فقد نجوت. كان الشعر كالعقدة في قلبك، فسرى جفافه وركوده إلى أن سيطر على بنائك الخارجي، فلما أبعدته عن قلبك شفيت وبرئت.

* أيّ شعر هذا الذي يطلب من الشاعر أن يصنعه،
فيقول: تافه سخيف.

* أيّ شعر هذا الذي تقرأه على الدواء، فيزيل الحُمّى،
لتحلّ محلّها رِعدة الموت المخيف.

(مطايبة)

أنشد واعظ من فوق المنبر شعراً سمجاً لا يُطاق سماعه، وقال يثني عليه: والله، لقد نظمته أثناء دعائي.

ويقال إن أحد الحاضرين قد عقّب قائلاً: إن يكن ما قاله من شعر وقت دعائه غير مستساغ على هذا النحو، فكيف يكون لدعاء يتخلّله هذا الشعر مذاق وطعم؟.

* يا من تقول: بالأمس، في دعاء الليل، قلت شعراً،
كسر القَدَرُ عدداً من أبياته الغرّاء.

* لو أنك أخرجت ذلك الشعر من دبُرك،
لنقضتَ دعاءك كما تنقض وضوءك، سواء بسواء.

(مطايبة منظومة)

* قرأ شاعر غزلاً محذوف الألف.. يغصّ بالخلل.

* فقلت له: الأفضل من ذلك أن تحذف كل الحروف على عجل.

(مطايبة منظومة)

* قرأت لي بالأمس ـ في زهو ـ مطلع منظومتك..
فلم يكن ما قرأته مطلعاً، وإنما كان بحراً من الجوهر.

* فكيف تكتفي بقراءة بيتٍ واحد من منظومتك..
وكل مصراع فيها بحر قائم بذاته.. يختلف عن سائر الأبحر.

(مطايبة منظومة)

* إذا كنت لا تقرأ ولا تكتب، وتسير في نظم الشعر وفق طبعك..
في كل الأحوال..

* فكيف تعاب شاعريتّك وهي تتّفق مع طبيعة الرسالة..
في ظلّ هذه الخصال؟

خاتمة الكتاب

لقد ظننت ـ لفترة ـ أن هذا الكتاب لن ينتهي بسرعة، وأن قلمي لن يكفّ عن الحركة الآن، ولن يفرغ من موضوعه، قبل انقضاء مدّة طويلة.. لكن صدأ الملالة علق بمرآة عبقريتي، ولم يصقلها طلاء رغبة السامعين الصادقة، فرأيت أن أكتفي بهذا القدر..

* أنشر يا جامي بساط الكلام، فلا بساط أجمل منه وأفضل.
* فإن لم يجن العقل منه سروراً، فالصمت أبلغ منه وأفضل.
* وسرور عقلك لا يكفي، إن لم يواكبه سرور السامع المبجّل.

هذا، وكل ما ورد من أشعار وليد عبقرية محرر هذه الرسالة، ونتيجة أفكار راوي هذه المقالة.

* أراد الجامي أن يزيّن كتاباً لطيفاً،
  فلم يقتبس أي شيء من منشآت الآخرين.
* فلا يليق بمن يملك حانوتاً يعرض فيه بضاعته..
  أن يروّج لبضائع الآخرين.

وإني لآمل أن يغضي قرّائي الكرام عن أخطائي، وألّا يسعوا في إفشائها بلسان القدح والاعتراض.

(رباعية)

إذا وقفت على خطأ أحد معارفك، فلا تخبر به الأغراب.
فإخفاء العيوب ـ في رأي العقلاء ـ
أفضل من نشرها وكشف الحجاب.

(قطعة في تاريخ الكتاب)

* إنتهى سباق القلم وركضه في مضمار الكتاب،
وانتهت تجربة الجامي في مجال عبقريّة الكلام..

* وسيبلغ التاريخ الهجريّ التسعمائة..
بعد أن تضاف إليه ثمانية أعوام(١٦).



الهوامش

(١) علي بن أبي طالب: رابع الخلفاء الراشدين. قتل غيلة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة من رمضان، سنة أربعين. . وكانت خلافته خمس سنين إلاّ ثلاثة أشهر. (تاريخ بغداد جـ ١، ١٣٣ ـ ١٤١).

(٢) اقتبس الجامي هذا المعنى من قول الرسول الكريم: «روّحوا عن القلوب ساعة، فإنّ القلوب إذا كلّت عميت».

(٣) الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب علي بن أصمع من أهل البصرة. توفي سنة ٢١٥ هـ = ٨٣١ م، وهو أحد أئمة اللغة والأخبار. وقد قال فيه الشافعي: ما عبّر أحد من العرب بمثل عبارة الأصمعي.

وقد خلّف الأصمعي كثيراً من المصنّفات، ذكرها السيوطي في بغية الوعاة في طبقات النحاة. . . ونظم الأشعار في مدح جعفر البرمكي. ويعدّ من كبار المعلمين في القرن التاسع الهجري، وواحد من كبار العلماء الذين التقّوا بهارون الرشيد، ويؤخذ عليه أنّه كان بخيلاً. (البغية، ٣١٣، تاريخ أدبي إيران، جـ ١، ٤٠٦).

(٤) الفالوذج: نوع من الحلوى يصنع من الماء والدقيق والعسل.

(التعليق على الروضة الثامنة ـ كتاب بهارستان، الترجمة الإنجليزيّة).

(٥) قرآن كريم: سورة الرحمن، آية ٦٧.

(٦) أبو علي بن سينا: أحد كبار الكتّاب والمفكّرين الفرس، ولد في مدينة بخارى عام ٣٧٠ هـ = ١٩٨٠ م، ومات في همدان أو أصفهان عام ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م. كان نطاسياً بارعاً شهيراً وفيلسوفاً وسياسياً وشاعراً. تتلمذ في الفلسفة على تعاليم (أرسطو)، وفي الطبّ على تعاليم (بقراط) و (جالن). ولم يقتصر تأثيره في العصور الوسطى على الفكر الآسيوي بل تعدّاه إلى الفكر الأوروبي. . فأثّر فيه أبلغ تأثير.

تبلغ مؤلفاته المائة تقريباً، وهي تتناول الفقه والفلسفة والنجوم والطبّ وغيرها من العلوم. ومن أشهر كتبه كتابان هما:

أ ـ الشفاء: ويتناول بالبحث علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة والرياضيّات.

ب ـ القانون: وهو يتعلّق بالطبّ.

(تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) ١٢١ وما بعدها)؛ (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٤٢٦، ٥٤٨)؛ (التصوُّف المقارن، ١٠٣ وما بعدها).

(٧) عمرو بن الليث: أحد حكام الدولة الصفّارية، تولّى الحكم بعد أخيه يعقوب. وقعَ في أسر السامانيّين فأرسلوه إلى بغداد حيث أعدم في عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م.

(٨) عند أكثر المفسّرين أنَّ عُزيراً ـ الذي زعم بعض اليهود أنّه ابن الله ـ هو النبي أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة.. وقد أحيا الله حماره أمام عينيه. وفي ذلك نزلت الآية: ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها...﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٥٩). (القرآن وصفوة البيان جـ ١، ٤٤، ٨٥، ٨٦).

(٩) تعمّدت عدم إثبات اسم هذا الفقيه وكل ما يشير إليه احتراماً لشخصه وإجلالاً لمقامه. وقد لاحظت أن الجامي يتعمّد مهاجمة رجال السنّة ورجال الشيعة ليخفي اتّجاهه وانتماءه، وليظلّ الناس في حيرة من أمر تسنّنه أو تشيّعه.

(١٠) الجاحظ: هو عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ لجحوظ عينيه. عالم أديب كثير التأليف. من مؤلفاته الشهيرة: البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان. توفي عام ٨٦٩ م. (تاريخ أدبي إيران جـ ١، ٢٥، ٥١٥، ٥١٦).

(١١) قرآن كريم: سورة المسد، الآية ١.

(١٢) أبو لهب: عبد العزّى بن عبد المطلب، وذكر بكنيته لاشتهاره بها، أو لكراهة ذكر اسمه القبيح في التنزيل. وقد كان شديد المعاداة والمناصبة له عليه السلام. (القرآن وصفوة البيان، جـ ٢، ٥٧٦).

(١٣) قرآن كريم: سورة المسد، الآية ١.

(١٤) حمّالة الحطب: أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب. كانت شديدة العداوة لرسول الله تحمل بنفسها حزم الشوك وتلقيه بطريقه. (صفوة البيان جـ ٢، ٥٧٧).

(١٥) الرياء: من أخلاق الصوفيّة كراهيتهم لدخول الرياء في علمهم أو عملهم. يقول أبو عبدالله الإنطاقي: إذا كان يوم القيامة قال الله للمرائي: خذ ثواب عملك ممن كنت ترائيه. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّه عليه السلام قال: لمّا خلق الله عزّ وجل جنّة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون (ثلاثاً)، ثم قالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي. (تنبيه المغتربين، ١٧ وما بعدها).

(١٦) يقصد سنة ٨٩٢ هجرية.

شخصيات كتاب الربيع
(بهارستان)

أ ـ الصوفية .

ب ـ الشعراء .



أ ـ الشخصيّات الصوفيّة[1]

١ ـ «أبو القاسم الجنيد»

الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزّاز. سُمّي أبوه بالقواريري لبيعه الزجاج. أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق. كان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وإليه يرجع مذهبه الصوفيّ. وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو في سنّ العشرين.

صحب خاله السري السقطي وبه تخرّج، وإليه انتمى، وبه انتفع، وعنه أخذ، وصحب الحرث المجلسي ومحمد علي القصّاب، ولقي الأعوان من الشيوخ. واتّفق العلماء على أن طريقته طريقة متّبعة، ومذهبه مذهب سالم، وأوجبوا الاقتداء به، وقالوا في حقّه: كان أوحد أهل زمانه في الورع والزهد والأحوال السَنيَّة وسائر مقامات الطريق. وهو أول من تكلّم في التوحيد ببغداد، وإليه انتمى أكثر المشايخ، وأسند الحديث.

وقد رزق الجنيد من القبول وصواب القول ما لم يقع لغيره، بحيث كان إذا مرّ بشارع بغداد وقف له الناس صفوفاً كالملوك.. ولم ير في عصره من اجتمع له علم وحال غيره. وكنتَ إذا رأيتَ علمه رجّحته على حاله، وإذا رأيتَ حاله رجّحته على علمه.

---

(١) رتّبتُ الشخصيّات هنا وفق ترتيبها عند الجامي، أي وفق أولوية ورودها في الروضة الأولى.

ظلّ عشرين عاماً لا يأكل إلاّ من الأسبوع للأسبوع، ويصلّي ثلثمائة ركعة في اليوم. وكان الكتبة يجالسونه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقّة نظره، والمتكلّمون لتحقيقه. والصوفيّة لإشاراته وحقائقه.

توفيّ ببغداد وبها مزاره، وذلك في عام (٢٩٨هـ - ٩١١م) أو العام السابق عليه، وقد حضر الصلاة عليه ستون ألفاً. وقد أوصى عند وفاته بأن يدفن معه كل ما ينسب إليه من عمل، حتى لا يَلقى ربّه وقد ترك شيئاً منسوباً إليه، بينما عِلْم الرسول عليه السلام بين أظهر الناس. وقد طلب منه عند النزع أن يقول: لا إلَه إلاّ الله. فقال: ما نسيته فأذكره. وظلّ يتلو القرآن ويركع ويسجد إلى أن مات.

قيل له: ما بال أصحابك لا يطربون لسماع القرآن؟.

قال: القرآن حقّ نزل من عند حقّ، لا يليق بصفات الخلق، عند كلّ حرف منه على الخلق واجب لا يخرجهم منه إلاّ الوفاء لله عزّ وجلّ به، فإذا سمعوه في الآخرة من قائله أطربهم.

قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والغناء فيطربون؟.

قال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنّه كلام المحبّين.

ومن أقواله:

أ - إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعِلم وابدأه بالرفق، فالعلم يوحشه والرفق يؤنسه.

ب - التصوّف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة.

جـ - ما أخذنا التصوّف من القيل والقال، بل من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف.

د - أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب.

انظر:

روضة الناظرين /٩ - ١١؛ الأنوار القدسيّة /٥٥؛ طبقات الصوفيّة / ط ٢

ـ الشخصية الأولى؛ حلية الأولياء جـ ١٠/٢٥٥ ـ ٢٨٧؛ صفة الصفوة جـ ٢/٢٣٥ ـ ٢٤٠؛ طبقات الشعراني جـ ٢/٩٨ ـ ١٠١؛ الرسالة القشيّرية /٢٤؛ مرآة الجنان جـ ٢/٢٣١ ـ ٢٣٦؛ المنتظم جـ ٦/١٠٥؛ وفيات الأعيان جـ ١/١٤٦؛ طبقات الشافعية جـ ٢/٢٨ ـ ٣٧؛ تاريخ بغداد جـ ٧/٢٤١ ـ ٢٤٩؛ دائرة معارف البستاني جـ ٦/٥٦٧؛ البداية والنهاية جـ ١١/١١٣؛ الأنساب /٤٦٤.

٢ ـ «عبد الله الأنصاري»

هروي من سلالة أبي أيوب العربيّة، ولد في عام (٣٩٨هـ ـ ١٠٠٦م)، واشتهر برباعيّاته. وقد ألّف كتابَي: منازل السائرين ومناجات نامه. وتنسب إليه الكتب: نصيحت، والهي نامه، وزاد العارفين، وكتاب أسرار، وأنيس المريدين وشمس المجالس. كما وضع تهذيباً لطبقات الصوفيّة. وقد طُبع كتاب مناجات نامه في طهران وظهر بعنوان أنوار التحقيق، كما طبع في شيراز. أما أنيس المريدين وشمس المجالس فإنه يروي قصة يوسف وزليخا نثراً.

ويعتبر الأنصاري أول من استعمل النثر المسجوع في الفارسيّة، وله قدرة على التأليف باللغتين: العربيّة والفارسيّة. وقد توفي عام (٤٨١هـ ـ ١٠٨٨م).

انظـر:

تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة) /٣٦٦، ٣٣٨.

٣ ـ «السري السقطي»

السري بن المغلس السقطي، كنيته أبو الحسن. إمام انتهت إليه مشيخة الصوفيّة، وتفجّرت عيون موارده في المعارف الإلّهيّة، وعظمة الملوك والقادة والكتّاب. أخذ عن الكرخي وغيره، وأسند الحديث. كان ورعاً زاهداً ذا أحوال ومقامات. ظل ستين سنة ينام جالساً منحنياً. وكان مستجاب الدعوة.

توفي عام (٢٥١ هـ ـ ٨٦٥ م) أو (٢٥٣ هـ ـ ٨٦٧ م) أو (٢٥٧ هـ ـ

٨٧١ م) ويرجّح الكثيرون التاريخ الأول. وقد دفن في المقبرة الشونيزية في بغداد حيث مات، وينسب إليه العديد من الكرامات.

ومن أقـوالـه:

أ ـ إياكم ومجاورة الأغنياء، وقرّاء الأسواق، والأمراء.. فإنّهم يفسدون كلّ من جالسهم.

ب ـ لا تصحّ المحبّة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا.

ومما كان ينشده:

لا في النهار ولا في الليل لي فرج   فلا أبـالي أطال الليل أم قصرا
لأنني طول ليلي هائم دنف   وبالنهار أعاني الهمّ والفكرا

انظـر:

الأنوار القدسية /٤٢ـ٤٥؛ روضة الناظرين /٨؛ طبقات السلمي /ط ١ ص ٥؛ حلية الأولياء جـ ١٠/ ص ١١٦ ـ ١٢٦؛ طبقات الشعراني جـ ١/ ٨٦ ـ ٨٧؛ الرسالة القشيّرية /١٢؛ وفيات الأعيان جـ ١ /٢٥١؛ البداية والنهاية جـ ١١/١٣؛ تذكرة الأولياء /٢٧٤ ـ ٢٨٤؛ صفة الصفوة جـ ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٨؛ مرآة الجنان جـ ٢/ ١٢٨ ـ ١٥٩.

٤ ـ «الحسين بن منصور الحلاج»

أبو مغيث الحسين بن منصور الحلّاج من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط العراق. رفض معظم المشايخ الاعتراف بتصوّفه، وأثنى عليه بعضهم واعترفوا به محققاً، حتى قال محمد بن خفيف في حقّه: الحسين بن منصور عالِم ربّاني.

قُتل ببغداد في باب الطاق في خلافة جعفر بن المعتضد، وقُطعت يداه ورجلاه قبل أن يحزّ رأسه ويُحرق بالنار. ويقال إنه لم يثبت عليه ما يوجب قتله. وتاريخ قتله هو الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلثمائة.

سئل عن التصوّف وهو مصلوب فقال للسائل: أهونه ما ترى. وكان يتبختر في قيده وهو في طريقه ليُقتَل، ويقول:

حسْب الواحد إفراد الواحد له. ويقول:

نـديمي غيـر منـسـوب إلـى شيء مـن الـحـيـف
سقـاني مثل مـا يشـرب كفعـل الضيف بـالضيف
فـلمّـا دارت الـكـاس دعـا بـالـنـطع والـسـيـف
كـذا مـن يـشـرب الـراح مـع التـنّين بـالـصيـف

ومن أقـوالـه:

أ - المريد هو الرامي بقصده إلى الله عزّ وجلّ فلا يعرج حتى يصل.

ب - لما كان الله تعالى قد أوجد الأجسام بلا علّة، كذلك أوجد فيها صفاتها بلا علّة، وكما لا يملك العبد أصل فعله، كذلك لا يملك فعله.

انـظـر:

وفيات الأعيان جـ ١/ ص ١٨٣ - ١٩٠؛ طبقات السلمي - الطبقة الثالثة؛ اللباب جـ١ /٣٣٠؛ شذرات الذهب جـ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٧؛ المختصر في أخبار البشر جـ ٢/ ٧٠،

Luis Massignon: La Passion d'Al Husayn ibn Hallaj. Paris, 1922.

٥ - «أبو هاشم الصوفي»

ولد في الكوفة، وعاش معظم حياته في سوريا. وهو يعتبر أول شخص يطلق عليه لفظ (صوفي).

انـظـر:

عوارف المعارف /٤٨؛ نفحات الأنس /٣٤؛ تاريخ أدبي إيران (ترجمة علي باشا) جـ ١/ ٤٤٥.

٦ - «ذو النون المصري»

لقبه: ذو النون، واسمه أبو الفيض أو ثوبان بن إبراهيم، كان أبوه نوبياً. أسند ذو النون الحديث، وكان صاحب كرامات، فيقال إنه حين توفي بالجيزة رأى الناس طيوراً خضراء ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره.

وكانت وفاته سنة (٢٤٥هـ ـ ٨٥٩م) أو (٢٤٨هـ ـ ٨٦٢م).

ومن أقـوالـه:

أ ـ كن عارفاً خائفاً ولا تكن عارفاً واصفاً.

ب ـ سيأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الأولى)؛ حلية الأولياء جـ٩/٣٣١ ـ ٣٩٥ جـ١٠/٣؛ طبقات الشعراني جـ١/٨١ ـ ٨٤؛ صفة الصفوة جـ٤/٢٨٧ ـ ٢٩٣؛ شذرات الذهب جـ٢/١٠٧؛ تذكرة الأولياء، الباب ١٣/١١٤ ـ ١٣٤.

٧ ـ «الفضيل بن عياض»

أبو علي الفضيل بن عيّاض بن مسعود بشر التميمي اليربوعي. ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد في خراسان في قرية تدعى فندين. كان يكدّ ويكدح لينفق على نفسه وعياله. وقد أسند الحديث. توفي في شهر المحرم من عام (١٨٧هـ ـ ٨٠٣م).

ومن أقـوالـه:

أ ـ من أحبّ أن يسمع كلامه إذا تكلم فليس بزاهد.

ب ـ عدو يغتابك أنفع لك من صديق، فكلّما اغتابك كانت لك حسناته.

جـ ـ أصل الزهد الرضا عن الله تعالى.

د ـ لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له إلى مخلوقٍ حاجة. . ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة /الطبقة الأولى؛ الرسالة القشيريّة/١١؛ ميزان الاعتدال جـ٢/٣٣٤؛ تهذيب التهذيب جـ٨/٢٩٤ ـ ٢٩٧؛ تذكرة الأولياء ـ الباب ٩/٧٤ ـ ٨٥.

٨ ـ «معروف الكرخي»

أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، من كرخ بغداد. وهو مولى

علي بن موسى الرضا رضي الله عنه. من أجلّة المشايخ وقدمائهم، وقد اشتهر بالزهد والورع والتقوى. اعترف له المشايخ بأنّه لم يكن هناك في العراق من يفضله في تربية المريدين. تتلمذ السري السقطي عليه، وكان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه. وقد صحب داود الطائي رضي الله عنه.

مات في بغداد ودفن بها عام (٢٠١ هـ - ٨١٦ م) أو (٢٠٠ هـ - ٨١٥ م). ويقال إنه قُتِل حين ازدحم الشيعة على باب علي بن موسى فكسروا أضلعه. وقبره ترياق مُجرَّب.. كما يقول البغداديون. أسند الحديث، وأبدى من الكرامات ما جعل الناس تروي عنه الخوارق.

كان في صغره يصلّي بالصبيان، ويعرض الإسلام على أبويه النصرانيين فيضحكان منه. وأسلماه للمعلّم في طفولته، فطلب منه أن يقول ثالث ثلاثة، فرفض وقال: بل الله واحد، فضربه بقسوة، فهرب، وأسلم على يد علي بن موسى الرضا.

ومن أقواله:

أ - إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل.

ب - التصوّف الأخذ بالحقائق، واليأس مما بأيدي الخلائق.

جـ - كلام الرجل فيما لا يعنيه مقت من الله.

انظر:

الأنوار القدسيّة / ٤٠ - ٤٢؛ طبقات الصوفيّة / الطبقة الأولى؛ الطبقات الكبرى جـ ١ / ٨٤؛ تاريخ بغداد جـ ١٣ / ١٩٩ - ٢٠٩؛ تذكرة الأولياء - الباب ٢٩ / ٢٦٩ - ٢٧٤.

٩ - «أبو يزيد البسطامي»

أبو يزيد طيفور بن عيسى آدم بن سروشان. من مواليد بسطام من أعمال قومس، أوّل بلاد خراسان من جهة العراق. ولد عام (١٨٨هـ - ٨٠٤م)، وكان جدّه مجوسياً فأسلم. ولأبي يزيد أخوان يماثلانه

زهداً، وهو أويسيّ التربية، ربّته روحانيّة سيّدنا جعفر الصادق، فكلّ من ربّته روح أحد السادات يقال له: (أويسي). . نسبة لأويس القرني، سيّد التابعين الذي ربّته روحانيّة سيّد العالمين بالخصوص.

لشدّة ورعه وتقاه وزهده وكثرة علمه ووجده أسماه الخوافي: سلطان العارفين، وأسماه الشيخ محيي الدين: أبا يزيد الأكبر. ويقال إنه كان إذا ذكر الله يبول ـ من خوفه ـ دماً.

حفظ القرآن، وأسند الحديث، وعُدّ القطب الغوث في زمانه. والتقى بالشقيق البلخي، وكان قريناً لابن جعفر الحدّاد ويحيى بن معاذ. وقد نفاه أهل بلده سبع مرّات لأنه تكلّم في علوم الحقائق على نحو غير مفهوم. وقد رموه بالعظائم فلما نزل بهم البلاء أجمعوا على تعظيمه.

وهذه بعض أفعاله وأقواله، وقد كان بعضها سبباً في غضب الكثيرين منه، كما رأى البعض أنه قالها في حالة سكره:

أ ـ دق رجل بابه، فقال: من تطلب؟ قال: أبا يزيد. فقال: ليس في البيت غير الله.

ب ـ قال لرجل: من تطلب؟ قال: أبا يزيد. فقال: يا بني، أبو يزيد فقد نفسه في حبّ الله، فصار يطلبها مع الطالبين.

جـ ـ قال: إني لا أريد من الله إلّا الله.

د ـ قال: قلت يوماً سبحان الله، فناداني الحق في سرّي: هل فيّ عيب تنزهني عنه؟

فقلت: لا يا رب. قال: فنفسك نزّه عن ارتكاب الرذائل.

فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزّهَت عن الرذائل وتحلَّت بالفضائل، فصرت أقول: سبحاني ما أعظم شاني، من باب التحدّث بالنعمة.

هـ ـ قرىء عليه ﴿إن بطش ربك لشديد﴾، فقال: بطشي أشد.

وممّا قاله:

أريدك لا أريدك للثواب ولكنّي أريدك للعقاب . .
وكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

وقد مات أبو يزيد عام ٢٦١هـ أو (٢٣٤هـ ـ ٨٤٨م) أو (٢٦٤هـ ـ ٨٧٨م) عن ثلاث وسبعين سنة، وله مدافن عديدة في أكثر من مكان.

انظر:

رشحات عين الحياة (ترجمة) /٢٤؛ المواهب السرمديّة /٤٥ ـ ٤٦؛ ميزان الاعتدال جـ ٤٨١/١؛ طبقات الصوفيّة (الطبقة الأولى)؛ تذكرة الأولياء، الباب ١٣٤/١٤ ـ ١٧٩.

١٠ ـ «أبو بكر الشبلي»

اسمه جعفر بن يونس. خراسانيّ الأصل، وُلِد في بغداد. صحب الجنيد، وتاب في مجلس خير النسّاج، وفاق أهل عصره علماً وحالاً وظرفاً. تفقّه على مذهب مالك، وكتب الحديث ورواه. كان أبوه حاجب حجّاب المتوكّل العباسيّ، أما هو فقد وَلِي بعض الولايات.

كان إذا طرقه الوله غاب عن وعيه إلّا في أوقات الصلاة. وكانت مجاهداته تفوق الحدّ، فقد اكتحل بالملح، والميل المحمّي ليعتاد السهر، أما كراماته فقد تجاوزت الحصر.

توفي في بغداد عام أربع وثلاثين وثلثمائة عن سبع وثمانين سنة، ومزاره في الخيزران.

ومن أقواله:

أ ـ الصبر يحمد في المواطن كلها إلّا عليك فإنه لا يحمد

ب ـ الحرّية هي حريّة القلب لا غير.

جـ ـ المعرفة أوّلها الله وآخرها ما لا نهاية له.

والوفاء هو الإخلاص بالنطق واستغراق السرائر بالصدق.

والزهد هو تحويل القلب من الأشياء إلى ربّ الأشياء.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الرابعة)؛ نتائج الأفكار القدسية جـ ١ /١٨٧ ـ ١٨٩؛ اللبـاب جـ ٢/ ١٠؛ معجم البلدان جـ ٣/١٦٩ ـ ٢٥٦؛ جـ ٤/ ٢٠٢؛ الديباج المذهّب/١٦٦؛ الأعلام جـ ١/ ٣١٠؛ الكامل جـ ٨/ ٣٥٠؛ المنتظم جـ ٦/ ٣٤٧؛ هديّة الأحباب/ ١٤٠؛ نشوار المحاضرة/١٧٢.

١١ ـ «سهل بن عبد الله التستري»

سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع، وكنيته أبو محمد. إمام عالم متكلّم في علوم الرياضيّات والإخلاص وعيوب الأفعال، لا نظير له في المعاملات والورع. حفظ القرآن في السادسة أو السابعة من عمره. توجّه في سن الثانية عشر إلى عبادان، وأقام مدّة عند أبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني فانتفع بكلامه وتأدّب بآدابه، وعاد إلى تستر فصار يطوي ثلاث ليال ويفطر ليلة، ثم خمساً ثم سبعاً ثم خمساً وعشرين ليلة، واستمرّ على ذلك عشرين سنة. وكان ما يشتريه من الشعير بدرهم يكفيه سنة كاملة. ثم أخذ يضرب في الأرض سنين عددا قبل أن يعود ثانية إلى تستر.

صحب خالداً ومحمد بن سوار، وشاهد ذا النون المصري عند خروجه إلى مكة للحج عام (٢٧٣هـ ـ ٨٨٦م)، وقد أسند الحديث. وكانت وفاته عام (٢٧٣هـ ـ ٨٨٦م) أو (٢٨٣هـ ـ ٨٩٦م) أو (٢٩٣هـ ـ ٩٠٦م).

ومن أقـوالـه:

أ ـ الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا انتبهوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة.

ب ـ يلزم الصوفي ثلاثة أشياء: حفظ سِرّه، وصيانةِ فقره، وأداء فرضه.

انـظـر:

شذرات الذهب جـ ٢/١٨٢ ـ ١٨٤؛ اللباب جـ ١/١٧٦؛ تاريخ الإسلام جـ ١٦/ ٦٢؛ تذكرة الأولياء ـ الباب ٢٨/ ٢٥١ ـ ٢٦٨.

١٢ ـ «أبو سعيد الخرّاز»

أحمدُ بن عيسى، من أهالي بغداد. إمام وشيخ جليل. أول من تكلّم في عِلم الفناء والبقاء. صحب ذا النون والنباجي والسقطي وبشراً الحافي وقد أسند الحديث.

مات عام (٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م) أو (٢٧٧هـ ـ ٨٩٠م) والتاريخ الأول هو الأرجح.

من أقـوالـه:

أ ـ صحِبْتُ الصوفية ما صحبت فما وقع بيني وبينهم خلاف، لأنّي كنت معهم على نفسي.

ب ـ كلّ باطن يخالف ظاهراً فهو باطل.

جـ ـ العارف يستعين بكلّ شيء، فإذا وصل استغنى بالله، وارتفعت همّته عن الوقوف عمّا سواه، وافتقر الناس إليه.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الثانية)؛ حلية الأولياء جـ ١/٢٤٦ ـ ٢٤٩؛ مرآة الجنان جـ ٢/٢١٣ ـ ٢١٤؛ نتائج الأفكار القدسيّة جـ ١/١٦٧ ـ ١٦٩؛ المنتظم جـ ٥/١٠٥.

١٣ ـ «أبو الحسن النوري»

أحمد (أو محمد) بن محمد. بغدادي من قرية بغشورا. ولذا يعرف بابن البغوي. شيخ وعالم جليل، حسن الطريقة لطيف الكلام، كبير الشأن، حسن المعاملة واللسان. وقد أسند الحديث.

كان يتصدّق بخبزه ـ في بداية حاله ـ ويصوم، وقد بقي على ذلك عشرين سنة. وكان إذا دخل مسجد الشونيزية انقطع ضوء السراج من ضياء وجهه. فلذا سمّي النوري. وكان إذا حضر مع الصوفية لا تؤذيهم البراغيث.

مرّت عليه أدنان من الخمر فكسرها، فسأله المعتضد هازئاً: من أنت؟ قال: محتسب. فقال: من ولّاك الحِسبة؟ قال: الذي ولّاك الخلافة؛ فأغلظ

عليه القول، فترك بغداد إلى البصرة، وعاد إليها بعد وفاة الخليفة. وكانت وفاة النوري في عام (٢٩٥هـ ـ ٩٠٨م).

صحب السقطي ومحمداً بن القصّاب، وكان من أقران الجنيد، ورأى أحمد بن الحواري. وقد امتدحه الجنيد بقوله: مُذ مات لم يخبر عن حقيقة الصدق. وامتدحه المغازلي بقوله: ما رأيت أعبد من النوري، قيل: ولا الجنيد؟. قال: ولا الجنيد.

ومن أقـوالـه:

أ ـ ليس التصوّف رسوماً ولا علوماً وإنما هو أخلاق.

ب ـ أعزّ الأشياء في زماننا هذا شيئان: عالِم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة.

انـظـر:

صفة الصفوة جـ ٢/٢٩٤؛ تاريخ بغداد جـ ٥/١٣٥ ـ ١٣٦؛ الرسالة القشيريّة /٢٣ ـ ٢٤؛ طبقات الصوفيّة (الطبقة الثامنة).

١٤ ـ «أبو بكر الواسطي»

محمد بن موسى، خراسانيّ من فرغانة، ولذا يعرف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد والنوري، ومن علماء مشايخ القوم، وأفضل من تكلّم في أصول التصوّف. كان عالماً بالأصول وعلوم الظاهر.

خرج من العراق شاباً، ودخل خراسان، واستوطن كورة مرو، ومات بها بعد العشرين وثلثمائة.

ومن أقـوالـه:

أ ـ الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب.

ب ـ ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحكام ذوي المروءة.

جـ ـ شاهِد بمشاهدة الحق إياك، ولا تشهد بمشاهدتك له.

انـظـر:

طبقات الشعراني/٨٥؛ الرسالة القشيريّة/٣٢؛ طبقات الصوفيّة (الطبقة الثالثة)؛ معجم البلدان جـ٣/٨٧٩ (فرغانة: كورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان).

١٥ ـ «أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي»

أوحد فتيان خراسان، ومن أعلم مشايخ وقته بعلم التوحيد وعلوم المعاملات، وأحسنهم طريقة في الفتوّة والتجريد. كان ذا خلق، متديّناً، متعهّداً للفقراء، وقد أسند الحديث. لقي أبا عثمان، وصحب ـ بالعراق ـ ابن عطاء والجريري، وبالشام طاهراً وأبا عمرو والدمشقي، وتكلّم مع الشبلي في بعض المسائل. وكانت وفاته في عام (٣٤٨هـ ـ ٩٥٩م).

أ ـ أول الإيمان منوط بآخره.

ب ـ ليس في الدنيا أسمج من محب لسبب أو عوض.

جـ ـ المروءة: ترك استعمال ما هو محرّم عليك مع الكرام الكاتبين.

د ـ السنّة: البيعة تحت الشجرة وما وافق ذلك من الأفعال والأقوال.

هـ ـ الفتوّة: حسن المراعاة ودوام المراقبة، وألاّ ترى من نفسك ظاهراً يخالف باطنك.

و ـ التصوّف: إسم ولا حقيقة، وقد كان قَبْلُ حقيقة ولا إسم.

ز ـ الظريف: الخفيف في ذاته وأخلاقه وأفعاله وشمائله من غير تكليف.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الخامسة)؛ الرسالة القشيرية /٣٧؛ النجوم الزاهرة جـ٣/٣٢٠؛ المنتظم جـ٦/٣٩١؛ اللباب جـ١/١٥٣. (بوشنج وتعريبها فوشنج: بلدة على سبع فراسخ من هراة).

١٦ ـ «أبو علي الدقّاق»

الأستاذ الشهيد لسان وقته وأوحد عصره. إسمه الحسن بن علي، كان معاصراً للقشيري لكنّه لم يلتق به.

من أقـوالـه:

الوقت ما أنت فيه: إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.

انـظـر:

الرسالة القشيريّة /٣٥ ـ ٣٧.

١٧ ـ «أبو الحسن الخرقاني»

علي بن جعفر، ينسب إلى خرقان (قرية من قرى بسطام). كان غوث وقته وفريداً في مقاماته ونعته. وكان قِبلة الطالبين بعد وفاة القصّاب الذي بشّر به.

أويسيّ التربية ربّته روحانية أبي يزيد البسطامي الذي بشّر به وقال إنه سيكون من مريديه، ويأخذ الطريق من مرقده الشريف.. وقد كان.. فقد ذهب إلى تربة أبي يزيد، وصار يمرّغ وجهه بمبارك ترابه، ويتلقّى منه العلوم والمعارف الإلّهيّة. وقد ذكر صاحب المواهب السرمديّة في تفسير ذلك أن روح الحيّ الذي هو في دار الدنيا تتّصل بروح من هو في البرزخ اتّصالاً كيفياً، ويقع التخاطب الروحانيّ بين المفيد والمستفيد، ويخلق الله عزّ وجلّ للروح المستفيدة عِلماً ضرورياً بما تلقيه الروح المفيدة. هـذا إذا كان المستفيد تامّ الصفاء، وإلاّ نزلت روح المفيد إلى صورة مثاليّة، وتقع حينئذ الإفادة والاستفادة بتخاطب جسمانيّ.

وممن أخذ عنه شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري.. الذي قال في مدحه: مشايخي في علم الحديث والشريعة كثيرون، وأما شيخي في الطريقة فالشيخ أبو الحسن الخرقاني، ولولا أني رأيته ما عرفت الحقيقة.

وقد تُوفِيَ أبو الحسن عام (٤٢٥هـ ـ ١٠٣٤م).

ومن أقـوالـه:

أ ـ الصدق هو التكلّم بما في الضمير.
ب ـ لا تصحب شخصاً إذا ذكرت الله يذكر غيره.
جـ ـ كل شيء يطلب العبد به الله فالقرآن أحسن منه، فلا تطلب الله إلّا به.
د ـ لا يكون الصوفيّ بالسجّادة والمرقّع، ولا بالعادة والرسوم.. بل الصوفيّ هو المحوى الذي لا وجود له.

انظر:

رشحات عين الحياة (ترجمة) /١٤ ـ ١٥؛ الأنوار القدسيّة /١٠٥ ـ ١٠٧؛ المواهب السرمديّة /٦٤ ـ ٦٨.

١٨ ـ «أبو سعيد بن أبي الخير»

ولد في قرية مهنة بخاوران عام (٣٥٧هـ ـ ٩٦٧م)، وهو أوّل من أبدع الشعر الصوفيّ، وأوّل من روّج الرباعيّات وعبّر بها عن أفكاره الدينيّة والصوفيّة والفلسفيّة، وجعلها مصدراً لجميع التجليّات الصوفيّة. كما يعتبر أوّل من أضفى على الرموز والتعبيرات الصوفيّة ما لها من جمال وخيال.

وقد سجّل المؤرّخون والباحثون عديداً من أقواله وحكاياته. ومن أهم المصادر التي تحدّثت عنه ـ واعتمد عليها العطّار وجامي وغيرهما من كتّاب ـ كتاب اسمه: (أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد). وهو كتاب مطوّل يقع في ٤٨٥ صفحة، كتبه محمد بن المنوّر ـ حفيد أبي سعيد ـ فيما بين عامي ١١٥٧ و١٢٠٣م. ويعتبر الكتاب أيضاً من أقدم الرسائل التي كتبت عن تراجم الأولياء، وصوّرت حياة الدراويش في ذلك العصر.

ومن الرسائل والكتب الهامّة التي نقلت الكثير من أخباره:

١ ـ «رسالة حورائية» لأبي عبد الله بن محمود الشاشي، وقد فسّر فيه إحدى رباعيّات أبي سعيد.
٢ ـ حالات وسخنان شيخ أبي سعيد لأحد أحفاده.
٣ ـ هفت إقليم.

٤ ـ تاريخ گزيده لحمد الله مستوفى القزويني.
٥ ـ نفحات الأنس للجامي.

وكانت حياة أبي سعيد خالية من الأحداث. ويقال إنه اجتمع بابن سينا، وأنه كان يناقضه في كثير من المسائل الدينية، ويكرهه إلى حدّ كبير. وقد أمضى حياته ـ كما يقول الصوفيّة ـ في عالم الأرواح لا عالم الأشباح.. وهو لهذا يختلف عن الكثيرين من الشعراء.

ومن المستشرقين الذين اهتمّوا بنشر آثار تتعلّق بأبي سعيد وحياته جوكوفسكي وإتيه. وقد نشر الأخير رباعيّاته وأثبت أن جميع خصائص التصوّف الفارسيّ والتعابير الصوفيّة تبدو مجتمعة في هذه الرباعيّات لأول مرة.

توفي أبو سعيد عام (٤٤٠هـ ـ ١٠٤٩م)، وقد نقشوا على قبره بيتين باللغة العربية، هما:

سألتك بل أوصيك إن متّ فاكتبي ... على لوح قبري كان هذا متيّماً
لعل شجياً عارفاً سنن الهوى ... يمرّ على قبر الغريب مسلّماً

انظر:

أخلاق جلالي /٢٨؛ تاريخ الأدب في إيران /٣٢٥ ـ ٣٣٦؛ نفحات الأنس /٣٣٩ ـ ٣٤٧.

١٩ ـ «رويم بن أحمد البغدادي»

هو رويم بن أحمد بن يزيد أو رويم بن محمد بن أحمد، والأول أرجح، وكنيته أبو محمد. بغداديّ عاش ببغداد ومات بها عام (٣٠٣هـ ـ ٩١٥م)، ودفن بالشونيزيه.

كان شيخاً جليلاً، ومقرئاً قرأ على إدريس بن عبد الكريم الحدّاد، وفقيهاً على مذهب داود الأصبهاني.. إمام أهل الظاهر، المولود بالكوفة عام

٢٠٠ أو ٢٠٢هـ. ويعتبر داود هذا أحد أئمّة المسلمين، وواحد من كبار المتعصّبين للشافعيّ.

كان رويم من أعزّ أصحاب الجنيد، وقد انتفع بصحبته، وعلت مرتبة عرفانه، وأسند الحديث.

ومن أقـوالـه:

أ ـ من حِكَم الحكيم أن يوسّع على إخوانه في الأحكام، ويضيّق على نفسه فيها، فإن التوسعة عليهم اتّباع العِلم، والتضييق على نفسه من حُكم الورع.

ب ـ لا يزال الصوفيّة بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا هلكوا.

جـ ـ المحبّة: الموافقة في جميع الأحوال.

د ـ الرضـا: استقبال الأحكام بالأفراح.

هـ ـ الشكـر: استفراغ الطاقة.

انـظـر:

الرسالة القشيريّة /٢٧؛ طبقات الصوفيّة (الطبقة الثانية)؛ حلية الأولياء جـ١٠/٢٩٦ ـ ٣٠٢؛ طبقات الشافعيين جـ٢/٤٢ ـ ٤٨.

٢٠ ـ «بِشر الحافي»

هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن هامان بن عبد الله الحافي، المكنّى بأبي نصر. أصله من مرو من قرية بكرد أو فابرسام، سكن بغداد ومات بها عام (٢٢٧هـ ـ ٨٤٢م).

عالم كبير، صحب الفضيل بن عياض، أسند الحديث، تاب إثر أخذه ورقة من الطريق قد وطئتها الأقدام.. فقد طيّبها حين وجد اسم الله مكتوباً عليها، ووضعها في شقّ حائط، فرأى في منامه من يقول له: يا بشر طيّبت اسمي.. لأطيّبن اسمك في الدنيا والآخرة.

ومن أقـوالـه:

أ ـ الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس.
ب ـ لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس.
جـ ـ لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد.

انظر:

الرسالة القشيريّة ١٤/؛ طبقات الصوفيّة (الطبقة الأولى)؛ وفيات الأعيان جـ ١/١١٢؛ صفة الصفوة جـ ٢/١٨٣ ـ ١٩٠؛ تذكرة الأولياء الباب ١٢/١٠٦ ـ ١١٤.

١٢ ـ «شقيق البلخي»

شقيق بن إبراهيم أبو علي الأزدي البلخي. أستاذ حاتم الأصم. صحب إبراهيم بن أدهم، وأخذ عن طريقه، واعتُبر أول من تكلّم في علوم الأحوال بخراسان. امتاز بطلاقة اللسان، وأسند الحديث.

كان غنياً يعمل في التجارة قبل أن يتوب. ويُرجع البعض توبته إلى التقائه في بلاد الترك بخادم للأصنام قد عكف عليها، فلما وجّه له النصح، وطلب منه أن يترك عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع إلى عبادة الصانع الحيّ العالم القادر، قال له الخادم: إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلم تجشّمت مشقّة الحضور إلى هنا للتجارة؟ فلما وعى قوله انتبه وسار في طريق الزهد.

ويُرجع البعض توبته إلى سبب آخر، فيقولون إنه رأى مملوكاً يلعب ويمرح بينما الناس يمرّون بفترة قحط، فعاتبه في ذلك، فقال المملوك: ولماذا أبتئس ولمولاي قرية خالصة.. يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه؟ فانتبه شقيق وقال: إن كانت قرية مولاه المخلوق الفقير تجعله لا يهتمّ برزقه فالواجب ألا يهتم المسلم برزقه ومولاه غني.. وسلك سبيل الزهد.

ويقال إنه كان يتغنّى ويعاشر الفتيان، ثم رزقه الله نعمة الانتباه فتاب عما كان فيه، وسلك سبيل الزهد.

ومن أقـوالـه:

أ - تعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: أخذه ومنعه وكلامه.

ب - الزاهد هو الذي يقيم زهده بفعله، والمزهد هو الـذي يقيم زهده بلسانه.

جـ - إتّق الأغنياء فإنك متى اعتمدت عليهم.. فقد اتّخذتهم أرباباً من دون الله.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الأولى)؛ الرسالة القشيريّة /١٦؛ وفيات الأعيان جـ ٢٨٣/١؛ فوات الوفيات جـ ١/ ٢٤٠؛ تذكرة الأولياء - الباب ١٩٧/١٧ - ٢٠٢.

٢٢ - «يوسف بن الحسين الرازي»

كنيته أبو يعقوب، وهو شيخ الريّ والجبال في وقته. والجبل والجبال إسم عام للبلاد التي عرفت في عهد ياقوت - في اصطلاح العجم - بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة.

كان أوحد طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنّع واستعمال الإخلاص. وكان عالماً أديباً متديّناً.

صحب ذا النون والنخشبي، ورافق الخرّاز في بعض أسفاره. وقد اتّهمه أهل الري بالزندقة، لأنه كان إذا سمع القرآن لا يقطر له دمع، بينما تقـوم قيامتـه إذا سمـع شعـراً. تـوفي في عـام (٣٠٤هـ - ٩١٦م) أو (٣٣٤هـ - ٩٤٦م).. والتاريخ الأول هو الأرجح.

ومن أقـوالـه:

أ - لما علم القوم أن الله عزّ وجلّ يراهم استحيوا من نظره أن يراعوا شيئاً سواه.

ب ـ نظرت في آفات الصوفيّة فرأيتها في معاشرة الأضداد وصحبة الأحداث ورفق النسوان.

انـظـر:

تاريخ بغداد جـ ١٤/٣١٤ ـ ٣١٩؛ طبقات الشعراني جـ ١/١٠٥؛ الرسالة القشيرية /٢٩؛ معجم البلدان جـ ٣/٤٤؛ تذكرة الأولياء، الباب ٢١٦/٣٧ ـ ٣٢٢.

٢٣ ـ «سمنون بن عمر المحبّ»

سمنون بن حمزة، ويقال سمنون بن عبد الله، أبو الحسن الخوّاص وكنيته: أبو القاسم. يقال إنه كان يُنشد:

فليس لي مـن سـواك حظ فكيفمـا شئت فـامتحّني
إن كـان يرجـو سواك قلبي لا نلتُ سؤلي ولا التـمنّـي

فأخذه الأُسر وهو احتبـاس البول، فـأخذ يـدور على الصبيان في المكاتب ويقول: إدعوا لعمّكم الكذاب، وهكذا أطلق على نفسه سمنوناً الكذاب لكتمه عسر البول بلا تضرّر.

كان من كبار مشايخ العراق، كبير الشأن ظريف الخلق، يتكلّم في المحبّة بأحسن كلام. صحب سرياً والقصّاب والقلانسي، ومات بعد الجنيد.

ومن أقـوالـه:

أ ـ لو صاح إنسان لشدّة وجده بحبه لملأ ما بين الخافقين صياحاً.

ب ـ لا يُعبَّر عن شيء إلّا بما هو أرقّ منه، ولا شيء أرقّ من المحبّة، فبم يعبّر عنها؟.

جـ ـ التصوّف هو أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الثانية)؛ نتائج الأفكار القدسيّة جـ ١/٥٩ ـ ٦١؛ المنتظم جـ ٦/١٠٨؛ الرسالة القشيريّة /٢٨؛ صفة الصفوة جـ ٢/٢٤٠ ـ ٢٤٢.

٢٤ ـ «أبو بكر الورّاق»

هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الورّاق، أصله من ترمذ، كان يعيش في ترمذ ويصحب أحمد بن خضرويه ومحمد بن سعد الزاهد وابن خشنام البلخي. أسند الحديث، وألّف كتباً في الرياضيّات والمعاملات والآداب.

ومن أقـوالـه:

أ ـ لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشكّ في المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذلّ، ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

ب ـ الناس ثلاثة: العلماء والأمراء والقرّاء، فإذا فسد الأمراء فسد المعاش، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات، وإذا فسد القرّاء فسدت الأخلاق.

جـ ـ شكر النعمة كمشاهدة المِنّة وحفظ الحرمة.

د ـ اليقين نور يستضيء به العبد في أحواله، فيبلغه إلى درجات المتّقين.

هـ ـ خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين.

انـظـر:

طبقات الصوفيّة (الطبقة الثانية)؛ حلية الأولياء جـ ١٠/٢٣٥ ـ ٢٣٧؛ صفة الصفوة جـ ٤/١٣٩؛ الرسالة القشيريّة /٢٩.

٢٥ ـ «أبو إسحٰق إبراهيم الخوّاص»

إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، كنيته أبو إسحٰق. من أقران الجنيد والنوري، وقد تتلمذ في بغداد عليه أبو الحسن النحراني وغيره. يعتبر من أجلّ من سلك طريق التوكّل، وله باعه في الرياضيّات والسياحات. مرض بعلّة البطن، ومات وسط الماء أثناء اغتساله في جامع الري عام (٢٩١هـ ـ ٩٠٤م).

ومن أقـوالـه:

أ ـ من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة له.

ب ـ من لم يصبر لم يظفر.

جـ ـ الورع ألّا يتكلم العبد إلّا بالحقّ غضب أم رضي، ويكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى.

د ـ إنما العِلم لمن اتّبع العِلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن يكن قليل العِلم.

انظر:

طبقات المناوي جـ ١/١٨٨؛ الروض الفائق /٨١؛ طبقات السلمي (الطبقة الثانية)؛ صفة الصفوة جـ ٤/٨٠ ـ ٨٤؛ تاريخ بغداد جـ ٦/٧ ـ ١٠.

٢٦ ـ «أبو علي الروذباري»

أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، من ذريّة كسرى، ويرى البعض أن اسمه هو محمد بن أحمد. يُعدّ من أهالي بغداد رغم أنه سكن مصر وصار شيخها ومات بها.

صحب العديد من المشايخ في بغداد والشام كالجنيد والنوري وأبي حمزة وابن الجلاء. أخذ التصوّف والخرقة عن الجنيد، والفقه عن ابن سريج، والحديث عن الحربي، والأدب عن ثعلب، وأبدى فخره بهم. كان عالماً فقيهاً عارفاً بعلم الطريقة، يحفظ الحديث ويسنده.

توفي بمصر، ودفن بجوار ذي النون المصري عام (٣٢٢هـ ـ ٩٣٤م)..

ومن أقواله:

أ ـ التصوّف مذهب كلّه جِد فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

ب ـ التصوّف هو الإناخة على باب الحبيب وإن طرد.

جـ ـ التصوف هو صفوة القرب بعد كدورة البعد.

د ـ اكتساب الدنيا مذلّة واكتساب الآخرة عزّ، فواعجباً لمن يختار الذلّ على العزّ.

انـظـر:

اللباب جـ ١/ ٤٨٠؛ الرسالة القشيريّة /٣٤؛ معجم البلدان جـ ٢/ ٨٣١؛ البداية والنهاية جـ ١١/ ١٨١؛ روضة الناظرين /١٣؛ حسن المحاضرة جـ ١/ ٢٢٥.

٢٧ ـ «أبو الحسن الحصري»

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري، بصري سكن بغداد، وصار شيخ العراق ولسانها. كان أتم المشايخ ـ في وقته حالاً، وأحسنهم لساناً، وأعلاهم كلاماً، وأوحدهم طريقة، وأجلّهم وأظرفهم وألطفهم.

أستاذ العراقيّين، وبه تأدّب من تأدّب منهم. له لسان في التوحيد يختصّ هو به، ومقام في التجريد والتفريد مسلّم له لم يشاركه فيه أحد بعده. صحب الشبلي وغيره، وسلك طريق السلف، وأحبّ الإرشاد، وكان على جانب عظيم من الأدب والعلم والورع والزهد. وقد توفي في بغداد عام ٣٧١هـ.

ومن أقـوالـه:

أ ـ الصوفي لا ينزعج في انزعاجه ولا يقرّ في قراره.

ب ـ الصوفي الذي لا يوجد بعد عدمه، ولا يعدم بعد وجوده.

جـ ـ عرّضوا للإخوان ولا تصرّحوا فهو أستر لهم.

د ـ علمنا الذي نحن فيه يوجب إنكار كل معلوم مرسوم، ومحو كل معلوم معلول، وما بان شيء فيمتحى.

انـظـر:

تاريخ بغداد جـ ١١/ ٣٤٠؛ طبقات الشعراني جـ ١/ ١٤٥؛ روضة الناظرين /١٥.

٢٨ ـ «يوسف الهمداني»

هو الإمام العارف والعالم الراسخ والوليّ الكامل أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني. تتلمذ على يديه العديد من المريدين والعلماء والصالحين

في خراسان ومرو. ولد في همدان عام (٤٤٠هـ - ١٠٤٩م)، ورحل إلى بغداد في سنّ الثامنة عشر، ولازم مجلس أبي إسحق الشيرازي، وبلغ درجة الكمال في علم النظر، وتعلّم الحديث وصار واعظاً.

كان على المذهب الحنفيّ، وكان تفقّهه في المذهب الشافعيّ على يد الشيخ إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآباديّ. واشتغل بالتحصيل في بخارى وأصفهان، وكان محبوباً في بلاد العراق وخراسان وخوارزم وما وراء النهر.

وقد أقام يوسف في جبل زر فترة، وألبسه الشيخ عبد الله الجوينيّ الخرقة، فانتسب في التصوّف إليه، كما انتسب إلى السمناني والفارمدي. وقد سمع من الخطيب وغيره من ثقاة بغداد وأصفهان وبخارى وخراسان وما وراء النهر قبل أن يحصل له القبول التام، وينقطع للزهد والعبادة، ويشتغل بالمجاهدات، ويصبح غوث الزمان وغيث الحقائق والعرفان، ويعقد له في بغداد مجلس للوعظ والتذكير. وقد ترك بغداد إلى مرو وأقام بها، وروي عنه العديد من الكرامات.

وكما أقام طويلاً في مرو أقام طويلاً في هراة، ثم قرّر العودة إلى مرو - بناءً على طلب أهلها - فمات في بامين ودفن بها، ثم نقلت جثّته إلى مرو. ومزاره يتبرّك به، وكانت وفاته في عام (٥٣٥هـ - ١١٤١م).

له العديد من المريدين، كما أن له أربعة خلفاء انتخبهم من بين أصحابه للإرشاد، وأعلن نيابتهم على رؤوس الأشهاد. من بينهم خواجه عبد الخالق الغجدواني.

ومن أقواله:

السماع سفر إلى الحقّ ورسول عن الحقّ، وهو لطائف الحقّ وزوائده وفوائد الغيب وموارد الفتح وعوائده، ومعاني الكشف وبشاراته. فهو للأرواح قوتها، وللأشباح غذاؤها، وللقلوب حياتها وللأسرار بقاؤها.

فطائفة أسمعها الحقّ بشاهد التنزيه، وطائفة أسمعها بنعت الربوبيّة،

وطائفة أسمعها بنعت الرحمة، وطائفة أسمعها بوصف القدرة. . فقام لهم الحقّ مسمعاً وسامعاً. فالسماع هتك الأستار وكشف الأسرار. وبرقة لمعت وشمس طلعت. وسماع الأرواح باستماع القلوب على بساط القرب بشاهد الحضور من غير نفس تكون هناك.

انظر:

رشحات عين الحياة /١٧، ١٨؛ المواهب السرمديّة /٧١ ـ ٧٥؛ الطبقات الكبرى /١١٦ ـ ١١٧؛ الأنوار القدسيّة /١٠٧.

٢٩ ـ «علي الرامتيني»

ثاني خليفتي الخواجه محمود الأنجيز فغنوي، ولقبه في سلسلة النقشبنديّة (عزيزان)، وهو أبلغ دليل على علوّ الشأن.

ولد في قرية رامتين قرب بخارى، وشغل فيها بتحصيل العلوم الشرعية إلى أن تضلّع فيها، وأخذ عن الأنجيز فغنوي ما نال به المقامات العالية والفتوحات المتوالية، وملأ به الأسماع إمداداً وإرشاداً. وكان إلى جوار اشتغاله بالعلم يعمل نسّاجاً.

عاصر الشيخ العالم الكبير ركن الدين وراسله. وجاءه الإذن الإلّهي فترك بخارى إلى خوارزم ودخلها بإذن كتابي طلبه من السلطان. فلما اشتغل بطريق السادات وكثر مريدوه واتباعه. . أرسل السلطان إليه من يطرده، فأعطاه ما كان قد ناله من إذن سابق. . فجاء السلطان إليه، واعتذر له، وأخلص له المحبّة، فحصل له نفع عظيم على يديه.

أنجب ولدين، أحدهما محمد خورد. . الذي مات بعد أبيه بتسعة عشر يوماً، كما تنبّأ الأب. والثاني هو الشيخ إبراهيم. أما خلفاؤه فأربعة وهم: محمد كلاه دوز، ومحمد البلخي، محمد البارودي، ومحمد بابا السماسي.

كان ينظم الشعر، وله كرامات عجيبة ونبوءات صادقة تُعزى إلى طريق

الكشف. مات في عام (٧١٥هـ - ١٣١٥م) أو عام (٧٢١هـ - ١٣٢١م)، وكان عمره آنذاك ١٣٠ سنة.

ومن أقواله:

أ - ينبغي للسالك أن يكثر من المجاهدات والرياضيّات ليحصّل الأحوال والمقامات. وهناك طريق آخر وهو أن يسعى في تحصيل محبّة قلوب الأولياء له، فإن قلوب هذه الطائفة العليّة موارد الحكم الإلّهية.. فيدرك بذلك نصيباً منها، وتظهر أحوالهم عليه.

ب - إعملوا ولا تحسبوا، واعترفوا بالتقصير واستأنفوا العمل.

جـ - الإيمان هو القطع والوصل.

د - اجتهدوا بالحضور على الدوام.. لا سيّما وقت الطعام وعند الكلام.

انظر:

رشحات عين الحياة /٣٧-٤١؛ الحدائق الورديّة /١٣١؛ المواهب السرمديّة /٩٦-٩٨؛ الأنوار القدسيّة /١٢٠-١٢٣.

ب ـ الشعراء[1]

١ ـ «الرودكي»

أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودكي (الرودكَي)، وينسبه البعض على أنه ابن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم. يقال إنه أول من قال أشعاراً لطيفة باللغة الفارسيّة، لكنّ الذي لا شك فيه هو أنّه أول شاعر فارسيّ عظيم في العصر الإسلاميّ، وهذا ما جعل البلعمي ـ كبير وزراء إسماعيل بن أحمد بن سامان (٨٩٢ ـ ٩٠٧م) ـ يقول في حقّه صراحة: إنه لا نظير له بين شعراء العرب والعجم.

ولشهرة الرودكي بين معاصريه.. وجدنا الشهيد البلخي يثني عليه بقوله:

يُمتدح الشاعر بقولنا: أجدت وأحسنت، لكنّ «أجدت وأحسنت» إذا وُجِّهتا إلى الرودكي اعتبرتا هجاء.

ووجدنا معروف البلخي يلقّبه بسلطان الشعراء.

وتخلُّص هذا الشاعر بلقب «الرودكي» يرجع إلى مهارته في عِلم الموسيقى، وإجادته العزف على (البربط) أو (الرودك). وإن رأى البعض أنّه لُقّب بالرودكي نسبة إلى بلدته (رودك) من أعمال بخارى. ويقال إنه ولد أعمى، ويقال إنه أُصيب بالعمى في مرحلة من مراحل حياته.

---

(١) رتبت الشخصيات هنا وفق ترتيبها عند الجامي، أي وفق أولوية ورودها في الروضة السادسة.

وقد شهد له الكثيرون بالتفوّق، فقال الدقيقي: حين أمدح الرودكي أكون كحامل التمر إلى هجر. وفضّله البعض على نفسه، فقال العنصري ـ ملك الشعراء في بلاط محمود الغزنويّ ـ أن غزله لا يليق بمقامه.

وتؤكّد كتب التراجم أنّه كان ذا طبع كريم وذهن مستقيم، حلو الكلام يجيد العزف والغناء، وأنه كان قريباً إلى قلب وليّ نعمته ـ نصر الثاني ـ لإجادته فنّ المنادمة. كما تؤكّد أن أشعاره ملأت مائة مجلد، وأنه نظم مليوناً وثلاثمائة ألف بيت. وعلى أيّ حال فإن ما وصلنا يُعَدّ قليلاً جداً بالنسبة للعدد الذي مرّ ذكره.

وقد نظم الرودكي كتاب (كليلة ودمنة)، وأنعم عليه الأمير نصر إنعاماً كبيراً، وقد ذكر العنصري ذلك في قصائده.

ويقول خواجه حمد الله مستوفى القزويني في كتابه (تاريخ گزيده) أنه حين استولى الأمير نصر بن أحمد الساماني على ممالك خراسان ـ ودانت له، ووصل إلى دار الملك (هراة). لاءمت ريحُ الشمال وهواءُ تلك المدينة المعتدل مزاجَه، فأخذ يتجوّل في أنحاء تلك الجنّة، ونسي دار الملك بخارى مقرّ أسرته الأصليّ. ولم يستطع كبار رجال الدولة إعادته إليها، فاستعانوا بالرودكي وأجزلوا له العطاء، فأنشد قصيدة على البديهة غنّاها للأمير (وأوردتها كلّ كتب التراجم تقريباً باعتبارها أشهر عمل له).

ورغم سهولة القصيدة وخلوّها من الزينات والمحسّنات، فقد أثّرت في نفس الأمير بحيث نزل عن عرشه وركب جواده دون أن ينتعل حذاءه، وتوجّه إلى بخارى.

ويتّضح لنا من دراسة أشعاره ومن قراءة ما كتب حوله، أنّه كان شاعراً ممتازاً يجيد ألوان الشعر برمّتها ـ سواء القصائد أو المثنويات ـ مما كان شائعاً في عصره. كما يتّضح لنا أنه كان عظيم الشأن مقبولاً لدى الخاصّة والعامّة لوقوفه على فنون العلوم والفضائل.

ويروى أن الرودكي كان يميل إلى الإسماعيليّة، ويؤكّد ذلك المصراع

التالي: (اندرجهان بكس مگوجز بفاطمي): لا تبح بمكنون صدرك في دنياك لأحد، إلّا للفاطمي. ويرى نظام الملك ـ الوزير السلجوقي ـ أن وليّ نعمته وممدوحه كان ـ هو الآخر ـ يميل إلى الإسماعيليّة.

وفي نهاية حياة الرودكي سقط من عين الأمير وأصبح معسراً فقيراً.. ولعل ذلك راجع إلى معتقداته المذهبيّة. وقد مات الرودكي عام (٣٢٩هـ ـ ٩٤١م).

انظر:

تذكرة الشعراء /٣١؛ تاريخ أدبي إيران جـ١/٦٦٤ ـ ٦٦٧؛ سياست نامه /١٨٨ ـ ١٩٣؛ چهار مقاله /٥٣؛ بهارستان (الروضة السابعة)؛ غاية الوسائل إلى المعارف الأوائل /٥٢١ ـ ٥٢٢؛ لباب الألباب لعوفي ـ صفحات متفرقة؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ١/٣٢٦ ـ ٣٣١.

٢ ـ «الدقيقي»

أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقي الطوسي، ترجع شهرته أول ما ترجع إلى أنه أوّل من نظم الشاهنامة، فقد نظم منها ألف بيت على حدّ قول الفردوسي، وإن كان العوفي وجامي يؤكّدان أنه نظم منها عشرين ألفاً. وتتعلّق أبيات الدقيقي بظهور زردشت واستقرار الدين الزردشتي. ولم يثنه عن النظم إلّا الموت، فقد اغتاله غلام من غلمانه الأتراك.

ويُرجع المستشرقون ذلك إلى زردشتيّته.. وخاصة الألمان منهم أمثال إته ونولدكه وهرن. وهم يبنون حجّتهم على بيتين قال فيهما:

* اختار الدقيقي أربعة أشياء من كل ما يَعمُر الدنيا من طيّب وقبيح.
* الشفة الياقوتية، ونغمة الرباب، والخمر الدمويّة، والدين الزردشتي.

ويقال إن الدقيقي كان له ديوان يطالعه معاصروه، وأنه كان يحظى بالشهرة وينعم بتقدير الجميع، خاصّة العظماء. ومن بين الأغراض التي نظم فيها: المدح والعشق والخمر. وقد نقل العوفي عشر قطع من غزلياته

وقصائده، ويبلغ ما نقله ٢٧ بيتاً فقط. وكان مصرعه في عام (٣٦٥هـ - ٨٩٥م).

انظر:

لباب الألباب - صفحات متفرّقة؛ چهار مقاله /٤٧؛ تاريخ أدبي إيران جـ ١/١٨٧ - ١٨٨؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٢/١٣٣، ١٥٠، ١٥٣؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ ١/٣٣٢ - ٣٣٥.

٣ - «العنصري»

أبو القاسم حسن بن أحمد. يرى المؤرّخون أنه يلي الفردوسي مرتبة. كان على رأس الشعراء في عصر السلطان محمود الغزنوي. وكان يشتهر بينهم - وهم البالغ عددهم أربعمائة - بالحكمة وسداد الرأي، ويقرّون له جميعهم بالأستاذية.

كان يجمع في مجلس السلطان بين صفة النديم وصفة الشاعر. وكان يعنى بتدوين مقامات مولاه وغزواته نظماً. ويتبدّى اهتمامه بهذا الأمر في قصيدته المطوّلة التي تقرب أبياتها من المائة والثمانين، والتي سجّل فيها كل غزوات السلطان محمود وحروبه وفتوحاته.

وقد عرف السلطان له قدره، فأعلى منزلته، ومنحه لقب: (ملك الشعراء)، وأمر الشعراء بعرض شعرهم عليه لتنقيحه قبل عرضه على السلطان. وهكذا أصبح قِبلة الشعراء، وبات من ذوي الجاه والأثرياء، وصار هدف مديح الأدباء، فامتدحه الفردوسي وعوفي ودولتشاه وغيرهم.

وتفاصيل حياة العنصري غير معروفة، والشائع أنه ولد في بلخ عام (٣٥٠هـ - ٩٦١م) وسكن دار الملك غزنين. وكان أحد الشعراء الذين يوجّهون طاقاتهم الذهنيّة نحو المديح للتكسّب، فهو في هذا لا يختلف عن الفرّخي والخاقاني والأنوري وظهير الفاريابي.. الذين يعدّون في نظر الإيرانيين من كبار الشعراء، بينما لا يمسّ كلامهم قلوب الأوروبيين.

ويبلغ عدد أبيات ديوانه ٣٠ ألف بيت، تجمع بين الأشعار المصنوعة وأشعار التوحيد، وتشتمل على المثنويات والقطعات والرباعيّات والقصائد. ومن مثنوياته: وامق وعذرا، شاد وبهرام، عين الحياة، جنگ بت، سرخ بت. وتشير المصادر المختلفة إلى أن وفاة العنصري كانت فيما بين عامي (٤٣٢ - ٤٤٢هـ) (١٠٤٠ - ١٠٥٠م)، بينما يؤكّد دولتشاه أنه توفي عام (٤٣١هـ - ١٠٣٩م).. في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي.

انظر:

تذكرة الشعراء /٤٤ وما بعدها؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢/١٣٩؛ تاريخ أدبي إيران جـ١/٥٦٥؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ١/٣٧٧ - ٣٨٠.

٤ - «العسجدي»

هو أبو نظر عبد العزيز بن منصور. ينسبه البعض إلى مرو والبعض إلى هراة. تلميذ من تلامذة العنصري، نال لقب «ملك الشعراء» كما يقول دولتشاه، وكان دائماً في ركاب السلطان محمود بن سبكتگين.

ديوانه نادر الوجود حتى إبّان حياته، غير أن كُتب المختارات قد تضمّنت تفاريق من أشعاره. ويؤكّد دولتشاه أن كلمات العسجدي ورسائله كانت شائعة بين معاصريه.

انظر:

تذكرة الشعراء /٤٧؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢/١٤٣.

٥ - «الفرّخي»

هو الفرّخي الترمذي الملقّب بملك الكلام. تلميذ العنصري، صاحب الذهن السليم والطبع المستقيم. يُعدّ بين الفرس بمثابة المتنبّي بين العرب، فكلاهما يقول السهل الممتنع. كان يعمل في الزراعة قبل زواجه، فلما تزوّج واحتاج للمال تكسّب بالشعر الذي كان يجيد نظمه. وكان ممدوحه الأول هو

الأمير أبو المظفر الصاغاني الذي بسط عليه حمايته ورعايته، فنعم في ظلّه بالسعادة والرفاهية. ثم عاش في بلاط محمود الغزنوي، وظلّ به معززاً مكرّماً، وامتـدحه كثيراً.

وهو يعدّ بلا نظير في البلاغة والفصاحة، وله عدّة مؤلفات تشهد بذلك، من بينها كتاب في الصناعات الشعرية عنوانه: «ترجمان البلاغة».

ويؤكّد دولتشاه أن الفرّخي قد جمع أشعاره في ديوان اشتهر فيما وراء النهر، وأنه بمرور الوقت صار نادراً مهجوراً، بينما الواقع أنّ ديوانه قد طبع أكثر من مرّة، إحـداها في طهران عام (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م).

انـظـر:

تذكرة الشعراء /٥٥؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ ١/٣٩٤، ٣٩٥.

٦ ـ «الفـردوسـي»

إسمه الحسن بن علي الطوسي، أو حسن بن إسحق بن شرف شاه، وكان يتخلّص بابن شرف شاه في بعض أشعاره، ولد عام (٣٢٣هـ ـ ٩٣٥م).

والفردوسي من دهاقين طوس، من قرية رژان. كان والده يعمل بستانياً في فردوس سوري بن أبي معشر عميد خراسان، فاتّخذ الشاعر من الفردوس تخلّصه.

اشتهر بالفصاحة والبلاغة، ونبغ في الوصف فلم يصل أحد إلى منزلته فيه.

يقال في سبب شهرته أنه ذهب إلى غزنين ليشكو للسلطان محمود ما لحق به من ظلم على يد عامل طوس. وظلّ يتردد على البلاط ولا يتمكّن من مقابلته، واحتاج قوت يومه، فنظم الشعر ليتكسّب به. وحاول أن يلتقي بالعنصري صاحب الجاه والثروة فلم يستطع بغير الحيلة. وحين التقى به كان في مجلسه تلميذاه: العسجدي والفرّخي. ورآه العنصري وقد ارتدى ملابس

القرويين فداعبه قائلاً: لا يقاسم الشعراء مجلسهم سوى شاعر. فقال الفردوسي: إن لي خبرتي في هذا الفن. واختبره الشعراء في نظم الشعر على البديهة فوجدوه لا يقلّ عنهم بحال، وأدركوا أنه يعرف الكثير عن تاريخ الفرس الأقدمين.

وكان السلطان محمود قد طلب من العنصري أن يسجّل تاريخ ملوك العجم نظماً، فاعتذر لكثرة مشاغله، أو ربما لعدم استطاعته، فلما سأل الفردوسي عن مدى استعداده للتصدّي لهذا الأمر، وعرف مدى تحمّسه قدمه للسلطان. وطلب السلطان منه أن يمتدحه، فامتدحه على البديهة بأبيات قويّة معبّرة، فأفرد له حجرة في قصره.. شغل فيها أربع سنوات بنظم جانب من الشاهنامة. ثم عاد إلى قريته حيث والى نظمها بين تشجيع السلطان واستحسانه.

وأتمّ الشاهنامة، وانتظر أن يجني ثروة من ورائها، لكن إياز خادم السلطان قال عنه إنه رافضي. وكان السلطان صلباً في الدين متعصّباً للمذهب السنيّ كارهاً للرافضة يعتبرهم أعدى أعدائه.. فتوعّد الفردوسي بالويل والثبور، ثم عفا عنه واكتفى بإعطائه ٦٠ ألف درهم من فضّة، ليكون لقاء كل بيت من أبيات الشاهنامة درهم فضي واحد. وقابل الفردوسي عطيّة السلطان باحتقار؛ فقسمها بين صاحب حمام وبائع خمر وحفنة من الفقراء. وخشي غضبة السلطان فاختفى عن الأنظار. واحتال حتى حصل على الشاهنامة من كاتب السلطان، وألحق بها عدّة أبيات نظمها في ذمّ مولاه، قال فيها:

- عابوني فقالوا إنّ ذلك الثرثار..
قد شاب على حب النبي وعليٍ المغوار.

- ولو أني تحدّثت بحبهم..
لحميت محموداً وآله ومئات من أمثالهم.

- غير أن ابن الأمة لا يصلح لأمر من الأمور..
ولو كان أبوه هو الملك أو الفغفور.

- لمّا كانت أرومته تفتقر إلى الرفعة والعلاء..
لم يطق بحال سماع أسماء العظماء.
- وإنّي لأسوق الحديث سوْقاً حول ما جرى..
بينما هو كالبحر الواسع.. لا ساحل له يُرى.
- تحمّلتُ الآلام - بسبب الشاهنامة - ثلاثين عاماً،
حتى يمنحني الملك تاجاً وكنزاً واهتماماً.
- فلم يَرِد على قلبي منه سوى الشقاء والهموم،
ولم تقبض يدي إلاّ على ريح السموم.
- إذ ليس في طاقة السلطان أن يفعل الخير لإنسان،
وإلا لأجلسني - كما أستحقّ - في خير مكان.
- لو كان للملك أب من نسل الملوك، ذو جاه وحسب،
لوضع على رأسي - لقاء ما فعلتُ - تاجاً من ذهب.
- ولو كانت أمّه سيدة.. يَحفُّها البهاء،
لغُصْت في ذهبه وفضّته إلى ركبتي ولا مراء.
- أيها الملك محمود.. يا فاتح البلاد،
إن كنت لا تخشى أحداً.. فاخش ربَّ العباد.
- لقد سبقك الكثير من الملوك ذوي التيجان،
وكانوا جميعاً أصحاب جاه وصولة وسلطان.
- كانوا يفوقونك في الرفعة وكثرة الأعوان،
والمال والجنود والعروش والتيجان.
- لم يقدّموا سوى الخير والحقّ.. لمن يلوذون بهم،
ولم يحوموا حول القليل والكثير. طوال مدة حكمهم.
- لقد عاملوا أتباعهم بما يستحقونه من إحسان،
ولم يكونوا غير عبادِ لله طاهري النفوس والأبدان.

ـ لم يسعوا إلاّ لطيب الذِكر في دهرهم،
ولم يستهدفوا غير طيب الجزاء من ربّهم.

وترك الفردوسي غزنين إلى هرات، واختفى في دكان ورّاق يدعى إسماعيل، وفي منزل شخص يسمى أبو المعالي الصحّاف. ثم توجّه إلى طوس، فودّع أهله، وفارقهم إلى طبرستان حيث طلب حماية حاكمها «الإسپهبد جورجاني»، الذي كان يحكمها من قبل منوچهربن قابوس. وقد رعاه الحاكم، واشترى أبيات الهجاء بمائة وستّين مثقالاً من الذهب، ومحاها من الشاهنامة، وطلب من الشاعر أن يُبقِي الشاهنامة باسم محمود خوف بطشه.

وعاد الفردوسي إلى طوس، وانزوى بها يجترّ آلامه، ويلعق مرارة زمانه. وفي شيخوخته، نظم منظومة مثنويّة أسماها «يوسف وزليخا»، حطّ النقاد من قدرها، وقالوا إنّ الفردوسي قد صاغها في وزن الشاهنامة وأسلوبها.. وهما لا يصلحان لنظم القصص الرومانتيكيّة. وقد أدخلت على هذه القصّة فيما بعد زيادات، وأصبحت من أكثر الموضوعات التي يطرقها شعراء إيران وتركيا من الرومانتيكيّين.

وقد طرق هذه القصّة ـ قبل الفردوسي ـ كلٌّ من أبي المؤيد والبختياري.. إلاّ أن منظومتيهما قد ضاعتا. وهذه أبيات من هذا المثنوي:

ـ لقد تحدّثت كثيراً.. بلا حساب،
وسمع الجميع أقوالي في كلّ باب.

ـ تحدّثت عن الملوك المدبّرين العادلين،
في الحريّة والقيود، في الشدّة واللين.

ـ وما أكثر ما نظمت من جواهر القصص والأنباء،
وما أكثر ما ذكرت من سِيَر الأحباب والأصدقاء.

وفي حياته بعيداً عن الأضواء، نظم الشاعر عديداً من الغزليّات التي يتّسم بعضها بالحزن، ويحفل بعبارات الندم والأسف. وقد غمط النقّاد تلك

الغزليّات حقّها، لأنهم لا يَعتدّون بشيء من مؤلّفات الفردوسي قدر اعتدادهم بالشاهنامة.

والشاهنامة التي نظمها الفردوسي في ٦٠ ألف بيت.. يوجد بعض نسخ لها بين أيدينا لا يزيد عدد الأبيات فيها عن ٣٠ ألفاً، وهي في قالب عروضي مناسب هو مثمّن المتقارب، ومثاله في المقدّمة:

توانا بوَد هركه دانا بوَد بدانش دل پير برنا بوَد

- كل عالم قادر، وبالعلم يكتسب القلب المُسِنُّ شباباً.

والإيرانيّون يرون فيها ملحمة رائعة تتضمّن كل ما أملته الروح القوميّة الفارسيّة، ولهذا يمجّدونها ويعظّمون صاحبها. غير أن هناك من يطعنون في مستواها ويفضّلون عليها المعلّقات العربيّة، ويرون أن طولها مبالغ فيه وأن وزنها الواحد يبعث الملل، وأن ناظمها لم يتحرّ الدقّة التاريخيّة في الجانب التاريخي، ولم يكن صادقاً في كل ما ذكره، وقد أكثر من التشبيهات المعادة.

وقد تعصّب الشاعر فيها لجنسه، حتى لقد خلت - رغم طولها - من الألفاظ العربيّة تقريباً، بحيث لم يدخُلها أكثر من ٤٪ من كلمات هذه اللغة. ودوّن فيها معظم أساطير الفرس وبطولاتهم اعتماداً على المؤلّفات البهلويّة والروايات الشفويّة. وانساق وراء خياله في تعظيم الملوك الأقدمين والإشادة بكل ما يتعلّق بهم، حتى لقد رفع من قدر الدين الزردشتي باعتباره دين هؤلاء الملوك.

ولقد تسبّب ذلك - إلى جانب مدح الفردوسي لعليٍ رضي الله عنه وآل البيت - في إغضاب محمود وفقهاء العصر ومن يعتنقون المذهب السنيّ.

والشاهنامة مصدر هام لأحداث البيشداديّين والكيانيّين، وملوك الطوائف (إلى حد ما)، والساسانيّين. ويصل صاحبها بها إلى فتح العرب لفارس، وقتل يزدجرد الثالث آخر ملك ساسانيّ.

وقد قلّدها شعراء كثيرون إعجاباً بها - كما فعل نظامي الگنجوي -

لكنهم لم يبلغوا ما بلغه الفردوسي، ولم يضارعوا مؤلَّفه التاريخي الأدبي العظيم.

وقد ورد في كتب السِيَر أن محموداً في سفْرَة الهند كتب إلى ملك دهلى (أو لثائرٍ يتحصّن بإحدى القلاع)، ثم سأل وزيره عما ينتويه إذا لم يأت جواب الهنديِ وفق مراده، فقال له:

ـ إذا لم يكن وفق إرادتي ما يرد من جواب..
فلا مفرّ من السيف والميدان ومنازلة أفراسياب.

وهكذا ذكر الوزير «أحمد حسن الميمندي» بيتاً من الشاهنامة، ذكّر محموداً بالفردوسي وأشعره بإفراطه في التحامل عليه، فأمر أن يحمّل ١٢ جملاً بأحمال النيلة، وترسل له كعطيّة، ودخلت العطيّة من بوّابة رودبار في طوس بينما جنازة الفردوسي تخرج من بوّابة رزان. ورفضت ابنته أن تأخذ مال السلطان الذي تسبّب بغدره في القضاء على أبيها.

وكانت وفاته في شهور عام (٤١١هـ ـ ١٠٢٠م). وقبره في طوس مجاور لمزار العباسيّة. وقد دفن في حديقته أوّل الأمر نتيجة اعتراض أحد الفقهاء على دفنه في مقابر المسلمين باعتباره من الرافضة. وقد نفى السلطانُ الفقيهَ، وأمر بدفن الفردوسي على النحو الذي ذكرناه، وأعطى مالاً لأبي بكر بن إسحاق ليعمّر به رباط (جاهه) بين نيسابور ومرو.. وهكذا ناصرَ الشاعرَ الذي كاد هو نفسه يوماً أن يقتله.

ولقي محمود ربّه وخلّف الحياة كما خلّفها الفردوسي، وجاء الجامي في عهد التيموريّين ليعبّر عن أحاسيس الكثيرين، فقال:

ـ لقد مضت شوكةُ محمود.. ولم يبق من قصّته،
سوى أنه لم يعرف للفردوسي عظيم قيمته.

انظر:

تذكرة الشعراء /٤٩ ـ ٥٥؛ لباب الألباب جـ ٣٣/٢؛ بهارستان (طهران) الروضة

السابعة؛ چهار مقاله /٨٠ـ ٨٩؛ تاريخ الأدب في إيران ـ ترجمة ـ /١٥٢ـ ١٧٨؛ ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ ١/٣٨١ ـ ٣٩٠.

٧ ـ «ناصر خسرو»

هو الحكيم ناصر خسرو بن الحارث، ولد في قباديان من أعمال بلخ عام (٣٩٤هـ ـ ١٠٠٣ ـ ١٠٠٤م). درس في شبابه العلوم والفنون، وحقّق الأديان والعقائد، وقرأ أشعار الفرس والعرب. كان يتخلّص بـ (حُجّة) لأنه كان يتفوّق على العلماء والحكماء في آداب البحث بالحجّة والبرهان. وقد حل بگيلان ورستمدار أول حاله، وتباحث مع العلماء فكادوا يقتلونه، لولا أن فرّ إلى أطراف خراسان، وشُغِل بخدمة الشيخ أبي الحسن الخرقاني، كما شُغِل بالرياضة وتصفية الباطن. ولما سمح له الشيخ بالسفر.. توجّه إلى خراسان وتحدّث في غريب العلوم والتسخير، فأوشك العلماء أن يقتلوه، لكنّ أقضى القضاة أبا سهل الصعلوكي ـ إمام خراسان وكبيرها ـ حذّره، فترك نيشابور إلى بلخ، ثم إلى جبال بدخشان، وشكا الخراسانيّين في قصيدة مطلعها:

ـ أشكو إليك أيها القديم القدير..
من أهل خراسان.. صغيرهم والكبير.

وكان ظهور ناصر خسرو في زمن السلطان محمود الغزنوي، وقد رأى بلاط السلطان مسعود الغزنوي وعمل كاتباً لدى السلاجقة قبل أن يصبح داعية للإسماعيليّة. ويقال إنه كانت بينه وبين أبي سينا صحبة، غير أن دولتشاه يكذّب ذلك.

ومما أورده المؤرخون، نستنتج أنه كان شاعراً رحّالة، وداعية إسماعيلياً شهيراً، وطبيعيّاً ودهرياً، ومعتنقاً لمذهب التناسخ.

ولقد حيكت حوله الأساطير فهو تارة ملك وتارة وزير للقادر بالله العباسيّ.. مع ما في هذه الأخبار وأمثالها من أخطاء تاريخية. وسبب

الأساطير ولا شكّ تلك السيرة الزائفة التي وضعها لنفسه ـ كما يقولون ـ والتي وردت في مقدّمة ديوانه (طبع تبريـز). وهي في جملتها نسيـج واه من الخرافات والأوهام التي اختلطت بأخبار غيره من المشاهير. وتنتهي هذه الخرافات وتلك الأوهام بحكاية على لسان شقيق ناصر تؤكّد أنّه مات في الأربعين بعد المائة من عمره، فتولّت الجنّ حمل جنازته ودفنه.

ويذكر بعض المؤرّخين أن رعيّته في بلخ قد عزلته من المُلك، فلجأ إلى يمگان فزيّنها وجمّلها بالحمّامات والحدائق والتماثيل الرائعة المطلسمة المخيفة التي إذا أطال أحدٌ النظر إليها فقد رشده. وقد وصف القزويني تلك الحمّامات بالتفصيل، وقال إنها ما زالت قائمة حتّى زمانه. ومن مخطوطة بمكتبة إدارة الهند ترجع إلى عام (٧١٤هـ ـ ١٣١٤م)، وتتعلقّ بمختارات من دواوين ستّة من شعراء الفرس (وهي برقم ١٣٢).. يُفهم من ثنايا إحدى الحكايات أنّ ناصر خسرو كاد يُقتل في نيسابور ـ كما يقول بنفسه ـ لولا أنّه عمد إلى الهرب بصحبة أخيه. ويرجع السبب في ذلك إلى اتّهامه ـ زوراً ـ بأنّه كتب تفسيراً للقرآن يتّفق مع آراء جماعته الإلحاديّة.

وقد كانت أفكاره باطنيّة تماماً، وكان يمعن في اتّباع مذهب التأويل، ويرجّح مذهب الاختيار، ويزدري الملوك وملازميهم ومادحيهم من الشعراء والكتّاب، فلم يكن يمتدح أحداً ـ كما أنه لم يكن يتغزّل، وكان يرى أن العِلم أفضل السبل لإيضاح طريق الوصول لإدراك الحقيقة.. فكان لذلك دائم الحديث عن فضيلة العلم، ووجوب ربطه بالدين والإيمان، واقترانه بالعمل. ولم تكن عقائده ـ مع قوله بالعقل وحثّه على طلب العلم ـ تخلو من صِبغة التصوّف.

ولناصر خسرو مؤلّفات قيّمة ممتعة نثريّة وشعريّة، قام على دراستها علماء نابهون، منها:

١ ـ سفرنامه: ويتحدّث فيه عما صادفه في رحلاته بلغة سهلة خالية من الصنعة والمحسّنات، وهو يفيدنا في معرفة إسمه بالكامل: (أبو معين

الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي)، ويدلّنا على الكثير من مراحل حياته وتنقّلاته وأسفاره وعقائده وأفكاره، والشخصيّات التي اتّصل بها. وقد نشره المستشرق شيفر في باريس عام (١٢٩٨هـ ـ ١٨٨١ م).

٢ ـ زاد المسافرين: وهو كتاب فلسفيّ، أثبت فيه عقائد الإسماعيليّة، وحقّق فيه عدّة مسائل مذهبيّة وفلسفيّة.. بعد أن اضطر للهرب من وجه السُنّة وأمراء السلاجقة الذين عادوه لاهتمامه بترويج عقائد الإسماعيليّة. وقد تمّ طبعه في مطبعة كاوياني ببرلين، عام (١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م).

٣ ـ الديوان: يشتمل على أشعاره في الفلسفة والأخلاق والمذهب والوعظ، ويلاحظ أن معظم المنظومات قد صيغت في قالبي القصيدة والمثنوي أكثر من سواهما. وقد طبع في طهران وتبريز، وتشتمل الطبعة الأخيرة على ٧٤٢٥ بيتاً، منها عدّة أبيات في الإلحاد تنسب إليه. ويذكر رضا زاده شفق أنّ الديوان كان يشتمل أول الأمر على ٣٠ ألف بيت.

ومن هذه المؤلفات أيضاً:

مثنوي روشنائي نامه (٥٧٩ بيتاً)، كنز الحقائق، سعادت نامه، وجه دين، دليل المتحيّرين، الإكسير الأعظم، القانون الأعظم، عِلم اليونان، رسالة في السحر، الدستور الأعظم، المستوفى، خوان الإخوان (طبع في القاهرة، عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م)، تفسير القرآن.

والخلاصة أن ناصر خسرو كان شاعراً حراً ذا نظر، متحدّثاً مؤمناً متديّناً، قلّ أن يخطىء أحد أسلوبه.. لأن لكلامه لهجة خاصّة.

وقد اختُلِف في تاريخ وفاته، فيرى دولتشاه أنّه قد توفي عام ٤٣١هـ، ويرى رضا زاده أنّه توفي عام (٤٨١هـ ـ ١٠٨٨م) ويرى غيرهما غير ذلك. أما قبره فيقع في وادي يمگان بولاية بدخشان.

انظر:

تذكرة الشعراء /٦١؛ تاريخ الأدب في إيران (ترجمة) /جـ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٦٥ وما بعدها؛ آثار البلاد وأخبار العباد ـ مادة يمگان /٣٢٨؛ تاريخ أدبيات إيران /١٤١ ـ ١٤٣

وما بعدها؛ ديوان ناصر خسرو (طهران) / ١١٠؛ خلاصة الأشعار؛ هفت إقليم؛ السفينة؛ آتشكده؛ جامع التواريخ؛ كشف الظنون.

٨ - «أزرقـــي»

هو أبو بكر أو أبو المحاسن الأزرقي، ولد إسماعيل الورّاق الهروي. اكتسب لقب الحكيم لفرط فضله وكثرة كتابته في النصائح والحكم العلميّة.

كـان يلازم السلطان طغـانشاه بن ألب أرسـلان السلجوقي حـاكم خراسان، ويكثر من مدحه، ويؤلّف المصنّفات بإسمه، وقد نال في عهده شهرة كبيرة ويلغ منزلة رفيعة، كما امتدح إلى جواره عدداً آخر من أمراء هذا الفرع من فروع السلاجقة.. أمثال ميرانشاه.

وقد خلّف أزرقي وراءه ديواناً شعرياً يشتمل على قصائد معظمها في المديح، وقطعات تتّسم بالجودة. غير أن المدح عنده لا يخلو من تشبيهات غريبة وتكلّفات ومبالغات. وديوانه على أي حال نادر الوجود.

وقد نسب إليه البعض كتاباً منظوماً اسمه: (سندباد)، وهو كتاب في النصائح والحكم العلميّة. كما ذكر فخر بناكتي في تاريخه أن لهذا الشاعر كتاباً اسمه: (ألفيّة وشلفيّة)، كتبه مقروناً بالصور ليحرك غريزة طغانشاه الجنسيّة. وقد أفلح فيما عجز عنه الأطباء، وأعاد لمولاه رجولته، فأصبح نديمه الأثير لديه، ونال الجاه والثروة والرعاية والحماية.. وقد وصف عوفي هذا الكتاب وصفاً كاملاً، وصحح براون إسمه إلى: (ألفيّة شلفيّة).

ويرى البعض أن أزرقي يلي المعزّى الشاعر مرتبة وشهرة. والأرجح أن تكون وفاته في عام (٤٦٥هـ - ١٠٧٢م)، أو قبل ذلك بقليل.

انـظـر:

تذكرة الشعراء، ليدن/ ٧٢ - ٧٣؛ تاريخ الأدب في إيران، جـ ٢ (ترجمة) / ٤٠٦ - ٤٠٧؛ تاريخ أدبيات إيران، جـ ٢ / ١٨٣ - ١٨٤؛ حدائق السحر (ترجمة) / هامش ص ١٣٨؛ لباب الألباب، جـ ٢ / ٨٦ - ٨٨ وما بعدها؛ تاريخ سلاجقة كرمان، هوتسما / ١٤ - ١٦.

٩ ـ «المـعـزّي»

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعزّي النيشابوري. استمدّ تخلّصه الشعريّ (المعزّي) إما من أحد ألقاب السلطان ملكشاه (معِزّ الدين) أو من لقب سنجر (معِزّ الدين)، والمعروف أنه كان يعمل في خدمة أولهما في بداية أمره، وأن الثاني كان يتّخذه شاعره الخاصّ. وأن هذا وذاك كانا يقرّبانه إليهما.

حصّل العلم فترة قبل أن يصل إلى مرتبة الشعراء. وفي بلاط سنجر، نال لقب أمير الشعراء، وكان السلطان يجلّه ويناديه بأبيه، ويملأ فمه بالجواهر حين يستحسن شعره؛ فحقّق شهرة مدويّة، وأصبح يتدخّل في تقريب الشعراء من البلاط أو إقصائهم عنه.

وقد ترك لنا المعزّي ديواناً حافلاً بالقصائد والقطعات والغزليّات والرباعيّات، يشتمل ـ وفق طبعة تهران عام (١٣١٨هـ. ش = ١٩٣٩م).. التي قام بها عباس إقبال ـ على ١٨٦٢٣ بيتاً. والقراءة في مدائحه تجعلنا نضعه في مصاف أساتذة المديح، ونصنّفه مع المؤرخين. أما رثاؤه فجيّد، وهو نموذج لأول أشعار العزاء الفارسيّة. وقصائده ـ بصفة عامة ـ تتميّز بطولها وشدّة إحكامها.. وهي تشعرنا بفرط ما يبذله من جهد في صنعة التشبيه والمجاز والاستعارة. والحقّ أن جهده في مقطّعاته ومسمّطاته ورباعيّاته لم يكن بأقلّ من جهده في قصائده. فإذا ذهبنا إلى غزْليّاته وجدناها لطيفة متوسّطة البيان، ذات أفكار عاديّة. وهو يحاكي في أسلوبه أسلوب من سبقوه من شعراء خراسان، ولا يخالفهم كثيراً في الألفاظ والموضوعات، ولا يأتي بمضامين مبتكرة.

ورغم هذه النزعة التقليديّة، فإن عباراته الشائعة السهلة وصياغته القويّة الديباجة تضعه في مصافّ كبار شعراء الفرس الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس. ويمكننا القول بأنّ شعره كان يفوق شعر معاصريه ـ باستثناء الأنوري ـ خضوعاً لتأثير اللهجة العاميّة.

وقد امتدحه العديد من الأدباء والشعراء فقال بعضهم أنه أعذب شعراء الفرس قولاً وأجملهم إنشاداً؛ إذ يمتاز شعره بالروعة والجمال والفصاحة وشدة الأسر. ووضعه البعض ضمن ثلاثة شعراء استطاعوا في ثلاث دول متعاقبة أن يبلغوا مراتب العزّ والإقبال بصورة لم تتحقّق لغيرهم من الشعراء.. يشاركه في ذلك الرودكي والعنصري. أمّا عوفي فقد قال في ثقة: إنّ طفل البلاغة قد وصل حدّ البلوغ على يد المعزّي.. قاصداً بذلك أن كل أنواع التشبيهات الأصيلة المبتكرة توجد في أشعاره، تلك التشبيهات التي أصبحت فيما بعد مبتذلة مألوفة لدارسي الشعر الفارسي. ويؤكّد براون ذلك فيقول إن سائر التشبيهات التي استعملها شعراء الحبّ في غرب آسيا في عصور متأخّرة.. إنّما هي من إنتاج المعزّي فقد أبدع الكثرة البالغة منها، وكان له الفضل الأول في تقريرها واستعمالها.

إلّا أن هذا المديح لم يمنع البعض من توجيه الطعنات إلى المعزّي، فقد تعرّض هذا الشاعر لقدح الخاقاني وهجوم الأنوري. وفيما يتعلّق بالأنوري، يرى الباحثون أن بيته القائل:

* أعرف شخصاً من كبار ناظمي الشعر.. يعلق برقبته صراحة دم ديوانين ونَصّه:

كس دانم از اكابر گردن كشان نظم .. كورا صريح خون دو ديوان بگردنست

فيه تعريض بالمعزّي، واتّهام له بسرقة ديوانين من الشعر. ويزعم البعض أنّ الديوانين للفرّخي والعنصري، ويزعم آخرون أنهما لأبي الفرج ومسعود سعد. ويفهم من الخبر أنّ المعزّي قد سطا على عدة قصائد من الديوانين ونسبها لنفسه.

والحقّ أنّ رأيهم موضع شك؛ فاسم المعزّي لم يرد صراحة في البيت المذكور، بالإضافة إلى أن الأنوري يمتدح شعره، ويقتبس عنه، ويذكر بعضه في ديوانه على سبيل التضمين.

ويرجع تقيّ الدين الكاشي موت المعزّي إلى عام

(٥٤٢هـ - ١١٤٧م). ويعزوه البعض إلى سهم خاطىء فوّقه سنجر من خيمته إلى صدره دون أن يدري بوقوفه خارجها، ويقولون إنه مات على الفور. ويضع البعض تاريخاً آخر لمصرعه، ويعدّد الأسهم التي أطلقها عليه سنجر متعمّداً، ويؤكّد بقاءه على قيد الحياة مدة طويلة بعد إصابته.

والحقّ أن هناك أبياتاً للشاعر تؤكّد إصابته وأنه لم يمت على الفور، كما أنّ هناك أبياتاً لسنائي تؤكّد وقوع الحادث وترثي المعزّي. والغريب أن تذكرة الشعراء وچهار مقاله ولباب الألباب لم يرد فيها ذكر لتلك الحادثة ولم تتعرّض لتاريخ الوفاة. وقد أجاد عباس إقبال عرض هذا الأمر، ورجّح أن تكون الوفاة بين عامي (٥١٨هـ - ١١٢٤م)، (٥٢٢هـ - ١١٢٨م).

انظر:

تذكرة الشعراء، ٥٧ - ٥٨؛ تاريخ الأدب في إيران، جـ٢ (ترجمة) ٤١٦؛ چهار مقاله، ٤٩ - ٥٠؛ لباب الألباب، جـ٢، ٦٩ - ٣٠٠ - ٣٠١؛ معجم الفصحاء، جـ١، ٥٧١؛ حبيب السير، جـ٢، ٥١٧؛ بيست مقاله، جـ٢، ٧٥ - ٧٦؛ تاريخ أدبيات إيران ١٦٨، ١٧٠ - ١٧٢؛ مختارات من الشعر الفارسي، ١٤٨؛ ديوان المعزّي، تهران ١٣١٨هـ. ش = ١٩٣٩م؛ تاريخ أدبيات در إيران، جـ٢، ٥١٣ - ٥١٤؛ ديوان أنوري، تهران، ١٨ - ٥٥ - ١٩٣؛ المعجم في معايير أشعار العجم، ٤٦٢ - ٤٦٥؛ مجمع الفصحاء، جـ١، ١٥٢؛ الوزارة في عهد السلاجقة (ترجمة)، ٣٣٥ - ٣٥٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤.

١٠ - «عبد الواسع الجبلي»

لقّب بالجبلي لنشأته في ولاية غرجستان. لازم سنجر في فترة حكمه وامتدحه فنال لديه منزلة سامية، وبات يقدّمه على كثير من شعرائه. ومن أشهر قصائده في مدحه تلك التي يستهلّها بقوله:

* لما امتاز به السلطان من حب للعدل وميل إلى نشر الأمان،
شمل الأمن التذرج والفراخ البرية وحمر الوحش والنمل.. في كل مكان.

وتتضارب الأقوال حول كيفية وصوله إلى بلاط سنجر.. فمن قائل أنه ترك غرجستان - في بداية حياته - ونزح إلى دار الملك (هراة)، ثم تركها إلى غزنين حيث التحق بخدمة السلطان بهرامشاه بن مسعود، وظلّ يمتدحه طوال

أربع سنوات، فلمّا قدم سنجر عام (٥٣٠هـ - ١١٣٥م) لمحاربة السلطان المذكور. التقى به وأعجب بمديحته الجميلة المبتكرة. ومن قائل إنه كان جلفاً عاميّاً، وأن أباه كان دهقاناً، وأن سنجر قد رآه صدفة في حقل من حقول القطن كان يقوم بحراسته، واستمع إليه ينشد شطرات من الشعر على البديهة يطرد بها بعض الإبل. فاشتمّ منها لطف طبعه، وضمّه إلى شعراء بلاطه.

والقصّة الأخيرة في رأيي مختلقة، يضعفها أن سنجر - بفرض وجوده في هذا الموقف - لم يكن ذوّاقة إلى هذا الحدّ، مع ما عرف به من لسان تركيّ وأميّة اعترف هو نفسه بها.

وكان عبد الواسع يهتمّ في قصائده وغزليّاته بالصناعات البديعيّة والألفاظ أكثر من اهتمامه بالمعاني، وقد أوصل المسجّع إلى تسع قواف. كما أنه - إلى جوار نظمه للشعر الفارسي بقوالبه التقليدية - قد نظم شعراً ملمّعاً أكّد به إجادته للغة العربية.

وتدلّ قصائده على أنه كان حياً في عام (٥٤٤هـ - ١١٤٩م). ويرى البعض أنه توفي عام (٥٥٥هـ - ١١٦٠م).

انظر:

تاريخ الأدب في إيران، جـ ٢ (ترجمة)، ٤٣٠ - ٤٣٢؛ تذكرة الشعراء، ٧٣ - ٧٦؛ حبيب السير، ٥١٩؛ شعر العجم، ١٥٢؛ تاريخ أدبيات إيران، ٢٠٠؛ بهارستان، طهران، الروضة السادسة؛ الوزارة في عهد السلاجقة (ترجمة)، ٤٥٣.

١١ - «أديب صابر»

هو شهاب الدين صابر بن إسماعيل الترمذي. أمضى فترة طويلة من عمره - إبّان حكم سنجر - يتنقّل بين خراسان وبلخ ومرو.

درس على يد مربّيه أبي جعفر علي بن حسين قدامة الموسوي. وصار عالماً ماهراً وأديباً فاضلاً واسع الاطلاع، لا يكفّ عن تأمّل دواوين العرب والوقوف على حياة شعرائهم. وكان في عين الوقت ملمّاً بمبادىء الرياضة والفلسفة.

وتمتاز أشعاره بالرقّة البالغة، والجودة والفصاحة التي بلغت حداً جعل أرباب الأدب وأساتذته من معاصريه يعترفون بأفضليّته عليهم وأستاذيته لهم في عذوبة البيان وطلاقة اللسان، ويلجأون إلى أشعاره يقلّدونها أسلوباً وأفكاراً. فالأنوري على سبيل المثال ـ وهو الذي كان دائم الفخر بنفسه ـ يعترف بأفضليّة أديب عليه وعلى الشاعر العظيم سنائي وذلك في قوله:

* إذا كنت لا أشبه صابراً.. فإني على أي حال أشبه سنائي.

والنص الفارسي: چون سنائي هستم آخر گرنه همچون صابر.

كما أنّ في ديوان الأنوري أشعاراً يحكم فيها بأفضليّة صابر على رشيد الدين الوطواط، ويؤيّد البعض الأنوري فيما ذهب إليه في هذا الشأن.

ويشتمل ديوان صابر على قصائد وغزليّات وقطعات ورباعيّات تمتاز بالعذوبة والسلاسة والصفاء. ومن أشعاره الفارسيّة وأشعاره العربيّة الكثيرة تفوح رائحة الجبر، وتتبدّى قسوة الزمان، ويبرز سوء الحظ.

وكانت له صلة ببعض شعراء عهده.. فمنهم من مدح كعمادي وفتوحي، ومنهم من هجا كشمالي ورشيد الدين الوطواط.

وقد كان الصراع بين أتسز خوارزمشاه والسلطان سنجر السلجوقي وبالاً على صابر، فانقطاع المراسلات والمدائح التي كانت بينه وبين الوطواط سببه هذا الصراع، ونهايته الأليمة سببها هذا الصراع. فقد ورد في كتب السِيَر أن مولاه سنجر كان قد كلّفه بالتوجّه إلى خوارزم متنكراً ليوافيه بأخبار أتسز الذي رفع عليه علم العصيان. وأثناء وجود صابر في خوارزم علم أن أتسز سيوفد فدائيين إلى مرو لقتل سنجر. ولما كان يجيد الرسم فقد رسم صورتيهما وأرسلهما إلى مولاه، فتمكّن بذلك من القبض عليهما وقتلهما. وعلم أتسز بالدور الذي لعبه صابر فأمر بتقييد قدميه وإغراقه في نهر جيحون. وهكذا لقي مصيره الأليم عام (٥٤٦هـ ـ ١١٥١م).

انظر:

تذكرة الشعراء، ٩٢ ـ ٩٣؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٤٢١ ـ ٤٢٤؛

لباب الألباب جـ۲، ۱۱۷ ـ ۱۲۳ ـ ۱۳٤ ـ ۳۲۹؛ مقالة سعيد نفيسي في مجلّة أرمغان ـ العدد الخامس ـ السنة الرابعة ۱۳۰۲هـ، ص ۲۳۰ ـ ۲٤٥؛ مجمع الفصحاء ۳۱٤؛ مقدّمة قويم وتعليقاته على ديوان صابر الترمذي، طهران ۱۳۳۱هـ؛ تاريخ أدبيات إيران، ۱۸٤ ـ ۱۸٥؛ حبيب السير جـ۲، ٥۱۹؛ مقدّمة عباس إقبال على حدائق السحر (ترجمة ٥۳؛ ديوان أنوري، تهران، ٤۲۹؛ سخن وسخنوران، ۲٥۰ ـ ۲٥۱.

۱۲ ـ «أنوري»

هو علي بن أوحد الدين محمد بن إسحق المتخلّص بالأنوري. ولد في أبيورد التابعة لخاوران من أعمال خراسان عام (٤۹۲هـ ـ ۱۰۹۹م) على الأرجح، وقضى سنوات حياته في بلخ. تمتاز عائلته بحسبها وثرائها وعِظَم مناصب أفرادها. دفعه والده في طريق العلم بكلّ قواه وثروته فألمّ بمعظم العلوم الشائعة في عصره دينيّة ودنيويّة. ويخطىء من يحكم بأنه قد درس بالمدرسة المنصوريّة بطوس قبل أن يلج من باب الشعر.

ورث الكثير عن أبيه، لكنه أضاعه بتبذيره في مدّة قصيرة.. مما اضطره إلى دخول ميدان الشعر في سنّ العشرين، والتنقّل بين البلاطات للتكسّب. وكان اهتمامه بالشعر ـ أول الأمر ـ يواكب اهتمامه بالعلم، وكان أبو الحسن العمراني أبرز ممدوحيه.

لما بلغ الثلاثين بات نديماً وشاعراً للسلطان سنجر إثر خداعه للمعِزّي أمير الشعراء ـ وفق قول كتّاب السِيَر ـ فقد أوهمه بأنه شاعر بسيط لا يجيد النظم، فلما قدّمه للسلطان خلب لبّه بقصيدة رائعة أكسبته رضاه وتقديره.

ويذكر الكتّاب قصّة أخرى ترسم كيفية وصوله للسلطان سنجر، مفادها أنه رأى موكب أحد شعراء البلاط فهالته عظمته، وقرّر هجر العِلم والاشتغال بالنظم، فصاغ في ليلة واحدة قصيدة ألقاها على مسامع السلطان صبيحة اليوم التالي، فقرّبه إليه، وصار يعوده في مرضه ويصحبه في حروبه ورحلات صيده، ويجلسه إلى جانبه في مجالسه ويناديه بأخيه.

وامتدح الأنوري العديد من العظماء ونعم بعطاياهم وما خصّصوه له من

رواتب ثابتة. وأفرد له البعض حجرات في قصورهم لينالوا مديحه أو يدفعوا هجاءه.. إذ صار في ظلّ رضاء مولاه وحمايته يهجو من يشاء من عظماء المملكة وأعداء السلطان بما فيهم أتسز خوارزمشاه صاحب الجاه والسلطان. وصارت دار الأنوري كعبة القصّاد، وغصّت بالغلمان والدواب وكلّ ما يحتاجه. واندفع في طريق المجون دون زوجة. ثم تزوّج وأنجب، فلما ماتت زوجته فقد استقراره العائلي. وحاول استعادة هنائه العائلي فاقترن بأخرى، لكنه فجع بخيانتها واضطر لتطليقها. وفي ظلّ حالته النفسية انطلق يسبّ النساء ويلعن الزواج ويحثّ المتزوّجين على الطلاق وينعت المتزوّج بالديوث. وعاد إلى حياة الرذيلة علّه يجد في أحضانها ما يسرّي عنه.

ورغم ثرائه وشهرته لم يكن يكفّ عن إظهار سخطه وذمّ زمانه، فهو يرى أن موهبته أكبر من حظّه، وأن فنّه وعلمه لا يقابلان بما يستحقّانه من التقدير. وقاده السخط إلى ذمّ معاصريه والإشادة بنفسه ومواهبه.

وقد تعرّض الأنوري للكثير من الصدمات، إذ فقد ممدوحه العمراني حين قتله سنجر عام (٥٤٥هـ - ١١٥٠م)، وفقد حماية سنجر حين وقع في أسر الغز عام (٥٤٨هـ - ١١٥٣م)، وفجع بموت ممدوحه أبي الفتح طاهر أكبر وزراء سنجر في نفس العام، واضطرّ لمدح رؤساء الغز أعداء البلاد، وكاد يهلك على يد علاء الدين ملك الجبال.. لولا تحذير أحد أصدقائه له.

وبنجاة سنجر وعودته إلى مرو صفت الدنيا للأنوري، لكنّه تعرّض لسخط مولاه إثر تنبؤه عام (٥٥٢هـ - ١١٥٧م)، بأنّ قراناً سيحدث بين النجوم. تنتج عنه ريح عاتية تجلب الدمار والقحط والغلاء. ولمّا لم تتحقّق النبوءة عاتبه سنجر، فطلب مهلة، فلما مضى عام ولم تتحقّق لامه السلطان ثانية، وعاتبه العظماء وسخر منه الشعراء، فترك مرو إلى نيسابور، ولمّا مات سنجر ترك نيسابور إلى بلخ.

وكاد البلخيون أن يقتلوه حين شاع بينهم هجاء منظوم يتناولهم وبلادهم بالقدح. ثم استبدلوا بالقتل الطرد بعد أن تدخّل بعض أصدقائه، ودافع هو

عن نفسه وامتدح بلخ وأهلها. ولما تأكّد لهم أن الشاعر فتوحي هو ناظم الأبيات سمحوا للأنوري بالعودة إلى ديارهم، فبقي بها معتكفاً، وعاش فيها عيشة المتصوّفة بعيداً عن القصور والأضواء إلى أن مات ودفن بها في عام (٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م) على الأرجح. . عن عمر يناهز الثالثة والسبعين.

وكان الأنورى يعرف الكثير من العلوم، ويتقن فَنَى الموسيقا والخط. وكان من أصحاب اللسانين. . تشهد بذلك ملمعاته وكثرة ما استخدم من ألفاظ عربية وما استعمل من استشهادات اقتبسها من القرآن الكريم. غير أنه لا يوجد في ديوانه ـ ولا في أي كتاب تناول سيرته وإنتاجه ـ ما يشير إلى أنه ألف ديواناً أو منظومة عربية. أما مؤلفاته النثرية ـ بفرض وجودها ـ فقد ضاعت.

وكان لتنوّع دراساته وثقافته قادراً على ابتكار المضامين والصور في شعره، غير أن هذه الدراسات العديدة وتلك الثقافة الواسعة كانت هي نفسها السبب في غموض الكثير من معاني أبياته وصعوبة فهمها. وأشعاره تكشف عن حبّه للمال ومباهاته بالمعاصي، وتثبت إدمانه الخمر، وعشقه الغلمان، واتّجاره بالجنس، وتعصّبه لجنسه، وافتقاره لخلّة الوفاء، وإسفافه في الطلب إلى حدّ الاستجداء، لكنها تكشف أيضاً عن استعداده للصفح، وبغضه التكلّف والنفاق، وتثبت جراءته وصراحته، واستعداده للاستفادة من علم غيره وإفادة غيره بعلمه.

وتعكس أشعار الأنوري سنيّته وأشعريته وإيمانه بالجبر.

وتتعدّد نسخ ديوانه الخطيّة والمطبوعة، وتصل الأبيات في ديوانه ـ طبعة تهران ـ إلى ١٤٧٢٢ بيتاً. كما أن هناك أكثر من مؤلَّف وضعت لشرح ما غمض من معاني أبيات ديوانه وألفاظها.

ومن القوالب الشعرية (الضروب) التي استخدمها الأنوري: القصيدة والقطعة والغزل والمثنوي والرباعي والملمّع. . والقصيدة أكثرها استخداماً. وكل قصائده في المديح باستثناء قصيدتين في الرثاء وواحدة في التوحيد. وهو جدير بلقب الأستاذية في فنّ القصيدة ويستحقّ أن يوصف بأنه نبيّها

بسبب ما ابتكره فيها من أسلوب لم يسبقه إليه أحد.. يتمثّل في استخدامه لغة سهلة تصل إلى مرتبة اللهجة العاميّة أو اللغة الدارجة.

ويرى البعض أن شهرته تعود إلى قصائده المديحية، والحقّ أنه كان مجيداً في قصائد المديح وغير المديح.. فقد حشد في كل منها جميع العناصر التي تكفل لها النجاح.

وهو في قطعاته يبدو في صورة المصلح الاجتماعي، ويستغلها في نظم المديح والهجاء والغزل والحكم والوصف والرثاء والفخر والفكاهة والشكر والتهنئة وغيرها من الأغراض.. على نحو قلّ من استطاع بعده أن يبلغ فيه مستواه.

والأنوري مُقِلٌّ في مثنويّاته.. فهي ستّ منظومات مثنويّة في موضوعٍ واحدٍ يهجو فيه «تاج الدين عمزاد البلخي» هجاءً بشعاً يستغلّ فيه العبارات المكشوفة والألفاظ البذيئة.

وتمتاز غزليّاته باللطافة والرقّة، ويعيبها تشابهها ومعانيها المتكرّرة المطروقة.. لكنّها على أيّ حال تعبّر بصدق عن مشاعره وأحاسيسه.

وتتلاقى رباعيّاته مع مقطّعاته في تعدّد الموضوعات والأغراض.. على نحو يميّز الأنوري عن غيره ممن نظموا في هذين القالبين. ويمكن القول بأن كل رباعيّة له في الغزل تصلح لأن تكون نواة لغزليّة تامة. أما رباعيّاته بوجه عام فإنّها قويّة التركيز كاملة المعنى واضحة التأثير مشحونة بالأحاسيس والانفعالات الصادقة.

والملمّعات عند الأنوري قليلة، فنحن لا نراها في ديوانه إلاّ في سبعة مواضع. وتتنوع الأغراض الشعريّة في منظوماته.. فهو ينظم في المدح والهجاء والغزل والفخر والرثاء والوصف والوعظ والحكم والإخوانيات والزهد والتصوّف والتشبيب بالمذكّر والتأريخ وتسجيل الأحداث. ويهتمّ الأنوري دائماً بأن ينفي عن نفسه أن يكون قد تأثّر بأسلوب غيره، فهو دائماً ما يؤكّد أن أسلوبه يفضل أسلوب كل معاصريه. وهو إلى جوار ذلك لا يقرّ السرقات

الشعريّة، ويهاجم من يسطون على أفكار غيرهم. غير أن أشعاره تؤكّد أنه كـان يـتجـوّل فـي دواويـن الـعـديـد مـن شـعـراء الـفـرس السـابقين عليه والمعـاصرين لـه، مما جعـل معـاني بعض منـظومـاتهم وأساليبها وأفكارها تنعكس في شعره. كما تؤكّد أشعاره أنه قرأ الكثير من دواوين العرب وكتبهم وتأثّر بها إلى حدّ أن بات أسلوبه أقرب إلى الأسلوب العربي، وبدت أبياته وكأن مفرداتها الفارسيّة قد صبّت في قالب عربيّ، بالإضافة إلى انعكاس معاني من قرأ لهم وأفكارهم في شعره.

وكما تأثّر إنتاجه بإنتاج غيره.. فقد أثّر بدوره في إنتاج معاصريه ولاحقيه، فوجدنا أفكاره ومعاني أبياته في منظوماتهم، وتساوى في ذلك كبار الشعراء وصغارهم.

وتشهد أشعاره بأنّه كان على دراية وفهم بأصول البلاغة وفنونها، فقد طرق في ديوانه ما يقرب من أربعين فناً بلاغياً. والنظر في ديوانه يقنعنا بأنه كان ابن بيئته، وصاحب نفسيّة حسّاسة سريعة الاستجابة والتأثّر، كما يقنعنا بأنه كان صورة حيّة للشاعر المتعلّم المثقّف الذي يسخّر علمه وثقافته لخدمة شعره.

وعلى أية حال فقد أعانته إمكانيّاته العديدة على إبراز ما قصد إليه من معان في أشعاره.. وذلك في أسلوبه المبتكر، مما ساعد على بقائها، وإدماجها ضمن التراث الفنيّ الفارسيّ.

انظر:

الأنوري: عصره وبيئته وشعره (رسالة دكتوراه)؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٣٣٤ - ٣٤٥؛ شعر العجم ١٩٤ - ١٩٧؛ ديوان أنوري، تهران، صفحات متفرقة؛ شرح مشكلات ديوان أنوري، ١٣٠ - ١٣٦ - ١٦٨ - ١٦٩ - ٢٥٢ وغيرها؛ مجمع الفصحاء، ١٥٢؛ تاريخ أدبيات إيران، ١٧٦ - ١٧٧؛ لباب الألباب جـ٢، ١١٧ - ١٢٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ٣٣٤ - ٣٤٢ - ٣٤٣؛ حبيب السير جـ٢، ٥٣٢، جـ٤، ١٠٣، ١٠٤؛ مقدمة سعيد نفيسي على ديوان أنوري، تهران؛ آثار البلاد، وستنفلد، ٢٤٢، تحت كلمة خاوران؛ مجلة دانشكدهٔ أدبيات، شمارهٔ جهارم - سال دوم، تيرماه، سال ١٣٣٤هـ ١٦ - ٥٢؛ گلستان سعدي، ط ٢، ٢٢٥ - ٢٢٧؛ تذكرة الشعراء، بمباي، ٤٢ -

ليدن، ٨٣ ـ ٨٦؛ بهارستان، ڤينا، ٩١ ـ ٩٣؛ هفت إقليم، كلكته، ٣٦ ـ ٣٧؛ تاريخ گزيده، طبعة جب، ٤٧٤؛ الكامل، حوادث ٥٨٢هـ؛ تاريخ أدبيات در ايران جـ ٢، ٦٦٣ ـ ٦٦٨؛ نزهة القلوب، طبعة جب، ٧٨؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٤٦١ ـ ٤٦٢ ـ ٤٦٩ ـ ٤٧٣.

Anthologie Persane, pp. 59, 60 (Paris, 1950).

١٣ ـ «رشيد الدين الوطواط»

هو الأديب الكاتب الشاعر الأمير الإمام رشيد الدين سعد الملك محمد بن محمد بن عبد الجليل الكاتب العمري، أحد حفدة عبدالله بن عمر بن الخطاب. ولد في بلخ، واختلف المؤرخون في تاريخ ولادته، والأرجح أنّه بين عامي ٤٨٠، ٤٨٧ هـ (١٠٨٧ م، ١٠٩٤ م).

تعلّم في مدرسة بلخ، ودرس على يد الإمام أبي سند الهروي، وظل وفياً له يبالغ في مدحه في رسائله. ثم ترك بلخ إلى خوارزم، والتحق بخدمة أتسز بن قطب الدين محمد خوارزمشاه عام ٥٢٢ هـ = ١١٢٨ م، وبقي طوال عمره في خدمة الخوارزمشاهيين، وبلغ في عهد أتسز منصب رئيس ديوان الرسائل.

وتدلّ الأخبار على أنّه كان شديد الولاء لأتسز. ينادمه ويجالسه ولا يكاد يفارقه. وكان سيِّده هذا يتلذَّذ بالنقاش معه، وكانت بينهما مطايبات ومداعبات. وقد أكثر الوطواط من مدحه بالشجاعة، ومهاجمة خصومه ومن بينهم السلطان سنجر وشاعر بلاطه: الأنوري. وقد أثَّر ذلك في نفس سنجر فقرَّر أن يمزِّق جسده إلى سبعة أجزاء، ولم يثنه عن عزمه سوى شفاعة البعض له أو شفاعته لنفسه.

وكان رشيد الدين حقير الجثَّة ضعيف البنيان مما جعلهم يسمُّونه: الوطواط. كما كان أقرع الرأس، سليط اللسان، كثير الخصوم، حاضر البديهة، كيّساً فطناً، بليغاً.

وكان فيما ينظمه أو ينثره ـ بالعربيَّة أو الفارسيَّة ـ يميل إلى الصناعات

البديعيَّة المتكلفة مع سلاسة بيان وسلامة لفظ ونضوج فكر. وتشهد آثاره بتبحّره في الأدب والفلسفة.

وقد اشتهر بين قرَّاء العربية بمنشآته البليغة، فقد خلَّف ١٧٦ رسالة بالعربيَّة.. بعضها من النوع الذي يعرف بالرسائل السلطانيَّة، وأكثر مما يسمَّى برسائل الإخوانيّات، وقد نشرها محمد أفندي فهمي في مصر عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٦م. في مجلدين. أما رسائله الفارسيَّة فإنَّها لم تجمع للآن.

ومن مؤلَّفاته أيضاً:

١ ـ ديوان أشعار بالفارسيَّة تبلغ أبياته الخمسة آلاف بيت تقريباً، وقيل إنَّها كانت سبعة آلاف وقيل خمسة عشر ألفاً.

٢ ـ كتاب حدائق السحر في دقايق الشعر. ألَّفه على غرار ترجمان البلاغة للفرّخي، وعرَّف فيه بالمحسنّات البديعيَّة مع التمثيل نثراً وشعراً بالعربيَّة والفارسيَّة، والاستشهاد بأشعاره وأشعار سابقيه. وأصل الكتاب لعمرو بن الجاحظ (ت ٢٢٥ هـ = ٨٦٨ م)، وقد طبع مراراً ولُخِّص وطبع التلخيص، وترجم للعربيَّة.

٣ ـ فصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب..

٤ ـ تحفة الصديق إلى الصديق من كلام أبي بكر الصدِّيق.

٥ ـ أنس اللهفان من كلام عثمان بن عفَّان.

٦ ـ نثر اللآلي، من كلام أمير المؤمنين علي، ويسمَّى كذلك: صد كلمه، كما يسمَّى مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب.

٧ ـ منظومة في العروض الفارسيّ، تشمل على ١٦ بحراً من بحور العروض المطروقة في الشعر الفارسي. وعشرات الكتب الأخرى.

وكان الوطواط يجاري معاصريه في التعصُّب لأمور الدين ومهاجمة الفلاسفة وحكماء اليونان. وكان الأنوري يعيب عليه ما يسود شعره من تكلُّف وصناعات تبعده عن التأثير في نفس القارىء أو السامع، لكنَّه مع ذلك يراه أكثر أستاذيَّة من صابر من حيث الفصاحة والأدب والبلاغة.

وقد عمد العديد من الشعراء إلى مهاجمته لمغالاته في مدح نفسه، ولأنّه كان يعتبر سائر الشعراء عالة عليه. والقارىء لقصائده يحسُّ تلك الخلّة فيه، فمعظمها من نوع الفخريّات والمبالغات الشائعة في تلك العصور، بل إنّه كان يفخر بكونه أوّل من أنشأ قصيدة كاملة يدخل الترصيع كلّ أبياتها، رغم أنّ البعض لم يكن يستسيغ منه ذلك.

وفي نهاية حياته، وبعد أن قضى ثلاثين عاماً يخدم في ديوان الإنشاء متسنّماً أرفع المناصب. غضب عليه أتسز ـ نتيجة الوشايات ـ فأقصاه عنه. ولم ينل عفوه بغير القصائد والقطعات الحافلة بعبارات الاسترحام والاستعطاف. ويقال إنّ العمر طال به إلى أن أدرك حكم السلطان شاه أيل أرسلان بن أتسز. وانتهى به الأمر إلى اعتزال خدمة سادته وانشغاله بعبادة خالقه إلى أن مات في خوارزم أو خيوه عام (٥٧٣ هـ ـ ١١٧٧م) على الأرجح.

انظر:

تذكرة الشعراء، ليدن، ٨٧ـ٩٢؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة ٢٨٧، ٤١٧ ـ ٤٢١)؛ تاريخ جهانگشا، جـ٢/، ٦، ٧، ١١، ١٢ ـ ١٨؛ حدائق السحر (ترجمة) ٣، ٨، ٩، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٦١ ـ ٦٦؛ معجم الأدباء جـ٧، ٩١؛ مجموعة الرسائل العربيّة للوطواط، مصر، جـ٢، ٢٩، ٣٠؛ سخن وسخنوران، ٤٣٩؛ تاريخ أدبيات إيران ١٨٦؛ آثار البلاد، جوتنجن، ٢٢٣ ـ ٢٢٥؛ لباب الألباب ليدن جـ١، ٣٦؛ مقدّمة ديوان الأنوري، تهران، نقلاً عن تاريخ الألفي، ٣٩؛ تاريخ أدبيات در إيران جـ٢، ٣٦٢، ٦٣٣؛ سيك شناسي، ٤٠٠؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٣٥٢ـ٣٥٦؛ الوزارة في عهد السلاجقة (ترجمة) ٤٣٣.

١٤ ـ «عمعق البخاري»

أبو النجيب شهاب الدين عمعق البخاري، أحد أساتذة ما وراء النهر، الذين ذاعت شهرتهم في أوائل القرن السادس الهجري. إتّصل بالسلطان سنجر وامتدحه ونال عطاءه. وارتبط بالأمير خضر خان ـ أحد أمراء الإيلك خانيين في ما وراء النهر وتركستان ـ واكتسب ودّه ورضاه فأصبح أبرز شعراء الدولة وامتلك الغلمان والجواري والجياد والأموال والقصور، وحظي باحترام

الجميع، وخطب ودّه الشعراء.. باستثناء الشاعر رشيدي السمرقندي ـ أحد شعراء بلاط خضر خان ـ فقد هجاه وتعرَّض لهجائه.

وقد عرف الكثيرون قدره فأطلق عليه نظامي لقب: «الأمير عمعق»، وأطلق عليه أمين أحمد الرازي لقب: «سلطان العلماء» واستشهد الوطواط بأشعاره في كتابه: «حدائق السحر في دقائق الشعر»، وأقرّ له الأنوري بالأستاذية وأسماه: «أستاذ الكلام» حين قال:

* وكما قال أستاذ الكلام عمعق:

أيتها الريح احملي التراب الملوَّث بالدم إلى أصفهان.

ونصّه:

هم بـر آنگونه كه استاد سخن عمعق گفت

خاك خون آلـود، أي باد، بـاصفهان بـر

كان شعره غاية في العذوبة والسلاسة، وما كان منه مصنوعاً قد أوقع الأساتذة في حيرة. وتشهد قصائده المشحونة بألوان الصناعات والنظرات الفلسفيَّة العلميَّة بأنَّه كان متبحّراً في العلوم المتداولة في عصره. وقد نظم قصة يوسف عليه السلام بحيث يمكن قراءتها في بحرين من بحور الشعر. وكان دقيقاً في تشبيهاته، سليم الذوق، جزل اللفظ واضح الفكرة، يخلو كلامه من الإبهام ويفيض رقَّة وإحساساً.

ومن أسباب شهرته سلوكه طريقة جديدة في قصائده، وهي وصف خيالاته الشعرية على نحو يجعلها تنبض بالحركة وتفيض بالحياة، وتبدو وكأنَّها تتكلَّم.

هذا ولعمعق يد بيضاء على المرثية وطريقة نظمها. وقد استدعاه سنجر في عام (٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م) لرثاء ابنته ماه ملك خاتون، فكتب مرثية وأرسلها إلى السلطان معتذراً عن عدم الحضور بكبر سنّه وعماه.

ويقال إنَّه انزوى في أواخر أيامه، وكان يرسل ابنه «حميدي» إلى

مجالس السلاطين بدلاً منه، بعد أن تجاوز المائة من عمره.

كانت وفاته في عام ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م على الأرجح، وقد خلَّف من بعده ديواناً زاخراً بالقصائد والرباعيَّات والقطع.. كان يشتمل في البداية على سبعة آلاف بيت، لم يبق منها سوى ٦١٤ بيتاً.

انظر:

چهار مقاله: ٣٩، ٤٠؛ تذكرة هفت إقليم، ضمن فهرست أسامي الشعراء.. في شرح عمعق؛ تذكرة الشعراء، ليدن ٦٦ ـ ٦٧، بمباي، ٣٥؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٣٧٣/٤٢٣/٤٢٤؛ ديوان أنوري، تهران، ١٠٨؛ تاريخ أدبيات دير إيران جـ ٢، ٣٣٩/٥٤١؛ سخن وسخنوران، ٢٤٥؛ آتشكده، بمباي، ٣٢٢.

١٥ ـ «سوزني»

شمس الدين تاج الشعراء محمد بن علي السوزني، وكنيته أبو بكر السلماني.. نسبة إلى سلمان الفارسي. كان أبوه ـ وفق ما ورد في شعره ـ يدعى مسعوداً.

ولد السوزني في النسف قرب سمرقند، وقيل في قرية من توابع سمرقند. ثمَّ نزح إلى بخارى ودرس فيها. وعشق صبيّ أحد الخياطين فانطلق لسانه بالشعر لفرط عشقه، ولهذا السبب أيضاً اشتهر بسوزني.

درس علوم الدين ـ في مقتبل عمره ـ كالأخبار والتفسير والحديث.. ولم يتجاوزها، فانعكس ذلك على نتاجه الشعري إذ كان سهل الأسلوب عذبه، بحيث لا يوجد في ديوانه كلّه بيت واحد معقَّد.

وتتّضح الروح المذهبيَّة في أغلب أشعاره، وتظهر فيها معاني الحديث والتفسير. وكان السوزني يكثر من استعمال المفردات العربيَّة نتيجة إتقانه لهذه اللغة.

يشتمل ديوانه على عدَّة لغات فارسيَّة، ويستعمل في منظوماته مفردات لغويَّة يأخذها عن لهجات محليَّة. ولهذا يعدّ منبعاً من منابع الثقافة الفارسيّة.

وهو رغم اعترافه بأستاذيّة المعزّي وحبّه لطريقته لم يكن يقلّده تمام التقليد. أما هو فله حق الأستاذيّة على تلاميذ منهم لامعي البخاري وجنّتي والنسفي وشمس حاله وشطرنجي.

وشعر السوزني في شبابه غيره في أواخر حياته.. فقد كان في شبابه يخرج عن حدود العفّة في محاولة للهزل والمزاح، ورغبة منه في الهجاء والتجريح، ولميله للدعابة والمرح والهزل صار عرضة لهجاء بعض الشعراء، وكان ردُّه عليهم أعنف وأقسى. ويقال إنّه هو الذي حرّض الشاعر فتوحي ليدسّ شعراً للأنوري في هجو بلخ.. مما تسبب عنه ما حاق بالأنوري من مهانة وما تعرَّض له من خطر.

وقد أبدع في هجائه معاني خاصّة ومضامين بديعة، وإن استخدم أقسى الكلمات للوصول إلى هدفه. والقسم الأكبر من شعره في هذا اللون.

ولم يكن يعمد إلى الطلب من ممدوحيه إلّا نادراً، كما كان قليل المبالغة نسبياً في المديح، وكان يعمد ـ في بعض الأحيان ـ إلى توجيه الملوك والسلاطين إلى حسن السلوك، ومراعاة الرعيَّة وبسط بساط العدل والإنصاف.

وكان في الفترة الأخيرة من حياته يميل إلى نظم أشعار جديَّة، ويستغفر ربه عمَّا بدر منه وقد شفع توبته بالحجّ. وأنشأ قصائد غرَّاء في التوحيد والنصائح والزهد والمعرفة.

ويرى البعض أنَّ الله لا بد وأن يكون قد عفا عنه لقوله:

* جئت إليك ربّي بأربعة أشياء لست تملكها..
العدم والحاجة والذنوب والآثام.

وقد اختلف الباحثون في تاريخ وفاته، فقيل إنَّه توفي في سمرقند في عام ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م وقيل في عام ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م.. ولكن المؤكّد ـ طبقاً لأشعاره ـ أنه كان حياً حتى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٤ م. وتقع مقبرته قرب

مزار العالِمَين الإمامين أبي منصور الماتريدي وشهاب الدين أبي حفص بن عمر النسفي.

انظر:

تذكرة الشعراء، ١٠٠ - ١٠٣؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة)، ٤٣٣ - ٤٣٥؛ تاريخ أدبيات در إيران، جـ٢، ٦٢٢؛ تاريخ أدبيات إيران، ١٩٩؛ حبيب السير جـ٢، ٥١٩؛ سخن وسخنوران، ٣٣٥، ٣٦٨، ٣٦٩، بهارستان، تهران، الروضة السادسة.

١٦ - «خاقاني»

هو أفضل الدين بديل (ويقال إبراهيم) بن علي الخاقاني. كان يتخلَّص في بداية حياته بحقائقي ثم غير تخلّصه إلى خاقاني بناء على ترخيص من الخاقان الكبير الملك منوچهر.

ولد في بداية القرن السادس الهجري في گنجة، ونشأ في شروان حيث درس وحصّل العلم في فروع اللغة العربيَّة، وفي الطب والنجوم والفلسفة. واتخذ من أبي العلاء الگنجوي أستاذاً له في الشعر. وأحب الأستاذ تلميذه فزوَّجه ابنته، وقدَّمه إلى مولاه منوچهر شروانشاه، فاتَّصل به كما اتصل بابنه اختسان.

ومن المؤسف أن تطاول التلميذ على أستاذه بعد ذلك وعمد إلى هجائه، مما جعل أستاذه يردّ عليه ويجرِّحه.

وكان الخاقاني كثير الأسفار. وقد ألَّف مثنويّته الشهيرة (تحفة العراقين) أثناء وجوده في العراق، وقسَّمها إلى خمس مقالات، وقدَّمها إلى محمد بن علي الأصفهاني الملقَّب بالوزير جمال الدين. وأثناء وجوده في أصفهان تعرَّض لشيء من سوء الحظ؛ فقد دسّ عليه تلميذه مجير الدين البيلقاني رباعيّة مليئة بالسباب الموجّه إلى أهل أصفهان، فجعلهم يثورون عليه، مما اضطره إلى مدح البلاد وأهلها ليتخلَّص من مأزقه، وليوقف سيل القصائد اللاذعة الذي بدأه الشاعر جمال الدين عبد الرزَّاق ضده.

وسعى الوشاة لدى اختسان حتى أوغروا صدره على الخاقاني، فأمر بحبسه. ولبث الشاعر في سجنه فترة يقدِّرها البعض بخمسين سنة. ويقال إن اختسان غضب عليه لمدحه سنجر وغيره. وفي سجنه، جادت قريحته بمنظومات عديدة من أشعار الحبسيَّات.

وتعتمد شهرة الخاقاني على قصائده أكثر من اعتمادها على غزليَّاته ورباعيَّاته ومثنويَّاته على كثرتها. وله إلى جوار الأشعار الفارسيّة أشعار عربيّة. وتكثر في منظوماته التشبيهات الطريفة والأوصاف اللطيفة والعبارات الجيّدة والمعاني القيّمة.. إلاَّ أنَّه كان مع ذلك يتعمّد التصنّع والتكلّف، مما يُسلم أشعاره إلى التعقيد ويجعلها في حاجة إلى شروح وتأويلات.

وكان على أي حال شاعراً تقليدياً يقتفي خطى سنائي، وإن جاء بمعان جديدة وتراكيب مبتكرة وعبارات منتقاة.. في بعض الأحيان. كما أنَّه كان كثير الفخر بنفسه وإنتاجه الشعري الذي ضمَّنه ديوانه.

والدارس لأشعاره يحسّ إبداعه في المديح، واستعداده الجيِّد في الغزل، ورقَّة إحساسه، وبعده عن الاصطلاحات الصعبة والصناعات البديعيَّة الكثيرة في الرثاء.

وهناك خلاف حول تاريخ وفاته، والأرجح أنه مات في تبريز ودفن بها في مقبرة سرخاب عام ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م.

انظر:

تاريخ أدبيات إيران (ترجمة)، ٩٤، ١٦٢؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢، ٤٩٥؛ شعر العجم، ١٦٧، سبك شناسي، ١٦٦؛ ديوان خاقاني، تهران ١٣١٦ هـ. ش؛ دانشمندان آذربيجان، ١٢٩ ـ ١٣٢؛ تحفة العراقين، لكنو ١٢٩٤ هـ.

١٧ ـ «فخر الدين الجرجاني»

فخر الدين أسعد الجرجاني أحد مشاهير الشعراء في القرن الخامس الهجري. عمل في بلاط السلاجقة لدى طغرلبك وحظي بعطف وزيره أمين

الدين أبي الفتح المظفَّر النيسابوري.

ترجع شهرته إلى قصّته المنظومة ذات الأصل البهلوي (ويس ورامين) التي نظمها بتشجيع من هذا الوزير في عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وأهداها إليه. وقد طبعت هذه القصّة لأوّل مرّة في عام ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م ونشرت ضمن منشورات المكتبة الهندية. وينسبها دولتشاه إلى نظامي العروضى السمرقندي، وينسبها غيره إلى نظامي الگنجوي. والحق أنَّ هناك تشابهاً بين هذه القصّة وقصّة خسرو وشيرين التي نظمها نظامي الگنجوي من عدّة وجوه.

وعلى أي حال فإنَّ هذه المنظومة تعتبر أولى المنظومات التي انقسم الشعر المثنوي بوجودها إلى قسمين متمايزين من الشعر:

١ ـ شعر مثنوي خصّص له وزن الهزج.. تصاغ فيه قصص الحبّ والغرام.

٢ ـ شعر مثنوي خصّص له وزن المتقارب تصاغ فيه قصص الملاحم والبطولات.

ويقرِّر عوفي أنّه لم يعثر لهذا الشاعر إلاَّ على خمسة أبيات، بالإضافة إلى أشعاره التي في هذه المنظومة. وهذه الأبيات تبرز ألمه لما أصابه من مولاه ثقة الملك شهريار من عدم تقدير ورعاية، وتنتهي بسبّه. ومن نظمها يتضح أنَّ أسلوب هذا الشاعر كان سهلاً للغاية وأنه كان على علم بعلوم الحكمة.

هذا وقد توفي فخر الدين في أواسط القرن الخامس الهجري، ولم يحدد تاريخ وفاته.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٣٠، ٦٠؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة) ٣٤٢، ٣٤٣؛ لباب الألباب جـ٢، ٢٤٠؛ تاريخ أدبيات إيران، ١٧٤؛ ويس ورامين، نشر المكتبة الهندية، ١٨٦٥ م.

١٨ ـ «ظهير الدين الفاريابي»

اسمه أبو الفضل طاهر بن محمد ظهير الدين الفاريابي. ولد في قصبة فاریاب بلخ حوالي عام ٥٦٢ هـ = ١١٥٦ م. ودرس في شبابه الشعر والآداب والعلوم واللغة العربيَّة. كان كثير التنقّل، يسعى وراء العظماء ويمتدحهم لينال عطاياهم. وفي سبيل ذلك نزح من فارياب ـ في بداية حياته ـ إلى نيشابور ودخل في خدمة طغان، ومن قبله في خدمة إصبهبد مازندران المسمَّى حسام الدولة أردشير بن الحسن. ثمَّ ترك نيشابور إلى العراق ومنها إلى آذربيجان، وقد دخلها في عصر الأتابك قزل أرسلان بن الأتابك إيلدگز. وبعد أن مدح قزل أرسلان فترة.. فرَّ منه ولحق بأبي بكر بن محمد بن إيلدگز ـ لحبّه إياه ـ وكال له المديح.

كان دائم الفخر بعلمه، يرى أن قرض الشعر أقلُّ مواهبه، ويردد أنَّه اضطر إلى نظمه لكسب قوته، ويقول إنَّ الغزل أفضل ألوان الشعر. غير أنَّه لا يمكن لشاعر متكسِّب أن يعتمد عليه. ويعدُّ ظهير أستاد الرشيدي السمرقندي ناظم قصّة (مهر ووفا). وقد بلغ منزلة عالية بين الشعراء، واشتهر ديوانه في عهده إلى حدٍ كبير، حتى قال البعض في حقّه:

«اسرق ديوان ظهير الفاريابي ولو كان بالكعبة».

وقد بالغ عوفي في مدح شعره فقال: «إنَّ لشعره من الرقَّة واللطف ما ليس لشعر غيره من الشعراء». والديوان يشتمل على قصائد ومقطّعات وغزليَّات ورباعيَّات، ويبلغ عدد أبياته ٣ آلاف بيت، وقد طبع على الحجر في لكنو عام ١٢٩٧ هـ = ١٨٨٩ م، ولم ترتّب القصائد فيه وفق الترتيب الزمني أو الأبجدي. وقد امتدح الكثيرون أشعار الخاقاني ووصفوها بالطرافة.. حتى أن دولتشاه قد اعتبرها أرقّ وأدقّ من أشعار الأنوري، وإن كان الجدل الذي أثير حول هذا الموضوع واشترك فيه مجد الدين همگر وإمامي وغيرهما قد أكّد لنا ـ بإجماع آراء النقاد ـ أن الأنوري يفضل ظهيراً. كما أنَّ مثل هذا الجدل يؤكّد حقيقة هامَّة وهي أنَّ أشعار ظهير كانت في وقت

ما محل اهتمام الناس وتقديرهم.

وقصائد ظهير في جملتها تخلو من الأقوال العنيفة والتهكّمات اللاذعة والأحاسيس النفسيَّة العميقة التي تضفي الكثير من الروعة على قصائد الأنوري مثلاً. ويرى البعض أنَّ أفضل قصائده هي التي عارض بها قصائد الأنوري وخاقاني.

هذا، وتبلغ قصائده ومقطَّعاته وغزليَّاته ١٨٥ منظومة، وتبلغ رباعياته ٩٧ رباعيّة ولا توجد في ديوانه كلّه سوى مثنويّة واحدة في مدح قزل أرسلان. وهو في شعره يعمد إلى الاستجداء ويلح في الطلب. ورغم قلّة هجائه فإنَّه يعمد أحياناً إلى الهجاء ليهاجم من لا يعطيه، أو ينظم الشعر في تحقير بعض الشعراء.

اعتزل قصور العظماء ـ في أواخر حياته ـ وهجر شعر المديح، وشغل بالطاعة والعلم، وترك الخمر والملذّات، ولم يعد يغادر تبريز. لكن قصائده رغم هذا الاتّجاه تخلو من كل أثر للتديّن، ومن كل ما يشعرنا بأنّه أحسن التعبّد وأخلص التزهّد.. وربما يكون قد اعتزل الشعر كليّة بعد اعتكافه.

هذا وقد كان الشاعر سنيّ المذهب.. يعكس ذلك في أشعاره. وقد مات إبان حكم الأتابك إينانج بن قزل أرسلان عام ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م، ودفن بجوار الخاقاني في مقبرة سرخاب بتبريز.

انظر:

تذكرة الشعراء، ١٠٩ ـ ١١٤؛ لباب الألباب؛ ٢٩٨ ـ ٣٩٧؛ تاريخ أدبيات إيران ١٨٨، تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٥٢٥، ٥٣١، ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٤٠؛ ديوان ظهير الدين فاريابي، لكنو، ١١٦.

١٩ ـ «نظامي الگنجوي»

نظام الدين أبو محمد الياس بن يوسف بن زكي مؤيد الگنجوي، المتخلِّص بنظامي والمشهور بالمطرّزي. ولد في گنجة بين عامي ٥١٣ هـ و

٥٤٣ هـ على خلاف بين الدارسين، والأرجح أن تكون ولادته في عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م. كان يجمع بينْ الذكاء النادر والخلق الرفيع، وكان ورعاً عفاً غير متعصّب، معتزاً بكرامته ورأيه، وديعاً ظريفاً، يحبّ أسرته.. وقد تزوَّج ثلاث مرات وأنجب ولداً أسماه محمداً.

نشأ نشأة دينيّة شكّلت حياته وإنتاجه، واطّلع على كثير من العلوم.. فدرس علوم الدين والفلسفة والتنجيم والهندسة والطب. وسيطر على فنّ الشعر والتاريخ والأدب والقصص. ولم يكن يعتقد في التنجيم رغم دراسته له وذلك لنشأته الدينيّة. ونفس السبب هو الذي جعله لا يشرب الخمر، ويتحدَّث عن الخمر المعنويّة في أشعاره لا الخمر الحقيقيّة، ويفضّل الشعر الذي لا يتعارض مع الشرع، والذي يصوّر أسمى الأهداف الدينيّة ويجلّيها.

وكان يتغنّى بالفضيلة، ويعرض عن المديح، ويفضّل الاعتكاف لا عن تصوّف وإنَّما بدافع من عزّة النفس، واعتقاداً منه بأن العظماء يغمطونه قدره ولا يقدّرون جهده وموهبته حقّ قدرهما. وكان يتّخذ من الشيخ أخي فرج الزنجاني شيخاً له.

وكان نظامي نادر الأسفار حتى ليقال إنه لم يخرج من گنجة إلاَّ مرّة واحدة قصد فيها تبريز تلبية لدعوة وجّهها إليه الأتابك قزل أرسلان. كما كان يعرض عن المديح ويتجنَّب القصور.. لكنّه ـ كأهل عصره ـ كان يهدي مثنويّاته إلى حكّام زمنه.

وقد اعترف بمهارته عدد كبير من الشعراء وقدامى الأدباء.. أمثال عوفي والقزويني ودولتشاه ولطفعلي بك وسعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي وعصمت.

وإذا سلّمنا بأنَّ كل واحد من مشاهير العصر كان مبرّزاً في قسم من الأقسام الشعرية فإنا نقرّ بأنَّ نظامي كان متفوّقاً في أكثر من قسم.. في الحفل والحرب والعشق والفلسفة والأخلاق.

ولم تكن روح العشق قبل نظامي موجودة في انعشق.. إذ كانت

المثنويات تدور فقط حول المعارك.

ولم تكن القصائد تتناول غير المديح والتشبيب متابعة للقصائد العربيّة.. فلما كتب نظامي جعل من أشعار العشق في هذا العصر قسماً مستقلاً، ونظم مثنويّات في شرح أحوال من اشتهروا في ميدان العشق من عرب وعجم. ولم يكتف بذلك بل أبدع آداباً مستقلة يبرز بها الاتّجاهات والأحاسيس الهائجة وجذبات العشق ومظاهر الفرح، ثمّ تابعه المتأخّرون. والمفروض أن سعدي هو موجد الغزل، أما نظامي فإنّه وحده (آذر) هذا المعبد. ويمكننا القول بأنّه أستاذ الشعر المثنوي الرومانتيكي.. وقد حقّق شهرة مدوّية في هذا الباب.. خلّدت ذكره في إيران وتركيا.

ولم يشتهر نظامي كصاحب ديوان، نظراً لضياع معظم أبيات ديوانه التي قيل إنّها كانت تبلغ العشرين ألف بيت. ويقال إن ديوانه كان كاملاً في عام ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م، وأن له خمس نسخ مخطوطة لم تنشر للآن، وأنّه يشتمل على غزليّات مطبوعة مقبولة وموشّحات وأشعار كثيرة مصنوعة. غير أنّ الثابت أن ربيكا قد نشر عدّة غزليات لنظامي في عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م، كما نشر دستگيري ما عثر عليه من أبيات الديوان، وذلك في عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م.

ولو تصفّحنا الديوان لوجدنا صاحبه كثير الفخر بنفسه، يميل للزهد والتجرّد من الدنيا والعمل للآخرة.. ولأدركنا أن عشقه ينطوي على لمحة صوفيّة، وأن رثاءه يكشف عن نفس حسّاسة رقيقة. أما المدح والهجاء فلن نجد لهما أثراً.

والحقّ أن شهرته ترجع إلى مثنويّاته الخمسة المعروفة باسم پنج گنج (الكنوز الخمسة)، وهي التي جُمعت بعد وفاته في مجلد واحد، ويقرب مجموع أبياتها من ثلاثين ألف بيت.

ويمكننا استعراض هذه المثنويات للتعرّف عليها:

١ ـ مخزن الأسرار:

منظومة في بحر السريع، تشتمل على ٢٣٦٠ بيتاً، أتمَّها الشاعر في عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م، ثمَّ قدّمها لفخر الدين بهرامشاه بن داود حاكم آذربيجان، ونال عنها مكافأة كبيرة. وهي أقصر مثنويّاته، وتتّجه اتّجاهاً صوفياً، وتشتمل على كثير من الحكايات والعظات. وتشبه في أسلوبها حديقة الحقيقة لسنائي. وقد وضع نظامي لها مقدّمة طويلة، وقسّمها بعد ذلك إلى عشرين مقالة.

٢ ـ خسرو وشيرين:

تتلو مخزن الأسرار في الترتيب الزمني للتأليف، وتقع في ستمائة وخمسين بيتاً في بحر الهزج المسدّس. وقد فرغ نظامي من تأليفها في عام ٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م، وقدَّمها للأتابك جهان پهلوان ثم لأخيه قزل أرسلان.

تدور أحداثها حول عشق كسرى برويز (خسرو أبرويز) ـ الملك الساساني ـ لشيرين الجميلة، ونهاية منافسه التعس (فرهاد).

وقد نال النظم والقصة معاً كلّ استحسان. وفي عام ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م وأدخلت على المثنويّة بعض الإضافات فزادتها حسناً على حسن.

٣ ـ ليلى ومجنون:

قصّة حب يتقاسم بطولتها قيس بن الملوح ومعشوقته ليلى. بدأ الشاعر نظمه لها في عام ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م بناء على طلب أخستان بن منوچهر حاكم شروان، وانتهى من نظمها في عام ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م.

٤ ـ هفت پيكر:

مثنوي في بحر الخفيف، نظمه نظامي في عام ٥٩٣ هـ = ١١٩٦ م، وقدَّمه لحاكم مراغة «علاء الدين كرب أرسلان». عدد أبياته ٥١٣٠ بيتاً تقريباً. . . تصوِّر أحداث قصّة تلائم روح نظامي الغنائية، بطلها بهرام گور. .

الملك الفارسيّ الذي كان يحكم إيران في الفترة الواقعة بين عامي ٤٢٠ م، ٤٣٨ م.

٥ ـ إسكندرنامه:

مثنوي في بحر المتقارب المثمّن، جعله الشاعر في قسمين.. قصّ فيهما قصّة الإسكندر.

القسم الأول: اسمه «شرف نامه»، ويتكون من ٦٨٠٠ بيت من الشعر. انتهى الشاعر من نظمه عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م، وقدّمه لنصرة الدين أبي بكر أتابك آذربيجان.

القسم الثاني: اسمه «إقبال نامه» أو «خِرَد نامه»، ويتكوّن من ٣٦٨٠ بيت من الشعر، وقد أتمّ نظمه عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ م على الأرجح، وقدّمه لعزّ الدين مسعود.... أتابك الموصل. ويظهر الإسكندر في هذا المثنوي في صورة البطل الفاتح والحكيم والنبيّ.

ويرى دولتشاه أن نظامي هو ناظم قصّة «ويس ورامين»، وأنّه قد نظمها في شبابه، ويقدّم الأدلة على ذلك.. لكن البعض يثبتون القصّة لغيره.

ويبدو نظامي في أشعاره متأثراً بذوقه الخاص إلى جانب تأثّره بالذوق العام. فهو يفضّل الشعر الذي يستعصى فهمه إلّا على الخاصّة المثقّفين، ويعتبره أفضل وأمتع ألوان الشعر.. فلا غرو أن أصبح من السهل على دارس الشعر الفارسي ـ في هذا العصر ـ أن يميّز بين شعر نظامي وغيره من الشعراء.

والشائع أنّ نظامي قد انزوى في آخر أيامه، وأصبح صاحب خلوة، وقلّ اختلاطه بالناس.. حتى لقد رفض مقابلة الأتابك قزل أرسلان. وقد توفي عام ٥٧٦ هـ (١١٨٠ ـ ١١٨١ م)، أو بين عامي ٥٩٦ ـ ١٢٠٠، ٥٩٩ هـ = ١٢٠٣ م، ويقال ٥٩٩ هـ = ١٢٠٣ م، وقبره في گنجة.

انظر:

تذكرة الشعراء، ليدن، ١٢٨ ـ ١٣٠؛ آتشكده ٢٤٢؛ خواندمير: حبيب السير،

١١٢؛ شعر العجم، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٦، ٢٢٩؛ مجمع الفصحاء؛ ٦٣٧؛ رياض العارفين، ١٤٩؛ آثار البلاد، ٣٨٥؛ نفحات الأنس، ٥٤٧؛ ميخانه، ١٠؛ تاريخ الأدب في إيران، جـ٢ (ترجمة)، ٥٠٦ ـ ٥٢٥؛ دانشمندان آذربيجان، ٢٨٤؛ هفت آسمان، ٢٩؛ تاريخ أدبيات إيران (ترجمة)، ١٠٢، ١٠٣، نظامي الگنجوي، شاعر الفضيلة: عصره وبيئته وشعره، ١٠٣، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٥٣، ١٥٥، ٢٢٩، ٣٧١ ـ ٣٧٥، ٤٣٧ ـ ٤٣٩؛ مختصر سلجو قنامه، ٢١، ٢٢؛ تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ٨١؛ السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٣٦٢ ـ ٣٦٧؛ A.G. Browne: Aliterary History of Persia. Vol II.

٢٠ ـ «كمال الدين إسماعيل»

ابن الشاعر جمال الدين عبد الرزّاق. كان عالماً فاضلاً من أسرة محترمة في أصفهان. قام أكابر الصاعدية بتربيته فحفظ جميلهم وأنشأ القصائد الغرّاء في مدحهم. كما حظي ملوك خوارزم ـ أمثال تكش وقطب الدين محمد وجلال الدين ـ بمدحه، ومَدَح حسام الدين أردشير ملك مازندران، وحكّام فارس الذين عرفوا في التاريخ بالأتابكة.. وعلى رأسهم سعد بن زنكي وابنه. ويمكننا أن نقول إنه كان مدّاحا كأبيه.

أسماه الكبراء والشعراء (خلّاق المعاني) لاشتمال كلامه على معان دقيقة تظهر كثرة قراءته وسعة اطّلاعه. وقد عمّت شهرته الآفاق، وكان لديوانه منزلة كبيرة لدى الفضلاء.

رغم كرمه، تطاول عليه أهالي أصفهان وذمّوه، مما اضطره إلى هجائهم وتمنّى زوالهم.

وقد استشهد كمال الدين مع دخول جيش أوكتاي قا آن وحدوث القتل العام في أصفهان، حوالي عام ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م بعد أن تخفّى مدة في زيّ الصوفيّة.

انظر:

تذكرة الشعراء، ١٤٨ ـ ١٥٤؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة)، ٦٨٧، ٦٨٩.

٢١ ـ «خواجه سلمان الساوجي»

ولد في حدود عام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م في أسرة مكرّمة لدى السلاطين كانت تعيش في ساوه. لقبه هو جمال الدين، واسم والده خواجه علاء الدين محمد الساوجي.

كان على دراية تامَّة بعلم السياق، يفوق أقرانه في الشعر والشاعريّة، حتى ليبالغ البعض فيقول: لا يوجد مثل رمّان سمنان وشعرِ سلمان في أي مكان. وبلغ الإعجاب به حدّ أن كان الشعراء يقتبسون من شعره، وأن يمتدحه حافظ ويطلق عليه لقب «ملك الفضلاء» ولقب «ملك الكلام».

انتقل من ساوة إلى بغداد، وهناك حظي بعطف الأمير الشيخ حسن نويان وزوجته دلشاد، وأصبح معلّماً لابنه الأكبر السلطان أويس. وكانت هذه الأسرة ـ كما يقول بنفسه ـ سبباً في شهرته ومجده. ويمكننا القول بأنَّه قضى عمره الطويل في مدح سلاطين الإيلخانيين والجلايريين، ومن مؤلفاته:

أ ـ مثنوية فراق نامه.
ب ـ مثنوية جمشيد وخورشيد.
جـ ـ ديوان يشتمل على قصائد بعضها جيد، وغزليّات مصنوعة خالية من ذوق العشق، ومقطّعات ورباعيّات.

ولما أصابه الكِبَر ضعف بصره، وطلب الاستعفاء من خدمة العظماء، وأمضى الفترة الأخيرة من عمره زاهداً قانعاً، وتوفي في عام ٧٧٥ هـ = ١٣٧٣ م، أو ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م.

انظر:

تذكرة الشعراء، ليدن، ٢٥٧ ـ ٢٦٣؛ تاريخ الأدب لبراون (ترجمة علي أصغر ٢٨٩ ـ ٢٩٨؛ آتشكده، طبعة على الحجر، ٢٠٨؛ حبيب السير، بمباي، المجلد الثالث، جـ ١، ١٣٠.

٢٢ - «عصّار التبريزي»

شاعر من شعراء العصر التيموري، كان معاصراً للشاعر كمال خجندي. وقد اتُّهمه الأخير بسرقة أشعار غيره ونسبتها إليه.. ومما قاله في هذا الشأن:

* وفي النهاية توفي عصّار المسكين وذهب،
حمل معه دم جميع الشعراء.. وذهب.

ومن أشهر مؤلَّفاته مثنويّة لطيفة اسمها: مهر ومشترى.

وكانت وفاته بين عامي ٧٧٩، ١٣٧٧، ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ م.

انظر:

تاريخ الأدب في إيران (ترجمة علي أصغر)، ٣٥٣.

٢٣ - «سعدي الشيرازي»

هو مشرف الدين بن مصلح الدين عبدالله - ولد بشيراز عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م وكان يحمل لهذه المدينة كل إعزاز وحب، وله غزليّة في مدحها.

فقد أباه صغيراً فرعاه حاكم فارس (الأتابك سعد بن زنكي) الذي تولى العرش سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٥ م، وعن هذا الحاكم أخذ سعدي تخلّصه.

تلقّى علومه بالمدرسة النظاميّة ببغداد، وانخرط في زمرة مريدي الشيخ الصوفي الشهير شهاب الدين السهروردي، وتتلمذ على شمس الدين أبي الفرج بن الجوزي. كما دخل في زمرة مريدي عبد القادر الگيلاني، وحجّ في رفقته. كما حجَّ سيراً على الأقدام ١٥ مرّة.

كان سعدي كثير الأسفار، حاضر النكتة، لطيفاً ظريفاً متوقّد الطبع متواضعاً وكان يجالس المتصوفة معظم وقته، ويختلط بأهل الفضل رغم الاستغراق والحال. وقد اختار في آخر حاله زاوية خارج مدينة شيراز،

وأصبح لا يخرج من صومعته، فكان السلاطين والعظماء. وأهل الصلاح يذهبون لزيارته حاملين له الأطعمة، فيأكل ما يسدّ رمقه ويعطي ما بقي منها للمحتاجين. ويروى عنه أنّه قد أظهر عدّة كرامات في تلك الفترة.

ويقسّم دولتشاه الفترة التي عاشها السعدي ـ والتي تصل إلى ١٠٢ عاماً ـ إلى ثلاثة أقسام ويقول إنّ القسم الأوّل منها ـ ومجموع سنواته ٣٠ سنة ـ قد قضاه السعدي في تحصيل العلوم. أمّا القسم الثاني ـ وهو الذي يماثل الأوّل في عدد السنين ـ فقد قضاه في السياحة. ويحدّد القسم الثالث أيضاً بثلاثين سنة، ويقول إنّ السعدي قضاه في الجلوس على سجّادة الطاعة. أمّا الإثني عشر سنة الباقية فقد قضاها يحمل الماء ويعمل كسقّاء، وسلك فيها سبيل التصوّف.

والحقّ أننا لم نسمع عن أديب فارسي فاز بما فاز به السعدي من شهرة داخل وطنه وخارجه باستثناء الخيّام الذي اشتهر خارج وطنه أكثر من شهرته داخله. ويعدّ السعدي واحداً من أنبياء الشعر الثلاث إلى جوار الفردوسي والأنوري. وتشهد أشعاره بأنّه كان مبرّزاً في الغزل لا يبزّه في هذا اللون سوى حافظ. وهو يمثل الشخصيّة المتّزنة التي تعنى بالدين والدنيا معاً، كما أنّ في كتاباته لمحات صوفيّة. وتجمع الآراء على أنّه شاعر أخلاقي مرن يكتب لكل المستويات، وقد ينادي في بعض الأحيان بمبادىء ومثل تخالف ما تعارفنا عليه.

وتنحصر مؤلفات السعدي فيما يلي:

البوستان، الگلستان، الكليّات (الآثار مجتمعة)، وتشتمل على:

١ ـ قصائد عربيّة.

٢ ـ قصائد فارسيّة.

٣ ـ ملمّعات.

٤ ـ مراثي.

٥ ـ ترجيعات.

٦ ـ غزليّات (غزليّات قديمة، طيّبات، بدائع، خواتيم).

٧ ـ مقطوعات، رباعيّات، أبيات مفردة.

٨ ـ هزليّات.

٩ ـ رسائل منثورة تشتمل على ثلاث مقالات خليعة بشكل لا يُتصوّر، تسمى: «الخبيثات».

١٠ ـ رسالات موجّهة إلى صاحب الديوان.

١١ ـ مضحكات.

١٢ ـ بند نامه (كتاب النصائح).

وقد كانت أسفاره سبباً في إتقانه لعدَّة لغات، ولذا نجد له قصائد باللغة الأرديَّة، كما نجده ينظم بعض الفهلويَّات (وهي قصائد منظومة في لهجة من اللهجات الفارسيّة).

وقد كانت وفاة السعدي في عام ٦٩١ هـ = ١٢٩١ م بعد أن تجاوز المائة من عمره.

انظر:

تذكرة الشعراء (ليدن)، ٢٠٣ ـ ٢١٠؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة ٦٦٧ ـ ٦٨٦؛ كليّات سعدي، بمباي، ٢٨٩.

٢٤ ـ «حافظ الشيرازي»

هو خواجه شمس الدين محمد حافظ، ويُطلق عليه «لسان الغيب» و «ترجمان البلاغة». أبوه بهاء الدين، هاجر من أصفهان إلى شيراز في عصر أتابكة فارس، وعمل في التجارة فأصاب مالاً كثيراً، ثم خذله السوق فعاش فقيراً معدماً، مما اضطرَّ حافظاً إلى العمل والدراسة معاً، فلمّا حفظ القرآن تخلّص بحافظ.

وعالج حافظ الشعر فلم يوفّق في البداية، ثمّ حظي برؤية علي بن أبي

طالب في ليلة القدر. . فبشّره بموهبة شعريّة وعلم لدني. وحين تفجّرت موهبته الشعريّة برز في الغزل واشتهر به حتى فاق معاصريه وسابقيه وطبَّقت شهرته الآفاق. أما هو فلم يكن يهتمّ بتدوين أشعاره لانشغاله بالمحافظة على دروس القرآن وطلب العلم وخدمة السلطان، ولهذا جمعها صديقه محمد كلندام.

وكان حافظ يعشق فتاة تدعى شاخ نبات، غير أنَّه لا يوجد في أيدينا ما يثبت زواجه منها. والثابت أنَّه تزوّج وأنجب ولدين ـ على الأقل ـ توفيا في حياته.

كان مرموقاً في فترة حكم آل المظفر في فارس وشيراز، كما أنَّه تقابل مع تيمور. وإلى جانب صلته بهؤلاء الحكّام. . كان على صلة بغيرهم، أمثال السلطان أحمد بن أويس الجلايري الذي حظي بالكثير من مدائحه. وكانت شهرته سبباً في أن استدعاه محمود شاه بهمني الدكني، والسلطان غياث الدين ابن السلطان إسكندر بنكالي، ولكنه اعتذر لكلٍ منهما بمنظومه في الغزل.

وقد نال بين معاصريه منزلة رفيعة فصار العظماء والمحقّقون من مريديه. لكنَّه مع عظمته ورفعة مكانته كان يعيش بلا تكلّف، يصادق الدراويش والعارفين، ويعامل الناس بالحسنى، ويختلط بالشبّان المستعدّين.

وكان يشرب الخمر ويهيم بها، وله أشعار تعبّر عن ضيقه لأن مبارز الدين ابن المظفّر أغلق الحانات ومنع القوم من احتساء الخمر، وهو يسمّيه في أشعاره هذه بالمحتسب، بينما نجد له أشعاراً أخرى يمتدح فيها الشاه شجاع بن مبارز الدين لأنه أعاد فتح الحانات. وشجاع هذا هو الذي عاب شعر حافظ واتّهمه بالكفر والارتداد وإنكار يوم القيامة، وحدّد ما قاله من أشعار في هذا الصدد، وكاد ينزل به العقاب لولا حسن تصرُّفه وإضافته أبياتاً إلى شعره تثبت براءته مما نسب إليه وتؤكّد أن ما قيل ليس له! وقد توفي شجاع في عام ٧٨٥ هـ أو ٧٨٦ هـ (١٣٨٣ م أو ١٣٨٤ م).

كان حافظ يمدح العظماء شأن غيره من شعراء عصره، لكنّه لم يكن يتذلّل أو يتزلّف ولم يكن يلجأ إلى الهجاء، وكان يجيد العربيّة إجادته للفارسيّة، لهذا كتب أشعاراً ملمّعة وعرف بدراساته وتحقيقاته في علوم الأدب العربي وفي دواوين العرب. وكان يحبّ موطنه شيراز حباً جماً، ولا يملّ مدح جدول ركناباد وغيره من معالم موطنه.

ويرى البعض أنَّ فنّ الغزل مدين في تمامه وتوسّعه إلى حافظ الذي جمع في شعره محاسن جميع الشعراء، وأضاف إليها لطفه وذوقه الخاصّ. وكثيراً ما كان يأخذ أشعار غيره ويضفي عليها من فنّه واصطلاحاته كمالاً خاصاً، ثمَّ ينشرها على أنّها له.

أما أسلوبه فكان مشرقاً متناسباً لا عيب فيه، وكان يغوص في باطن الأشياء ويفتّش عن حقائقها، ثم يأتي بكلام جذّاب ونظم فاتن لا يتسنّى لغيره أن يأتي بمثله.

وقد فُسّرت أشعاره بالفارسيّة والتركيّة والأرديّة، كما تُرجمت إلى الألمانيّة والإنجليزيّة واللاتينيّة والفرنسيّة والعربيّة. نثراً وشعراً.

ولحافظ كثير من الفكاهات والطرائف، وبديوانه يتفاءل الناس ومنه يستمدّون الفأل. ويختلف الباحثون في تاريخ وفاته. لكنّا نستنتج مما كتب على قبره أنّه توفي في عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م، وهو مجموع حروف عبارة: «خاك مصلي» بحساب الجمل. ويقع قبره في حديقة جميلة بشيراز تعرف بالحافظيّة.

انظر:

تذكرة الشعراء، ليدن، ٣٠٢ وما بعدها؛ حبيب السير، مجلد ٣، جـ٢/ ٣٧؛ فهرست كتب بانكي بور (ازفردوسي تا حافظ، ٢٥٦)؛ إبراهيم أمين الشواربي: أغاني شيراز، المقدّمة؛ تاريخ الأدب في إيران، جـ٣ (ترجمة علي أصغر حكمت)، ٢٩٨ ـ ٣٤٢.

٢٥ ـ «كمال الخجندي»

هو كمال الدين بن مسعود، من مواليد خجند في بلاد ما وراء النهر. ترك خجند إلى تبريز وطاب له المقام بها فاتَّصل بعظمائها، وحظي بعناية السلطان حسين جلاير (٧٧٦ ـ ٧٨٤ هـ = ١٣٧٤ ـ ١٣٨٢ م) الذي أنشأ له خانقاه:

اشتهر في تبريز بالصلاح والزهد، وكان الشيخ زين الدين يصحبه في هذه المدينة وقت تحصيله العلم. كما كان موضع عناية ميرانشاه بن تيمور طوال مدة إقامته بها. وقد التحق بخدمة توقتمش خان كغيره من الشعراء، وصحبه إلى مدينة سراي حيث حظي بحب الجميع ثمَّ عاد إلى تبريز ثانية. وكانت له درجة ولاية وإرشاد وزاوية يخلو فيها، ومريدون يتبعونه. وكان يعتقد في حافظ ويعتقد الأخير فيه اعتقاداً كبيراً.

لم يكن كمال ينظم القصائد أو المثنويّات، ولم يكن يهتمّ بمدح الملوك والعظماء، وكان يكتفي بإنشاد المقطّعات الجيّدة وفق مقتضى الحال، ونظم الغزليّات والرباعيّات.

ويقول دولتشاه أن الإنصاف يقتضي أن يذكر أنه لا يوجد غزل أطهر من غزل خواجه كمال ولا أعذب منه بين غزل كل المتقدِّمين والمتأخِّرين. كما يقول حين يتحدَّث عن لطائفه وطرائفه أنَّها مشهورة وغنيَّة عن الشرح والتعريف.

والحقّ أنَّ شعر كمال موضع استحسان حافظ والنقّاد جميعاً. ويقال إنَّ اشتغاله بالشعر وتكلّفه فيه كان للستر والتلبيس. وهو الشاعر الوحيد الذي جاهد لتكون غزليّاته متساوية الطول، لا تتجاوز سبعة أبيات، وقد صرح بذلك في رباعيّتين له.

وقد ترك كمال ديواناً لكنَّه لم يطبع إلى الآن، كما أنَّ نسخه المخطوطة قليلة العدد. وفي هذا الديوان قطعات تشير إلى نظامي وسعدي وسلمان

الساوجي وعماد فقيه وغيرهم. وتشتمل على مطالب خاصة ونقاط شخصيّة، وتشير أكثر ما تشير إلى حوادث زمانه وشخصيّات عصره.

وهذا نفس الخطّ الذي كان يسير عليه غيره من شعراء إيران في قطعاتهم.

وقد مات كمال في تبريز وبها دفن، ويقع مدفنه في خطّة فرح بخش كما تصرّح معظم المصادر. واختلف في تاريخ وفاته فقيل عام ٧٩٢ هـ = ١٣٩٠ م، وقيل ٨٠٢ هـ = ١٤٠٠ م، وقيل ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م.

انظر:

تذكرة الشعراء: ٣٢٥ وما بعدها؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٣ (ترجمة حكمت) ٣٤٣ ـ ٣٥٥؛ فهرست ريو، ٦٣٢.

٢٦ ـ «الأمير خسرو الدهلوي»

تركيّ الأصل، من مدينة كش المسماة بالقبّة الخضراء. غير أنَّ البعض يرى أنَّه من هزارة لاجين الواقعة على حدود باي مرغ وقرشي، وأن أباه قد هاجر إلى الهند فراراً من حملة المغول.

نال آباؤه مرتبة الإمارة إبَّان حكم السلطان شمس الدين محمد. وقد استقرّ والده في بتيالي حيث ولد (الشاعر) عام ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م.

حظي خسرو بعطف السلطان علاء الدين محمد ملك الهند، ووصل إلى مرتبة الإمارة. وله في مدح هذا السلطان ومدح أولاده قصائد عديدة. وقد حاول أن يترك خدمته أكثر من مرّة فلم يسمح له بذلك. وأخيراً استطاع أن يترك رفقته نهائياً فدخل في زمرة الصوفية، وشغل بخدمة أهل الحق، ونال مقاماً عالياً في كشف الحقائق.

كان الأمير خسرو يعتقد في السعدي ويصحبه في بعض أسفاره. كما كان صديقاً للأمير حسن، وكلاهما تلميذان من تلامذة الشيخ الكبير نظام الدين أوليا (ت ٧٢٥ هـ = ١٣٢٣ م). وكان وفياً لأسرته، فله رثاء قاله في أمّه

وأخيه الأصغر، كما أنّ له خمس خطابات منظومة أرسلها لأمّه.

نظم أمير خسرو ما يقرب من ٥٠٠ ألف بيت، جمع منها ميرزا بايستقر ـ بعد جهد ـ أكثر من ١٢٠ ألفاً، ثم جمع ألفي بيت في الغزل لم يكن في ديوانه بيت منها. ولمّا أدرك أن جمع أشعاره كلّها أمر متعذّر الحدوث.. إنصرف عن ذلك.

وفي نهاية حال الأمير خسرو، عمد إلى تقسيم أشعاره إلى أربعة أقسام، هي:

أ ـ تحفة الصغر: أشعار أيام الشباب.
ب ـ وسط الحياة: أشعار بداية السلوك وحدّ الكهولة.
جـ ـ عزة الكمال: أشعار أيام التكميل وأول أيام الشيخوخة.
د ـ بقية النقيّة: أشعار أيام نهاية الفقر وأيام الكبر والهرم.

وقد لاقت قصائده: بحر الأبرار ومرآة الصفا وأنيس القلوب وغيرها رواجاً كبيراً. وهو بالإضافة إلى الرسائل الخمسة التي نظمها لأمّه قد ألّف بالفارسيّة عدّة رسائل ـ بعضها منظوم وبعضها منثور ـ من بينها: قران السعدين، نُه سپهر، خزاين الفتوح، مناقب الهند، تاريخ دهلي، قانون الاستيفاء، وغيرها. وكانت له دراية بعلم الموسيقى رغم فضائله الصوريّة والمعنويّة.

وقد توفي في دلهي عام ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م، ودفن بجوار مزار نظام الدين أوليا.

انظر:

تذكرة الشعراء، ليدن، ٢٣٨ ـ ٢٤٧؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٣ (ترجمة حكمت)، ١٣٢ ـ ١٣٣؛ شعر العجم جـ٢، ١٢٥؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٢ (ترجمة)، ٦٨٦.

٢٧ ـ «خواجه حسن الدهلوي»

من مواليد دهلي، وأحد شعراء العصر الإيلخاني. كان يسير في نظمه على طريقة خواجه خسرو، وقد نال في بلاد الهند شهرة مدوّية ومنزلة كبيرة. ورغم أنَّه لم ير إيران طوال حياته، فإنّ له في قلوب الكثير من أدبائها منزلة كبيرة تلي منزلة السعدي ـ مثله في ذلك مثل خسرو والدهلوي وبدرجاجي ـ وذلك لما نظمه من شعر فارسي يتّسم باللطافة. وموضوع الغزل عند هذا الشاعر لا يخرج عن العشق شأنه شأن السعدي والأمير خسرو. وأشعاره في جملتها عذبة مليئة بالحال، خالية من الإغراق في الصنعة، سهلة إلى حد بعيد.. وهي تعتبر في عرف الدارسين من قبيل السهل الممتنع. وكان الصوفيّة يعتقدون في كلامه اعتقاداً بالغاً، ويمنحونه اهتماماً غير عادي. وقد ألَّف حسن ديواناً قيّماً.

كان خسرو وحسن تلميذين من تلاميذ الشيخ نظام الدين أوليا. وقد توفي ـ كما علمنا ـ في عام ٧٢٥ هـ = ١٣٢٣ م، ثمَّ توفي خسرو بعده بسبعة أشهر. أما حسن فقد توفي بعد وفاة خسرو بسنتين.

انظر:

تذكرة الشعراء: ٢٤٧ ـ ٢٤٩؛ شعر العجم جـ٢، ١٩٥ ـ ١٩٩.

٢٨ ـ «خواجه عماد فقيه كرماني»

عارف صوفي من متكلّمي العصر وفقهائه، كان مرجعاً للخواص والعوام في كرمان في فترة حكم محمد مظفر وأولاده، وكان الجميع يميلون إلى صحبته.

ويحكم عليه الدارسون بأنَّه شاعر كامل، لا فتور أصلاً في كلامه.. سواء من جهة اللفظ أو المعنى. وتقوم شهرته على أساس أنه منافس لحافظ الشيرازي الذي أشار إليه في غزلية قال فيها:

* قفي أيّتها الحمامة المتبخترة.. أين تذهبين..؟

لا يغرّنك أن قطّة العابد تتلو صلواتها . . وتنخدعين.

وعلّة الهجوم ـ كما يقال ـ أنَّ الشاعر كان يحظى باهتمام شجاع مظفّري وعنايته أكثر من حافظ. وكانت له قطة أليفة درّبها على تأدية الانحناءات، فكانت تقلّد حركاته أثناء الصلاة . . فتقوم وتقعد وتركع وتسجد . . الأمر الذي اعتبره الشاه معجزة واعتبره حافظ رياء ومكراً.

ويذكر معظم الباحثين أن عماداً كان له شأنه وقدره في إقليم كرمان، وقد قام ببناء مدرسة فيها، واتّخذ منها مكاناً للعزلة والانزواء. ويوضّح بعضهم السر في قول الناس:

«إنَّ شعر عماد هو شعر كل أهالي كرمان» فيقولون إنّه كان يمتلك خانقاه يرتادها أهالي كرمان . . فيقرأ عليهم شعره، ويطلب منهم إصلاح ما به من عيب وخلل، فكأنَّ شعره هو شعر كلّ الأهالي.

وتتمثل آثاره في ديوان للغزل نادر الوجود، وخمس مثنويّات ـ على الأقل ـ أقدمها مثنويّة بعنوان: محبّت نامهٔ صاحبدلان، ألّفها في عام ٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م، وآخرها بعنوان «مؤنس الأحرار»، ألّفها في عام ٧٦٦ هـ = ١٣٦٤ م. وكانت وفاته في عام ٧٧٣ هـ = ١٣٧١ م.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٢٥٤ ـ ٢٥٦؛ حبيب السير، مجلد ٣ جـ ٢، ٣٧؛ آتشكده ١١٠ هفت إقليم، ٢٥٤ وما بعدها؛ بهارستان، تهران، الروضة السابعة.

٢٩ ـ «خواجه كرماني»

هو كمال الدين أبو العطا محمود بن علي بن محمود. ولد في شوّال من عام ٦٧٩ هـ، ونشأ في كرمان، لكنه كان دائم السياحة لا يكاد يستقر في مكان، وقد أقام في بغداد فترة من الوقت وعمّت شهرته إيران بأسرها.

اتّصل في بداية حياته العمليّة بالأمير مبارز الدين محمد مؤسس أسرة المظفّرين في يزد ثمّ انتقل إلى بلاط الشيخ أبي إسحق أنجو. الذي تولّى

السطنة في شيراز من سنة ٧٤٢ هـ ـ ١٣٤١ م إلى سنة ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ م. وارتبط كذلك ببلاط شيروانشاه وقزل أرسلان أمير العراق. وكان يمتدح أبا سعيد خان.. الذي كان يحكم من عام ٧١٦ هـ = ١٣١٦ م إلى عام ٧٣٦ هـ = ١٣٣٦ م، لهذا لا يمكننا أن نعتبره ـ كغيره من معاصريه ـ شاعراً خاصاً لسلسلة واحدة.

سلك سبيل التصوّف عدّة سنوات، وكان مريداً لعلاء الدولة السمناني. وقد أنشأ كتاباً في الأخلاق والتصوّف أسماه: گهرنامه، وآخر في نفس اللون أسماه: سام.

ورغم أنَّ هناك من يمتدحه ويشيد بشعره ويرى أنّه لا نظير له في البلاغة والفصاحة إلاّ أنَّ هناك من يهاجمه بقسوة، وهو الشاعر حسين الشيرازي الذي يتّهمه بالسرقة الأدبيّة، ويسمّيه: اللصّ الكابلي الكرماني.

وتشتمل أشعار خواجه كرماني على قصائد مذهبيّة وأخرى مديحيّة، وغزليّات ومقطّعات ورباعيّات جمعها في ديوان.

وفي عام ٧٤٤ هـ انتهى الشاعر من تأليف مثنويّاته الخمسة الرومنتيكيّة التي يقلّد بها مثنويّات نظامي الگنجوي، ويطلق عليها: خمسة خواجو، وهذه أسماؤها: نوروز وَگل، هماي وهمايون، كمال نامه، روضة الأنوار، مثنوي صوفيانه.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٢٤٩ ـ ٢٥٣؛ تاريخ الأدب في إيران جـ٣، (ترجمة حكمت)، ٢٥٦ ـ ٢٦٣؛ تاريخ گزيدة، نسخة كرواي، ٨١٨.

٣٠ ـ «ناصر البخاري»

كان درويشاً لا يخلو شعره من حال، دائم السياحة يلبس خرقة الدراويش وملابسهم. حين وصل إلى دار السلام بغداد تقابل مع خواجه سلمان، فسأله من أنت؟ فأجابه:

غـريب وشاعر. فامتحنه سلمان بشطرة من الشعر فأكمل له البيت على نحو جعله يثني على لطافة طبعه، ويضمّه إليه، ويسأله عن اسمه.. ثمَّ يصحبه زمناً.. وكان ناصر يعتقد في سلمان اعتقاداً عظيماً، وكان يفخر بأنه تلميذه.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢.

٣١ ـ «عصمت الله البخاري»

يصل نسبه إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان آباؤه وأجداده فضلاء عظماء يسكنون بخارى، ويحتلّون فيها أكبر المناصب. وكان أبوه خواجه مسعود من أكابر هذه الديار، أما هو فقد بلغ أرفع الدرجات في عهد السلطان خليل الذي كان يحترمه ويقرِّبه إليه ويجلس معه ويتعلَّم الشعر على يديه. وكان هذا الوضع سبباً في وجود العديد من الحسّاد الذين يضمرون له الكراهية.

وقد لاقت غزليّاته في ميدان العشق وكلماته في مقام العرفان شهرة عظيمة في عهد السلطان شاهرخ. وقد امتنع عن مدح السلاطين إبَّان حكم شهريار جهان أولغ بيك گورگان فاستدعاه السلطان المذكور وطلب منه أن يمدحه، ففعل ذلك مضطراً، ولما انتهى أخذ يستغفر عن شعره.

كان مجلسه مقصد الشعراء ومجمع الفضلاء أمثال بساطي وخيالي وبرندق ورستم خورياني وطاهر أبيوردي. وقد توفي في زمن أولغ بيك گورگاني في شهور عام ٨٢٩ هـ = ١٤٢٦ م.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٣٥٧ ـ ٣٦٦؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٣ (ترجمة حكمت)، ٥٥٦.

٣٢ ـ «بساطي»

أحد تلاميذ عصمت البخاري. كان يعمل في نسج الحصر ولهذا تخلَّص في بداية أمره بالحصيري، وحين رأى خواجه عصمت قابليَّة ذهنه وحسن استعداده طلب منه أن يتخلَّص ببساطي.

ظهر بساطي في سمرقند في فترة حكم السلطان خليل بهادر بن ميرانشاه گورگان. وكان هذا السلطان يقربه، وقد أنعم عليه حين سمع في مجلسه مطلعاً من شعره يغنّيه المطربون، فاستحسنه وأرسل في طلبه، ومنحه ألف دينار.

ويذكر كتّاب السِّيَر أنَّ بساطي كان ينكر الشيخ كمال الخجندي، ممَّا دعا الأخير إلى سبّه وهجائه.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٤٢٠، ٤٢١.

٣٣ ـ «خيالي»

هو خيالي البخاري، من جملة تلاميذ خواجه عصمت الله بخاري ومن معاصريه. وقد كان شاعراً كاملاً، لطيف الطبع، له كلام ككلام الدراويش.. سهل طاهر. وكان في سبزوار شاعر يدعى خيالي، كما كان في تون شاعر آخر بنفس الإسم.. ولم يكن شعرهما رديئاً، لكن خيالهما كان قاصراً بالمقارنة بخيال مولانا خيالي البخاري. وقد توفي حوالي ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ م.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٤٢٠، ٤٢١.

٣٤ ـ «آذري»

هو حمزة بن علي ملك الطوسي أو البيهقي. كان والده من سادة بيهق، أما نسبة فيصل إلى أحمد بن محمد الرمحي الهاشمي المروزي. كان الشيخ

آذري عارفاً مجرداً، ومحقّقاً عالي الهمة، وزاهداً يميل إلى صحبة أهل الله دائماً. أمضى أربعين سنة على سجّادة الطاعة متزيّناً بالفضيلة، محصّلاً لعلوم الظاهر والباطن. شغل في شبابه بنظم الشعر وإنشاده، واشتهر لدى السلاطين والأمراء ونَعِم بعطاياهم لقاء مدحه لهم، وله في مدح السلطان شاهرخ قصيدة على طريقة اللغز.

صحب الشيخ محي الدين الطوسي الغزالي، وأخذ عنه الطريقة، وسافر للحجّ، فلمّا مات رجع إلى سيّد نعمت الله، وشغل بالسلوك مدّة في خدمته، وأخذ منه الإذن وخرقة التبرّك. وشغل بالسياحة بعد الرياضة والمجاهدة والسلوك، وأدرك أكثر أولياء الله وخدمهم، وحجّ مرّتين على الأقدام، وجاور بيت الله الحرام عاماً كاملاً.

وكتب في الحرم كتاباً أسماه (سعي الصفا)، ويشتمل هذا الكتاب على كيفيّة مناسك الحج وطواف الكعبة.

ثمّ سافر آذري إلى الهند وهناك أنعم عليه ملكها السلطان أحمد بخمسين ألف درهم، فلم يقبلها حين طلب منه أن يضع جبهته على الأرض شكراً للملك. ولم يلجأ بعد هذه السفرة إلى باب أي عظيم، بل صار الجميع يلجأون إليه طالبين صحبته للتبرُّك.

يقال إنّه كان يعيش في قرباع برفقة خاله في شهور عام ٨٠٠ هـ = ١٣٩٨ م، كما يقال إنّه وصل إلى خدمة ألغ بيك ميرزا، وكان يحضر مجلسه ويتسامر معه حتى شهور عام ٨٥٢ هـ = ١٤٤٨ م، وأنّ السلطان محمد بن باي سنقر قد زاره، وقبل نصحه له باتّباع العدل والرأفة بالعباد، وحاول أن يعطيه عطيّة فرفضها.

ولآذري إلى جوار ديوانه عدة رسائل منظومة ومنثورة مثل:

جواهر الأسرار: وهي مجموعة من النوادر والأمثال وشرح لبعض الأبيات الصعبة.. إلى غير ذلك، وطغراي هما يون، وعجايب الغرايب، وسعي الصفا (الذي مرّ ذكره).

وقد توفي اذري في قصبة اسفراين في شهور عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦١ م. وقد بلغ عمره الثانية والثمانين.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٣٩٨ - ٤١٢.

٣٥ - «كاتبي»

هو محمد بن عبدالله، ولد ونشأ في قرية طرق وراوش، وهي موضع من أعمال ترشيز. توجّه أول أمره إلى نيشابور، وتعلّم الخط من مولانا سيني، وأصبح كاتباً ممتازاً فتخلّص بكاتبي.

كان خبيراً بنظم الشعر وإنشاد الغزل، مصنوعاً ومطبوعاً، فلمّا تخاصم مع معلّمه سافر إلى دار السلطنة هراة، واشتغل بنظم الشعر. ثمّ انتقل إلى استراباد وگيلان، وتركهما إلى شيروان حيث أكرمه ابن الملك الأمير الشيخ إبراهيم الشيرواني. ثمّ حلّ بآذربيجان، ومدح إسكندر بن قرا يوسف.. فلم يعره التفاتاً. فسافر إلى تبريز ومنها إلى أصفهان، وصحب خواجه صاين الدين تركه، ودرس على يديه رسالة في علم التصوُّف. وسئم علوم الدنيا وزَهِدَها فسافر إلى دار المرز - بعد أن أذن له صاين بالرحيل - وكان يتكلّم فيصدر عن كلامه ريح الفقر ونسيم الفناء.

ثمّ انتقل مرة أخرى من العراق العجمي إلى ديار طبرستان ودار المرز، وأقام في مدينة استراباد، وبها حظي بحبّ الجميع.

والمعروف عن كاتبي أنه أورد معان غريبة في كل نوع طرقه من أنواع الشعر، كما ابتكر فيما نظم واخترع.. ولم يقف عند حدّ المحاكاة والتقليد.. وله مثنويّات عديدة مثل:

التجنيسات، ذي البحرين، ذي القافيتين، حسن وعشق، ناظر ومنظور، بهرام وگل اندام. وتفوق قصائده وغزليّاته مثنويّاته حُسناً.. ومع ذلك فإنّ ديوانه لم يطبع إلى الآن... وهو يشتمل على ثلاثة آلاف بيت في

الغزل والقطعة والرباعي.

هذا، وقد توفي كاتبي عام ٨٣٨ هـ = ١٤٣٥ م في أحد الأوبئة التي اجتاحت استراباد.

انظر:

تذكرة الشعراء: الشاعر الثاني عشر، الطبعة السادسة؛ مجالس النفائس، ١٠؛ حبيب السير، مجلد ٣، ح ٣، ١٤٥؛ ازسعدي تاجامي (ترجمة حكمت)، ٥٤٥ ـ ٥٥٠.

٣٦ ـ «شاهي»

من كبار شعراء عصر السلطان شاهرخ، ويعرف باسم الأمير شاهي السبزواري. وهو من أولاد حكَّام خراسان. كان ملازماً لبايسنقر بهادر.

امتدحه القاضي نور الله الشوشتري في كتابه: «مجالس المؤمنين» لاعتناقه مذهب الشيعة، وامتدحه دولتشاه مبالغاً وقال: يجمع الفضلاء على أنَّ حرارة خسرو ولطافة حسن ورقة كمال وصفاء نظم حافظ قد اجتمعت كلّها في كلام الأمير شاهي.

كان شاهي يصوغ أشعاره في قالب الرباعيَّات، ويقال إنَّ رثاءه لبايسنقر كان أفضل من مراثي جميع الشعراء.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٣٤٠، ٤٦٢، ازسعدي تاجامي (ترجمة حكمت)، ٥٥٥ ـ ٥٥٦؛ تاريخ الأدب في إيران جـ ٢ (ترجمة)، ٣١٩.

٣٧ ـ «عارفي الهروي»

ولد في عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م، وكان محبّوه والمعجبون به يطلقون عليه لقب: «سلمان الثاني» لأنه كان يشبه سلماناً في طريقته وأسلوبه، ويقاسي مثله من ألم في عينيه المصابتين بمرض الرمد. وهو يقول في ذلك نظماً:

* الدواء الأبيض فوق جفني الأحمر..
أشبه بالملح المسحوق فوق الشواء[1].

ويمتدح عارفي بحسن الطبع والمهارة في فن المثنوي. ويشتمل مثنويّه: (حال نامه) على ٥٠٠ بيت، وقد نشره كوين سيلز في لندن عام ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م. ويعتبر هذا المثنوي من أهم آثاره وأشهرها. ويسمّيه البعض: (كووچوگان) أي الكرة والمضرب، وهي تسمية تتّفق مع موضوعه.

ويرجع تأليف هذا المثنوي إلى عام ٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م، وقد نال جائزة من ممدوحه لقاء تأليفه له. وكان عمره وقت تأليفه يزيد على الخمسين.

وتشتمل هذه المنظومة على تشبيهات بديعة واستعارات غريبة، مستقاة كلّها من كرة اللعب والمضرب، وهي في رأي بعض القرّاء الأوروبيين مصنوعة لا لطف فيها.

كان عارفي يمتدح العديد من ملوك العصر وأمرائه المشهورين. وقد ألّف عشرة كتب باسم الوزير پير أحمد بن إسحاق.

انظر:

تذكرة الشعراء، ٤٣٩؛ از سعدي تاجامي، ٥٥٠ ـ ٥٥٨.

---

(١) نص البيت:

بـرپلك سرخ ديدهٔ من داروى سفيد باشـد بعينـه نمـك سـوده بـركبـاب



مراجع المترجم

«المراجع الفارسيّة»[1]

١ ـ إحسان يار شاطر (دكتور): شعر فارسي در عهد شاهرخ (آغاز انحطاط در شعر فارسي)، تهران ١٣٣٤ هـ.

٢ ـ إدوارد جرنفيل براون: تاريخ أدبى إيران ـ از سعدي تاجامي (ترجمة وحواشي علي أصغر حكمت) تهران ١٣٢٧ هـ ش = ١٩٤٨ م.

٣ ـ نفس المؤلف: تاريخ أدبي إيران ـ ازقد يمترين روزگاران تازمان فردوسي (ترجمة علي باشا صالح)، تهران ١٣٣٣ هـ.

٤ ـ آذر: آتشكده، بمباي ١٢٧٧ هـ.

٥ ـ أمين أحمد رازي: تذكرة هفت إقليم، جلد أوّل ـ كلكته ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.

٦ ـ أنوري: ديوان أنوري، تهران، ١٣٣٧هـ.

٧ ـ بهار (محمد تقي بهار ملك الشعراء): سبك شناسي يا تاريخ تطوّر نثر فارسي، جلد دوم، تهران ١٣٢١هـ. ش.

٨ ـ إبن البيبي (يحيى بن محمد): مختصر سلجو قنامه، ليدن ١٩٠٢م.

٩ ـ تربيت (محمد علي): دانشمندان آذربيجان، تهران ١٣١٤هـ.

١٠ ـ جامي (عبد الرحمن): سبحة الأبرار (نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية، برقم ١٣٧ ـ أدب فارسي).

١١ ـ جامي: سلسلة الذهب (نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية، برقم ١٦٥م/أدب فارسي).

١٢ ـ جامي: نفحات الأنس من حضرات القدس، لكهنو ١٣٣٣هـ = ١٩١٥م.

(١) هذا الثبت مرتّب ترتيباً أبجدياً باعتبار الكلمات مجرّدة من أداة التعريف (ال)، ومن كلمة (إبن) وكلمة (أبو).

١٣ ـ جامي: يوسف وزليخا (نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية، برقم ٤٧م/أدب فارسي).
١٤ ـ جامي: بهارستان، تهران ١٣١١هـ. ش.
١٥ ـ جلال الدين دواني: أخلاق جلالي، لكنو ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م.
١٦ ـ جويني (عطا ملك): جهانگشا، ليدن ١٩١١، ١٩١٦، ١٩٢١، ١٩٣٧م.
١٧ ـ حسين بايقرا: مجالس العشّاق، الهند ١٣١٣هـ ـ ق، لكهنو ١٣١٤هـ = ١٨٩٧م
١٨ ـ حكمت (علي أصغر): جامي، طهران ١٣٢٠هـ.
١٩ ـ حمد الله مستوفى قزويني: تاريخ گزيده، طهران ١٣٣٩هـ، ليدن ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م.
٢٠ ـ خاقاني (أفضل الدين إبراهيم علي الشيرواني): تحفة العراقين، طبعة حجرية، ١٨٧٧م.
٢١ ـ نفس المؤلف: ديوان خاقاني، تهران ١٣١٦هـ. ش.
٢٢ ـ خواندمير (غياث الدين بن همام الدين): حبيب السير في أخبار أفراد البشر، بمباي ١٢٧٣هـ = ١٨٥٨م.
٢٣ ـ دولتشاه (دولتشاه بن بختشاه السمرقندي): تذكرة الشعراء، ليدن ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م.
٢٤ ـ رازي (شمس القيس الرازي): المعجم في معايير أشعار العجم، تهران ١٣١٤هـ. ش.
٢٥ ـ رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، أنقره عام ١٩٥٧م.
٢٦ ـ رشيد الدين الوطواط: حدائق السحر في دقائق الشعر، تهران ١٣٠٨هـ.
٢٧ ـ رضا زاده شفق: تاريخ أدبيات إيران، تهران ١٣٢١هـ.
٢٨ ـ رضا قليخان هدايت: مجمع الفصحاء، تهران ١٢٩٢هـ.
٢٩ ـ سام ميرزاي صفوي: تحفهٔ سامي، صحيفهٔ پنجم، بتنه ٩٣٤، تهران ١٣١٤هـ. ش.
٣٠ ـ سعد الدين الوراويني: مرزبان نامه، تهران.
٣١ ـ سعدي شيرازي (أبو عبد الله مشرف بن مصلح السعدي الفارسي): كتاب گلستان في النوادر والأمثال والشعر والحكايات، ١٣١٠هـ. ش (الطبعة الثانية).

٣٢ ـ نفس المؤلّف: كليّات سعدي، بمباي، ١٣٠١هـ.
٣٣ ـ شاه نعمت الله ولي: ديوان شاه نعمت الله ولي، تهران ١٣١٦هـ. ش.
٣٤ ـ شبلي نعماني: شعر العجم (تاريخ شعرا وأدبيات إيران)، ترجمة سيد محمد فخر داعي گيلاني، چاب أول، جـ ١ تهران ١٣١٦، جـ ٤ تهران ١٣١٤هـ.
٣٥ ـ ظهير الدين محمد: بابر نامه، بمباي ١٩٠٥م (ترجمة فارسيّة عن التركيّة الچغطائيّة).
٣٦ ـ عبد النبي قزويني: ميخانه، لاهور ١٩٢٦م.
٣٧ ـ عبيد الله بن أبي سعيد الهروي: رسالة مزارات هرات، ١٣١٠هـ.
٣٨ ـ عوفي (محمد عوفي): لباب الألباب، ليدن ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م.
٣٩ ـ فتّاحي نيشابوري: مثنوي دستور عشاق، برلين ١٩٢٦م.
٤٠ ـ فردوسي (أبو القاسم منصور بن أحمد بن فرح الفردوسي الطوسي)، تهران ١٣١١، ١٣١٣هـ ـ ش.
٤١ ـ فرهاني (حسين فرهاني): شرح مشكلات ديوان أنوري، تهران ١٣٤٠هـ.
٤٢ ـ فروزانفر (بديع الزمان بشرويه خراساني): سخن وسخنوران، شرح حال ومنتخب أشعار شعراء خراسان وما وراء النهر منذ بداية القرن الثالث حتى أواخر السابع الهجري قمري. ط ٢ نشر لجنة المعارف ١٣١٨هـ.
٤٣ ـ فريد الدين عطّار النشابوري (أبو حامد أبو بكر إبراهيم): تذكرة الأولياء، ليدن ١٣٢٢هـ = ١٩٠٥م، طهران ١٣٤٦هـ. ش.
٤٤ ـ فريدون بك: منشآت فريدون بك، طبع استانبول.
٤٥ ـ قزويني (محمد بن عبد الوهاب القزويني): دورهٔ كامل بيست مقالهٔ قزويني جـ ١، ٢، تهران ١٣٣٢هـ.
٤٦ ـ محمد بن إبراهيم: تاريخ سلجوقيان كرمان، ليدن ١٨٨٦م.
٤٧ ـ محمد طباطبائي: مقدّمة بهارستان للجامي، طهران ١٣١١هـ. ش.
٤٨ ـ مولوي أغا علي أحمد علي: هفت آسمان، كلكته ١٨٧٣م.
٤٩ ـ ميرخواند: روضة الصفا، تهران ١٢٧٠هـ.
٥٠ ـ مير عليشير نوائي: خمسة المتحيّرين (ترجمة نخجواني للفارسية عن التركيّة الچغطائيّة).
٥١ ـ نفس المؤلّف: مجالس النفائس، تهران ١٣٢٣هـ. ش (ترجمة فخري هراتي ومباركشاه للفارسيّة عن التركيّة الچغطائية).

٥٢ ـ ناصر خسرو: ديوان ناصر خسرو، طهران.
٥٣ ـ نظام الملك (أبو علي الحسن بن علي بن إسحق الطوسي): **سياستنامه**، تهران ١٣٢٠هـ.
٥٤ ـ نظامي عروضي سمرقندي (أحمد بن عمر بن علي): **چهار مقاله**، ليدن ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م ـ بمباي ١٣٢١، ١٣٢٤هـ = ١٩٠٣، ١٩٠٦م، تهران ١٣١١هـ.
٥٥ ـ نظامي گنجوي (نظام الدين أبو محمد إلياس بن يوسف): **هفت پيكر**، تهران ١٣١٥هـ. ش.



«المراجع العربيّة»

١ ـ إبراهيم أمين الشواربي (دكتور): أغاني شيراز أو غزليات حافظ شيرازي، القاهرة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥م.

٢ ـ إبراهيم السنهوتي: الأنوار القدسيّة في مناقب السادة النقشبنديّة، مصر ١٣٤٤هـ.

٣ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ليدن ١٨٦٣م.

٤ ـ نفس المؤلّف: اللباب في تهذيب الأنساب، القاهرة ١٣٥٧هـ.

٥ ـ أحمد كمال الدين حلمي (دكتور): المرجع في قواعد اللغة الفارسيّة، الكويت، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٦ ـ نفس المؤلّف: ٣٥٠٠ عام من عمر إيران جـ١، الكويت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٧ ـ نفس المؤلّف: السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٨ ـ نفس المؤلّف: الأنوري: عصره وبيئته وشعره (رسالة دكتوراه لم تطبع، مقدّمة لقسم اللغات الشرقيّة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٧١ م).

٩ ـ نفس المؤلّف: تعريف بعبد الرحمن الجامي وإنتاجه (رسالة ماجستير لم تطبع، مقدّمة لقسم اللغات الشرقيّة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٦٦).

١٠ ـ أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد جـ٤، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة.

١١ ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ط ٧، مصر ١٩٢٨م.
١٢ ـ أحمد بن محمد الوتري: روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين جـ ١، مصر ١٣٠٩هـ.
١٣ ـ ادوارد جرنفيل براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي (ترجمة د. الشواربي)، مصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.
نفس المؤلف: تاريخ الأدب في إيران منذ أقدم العصور حتى عصر الفردوسي (ترجمة د. أحمد كمال) الكويت ١٩٨٤م.
١٤ ـ برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري المالكي: الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة ١٣٢٩هـ.
١٥ ـ البستاني (المعلم بطرس): دائرة معارف البستاني، بيروت ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧م.
١٦ ـ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مصر ١٣٤٩هـ.
١٧ ـ تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب السبكي: طبقات الشافعيّة الكبرى، القاهرة ١٣٢٤هـ.
١٨ ـ إبن تغري بردى (أبو المحاسن جمال الدين): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر ١٣٤٨هـ.
١٩ ـ الجامي (نور الدين عبد الرحمن): الدرّة الفاخرة، مصر ١٣٢٨هـ.
٢٠ ـ ابن الجوزي: صفة الصفوة، طبع حيدر آباد ١٣٥٥هـ.
٢١ ـ نفس المؤلف: المنتظم في أخبار الأمم، القاهرة ١٣٥٧هـ.
٢٢ ـ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إستانبول ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م، ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م.
٢٣ ـ الحريفش: الروض الفائق في المواعظ والرقائق (لم تذكر سنة الطبع).
٢٤ ـ حسنين محمد مخلوف: القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، ط ١، مصر، ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م.
٢٥ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والإسلام في العصر الحاضر، القاهرة ١٣٢٥هـ.
٢٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية.
٢٧ ـ الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، القاهرة ١٣٢٥هـ.
٢٨ ـ رشيد الدين الوطواط: مجموعة الرسائلة العربية، مصر ١٣١٥هـ.

٢٩ ـ نفس المؤلّف: حدائق السحر في صنائع الشعر (ترجمة د. الشواربي ١٩٤٥)، بالقاهرة.
٣٠ ـ رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي (ترجمة د. محمد موسى هنداوي)، القاهرة ١٩٤٧م.
٣١ ـ زكريّا الأنصاري: تعليق زكريّا الأنصاري على الرسالة القشيريّة لأبي القاسم القشيري، مصر ١٢٨٤هـ.
٣٢ ـ الزمخشري: أساس البلاغة، طبعة كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠م.
٣٣ ـ أبو سعيد عبد الكريم التميمي السمعاني: الأنساب، ليدن ١٩١٢م.
٣٤ ـ السهروردي أبو حفص عمر بن عبد الله، الأزهر، مصر ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
٣٥ ـ سير أعلام النبلاء، نسخة مصوّرة عن الأصل المحفوظ بمكتبة أحمد الثالث باستانبول، دار الكتب المصرية ١٢١٩٥ح.
٣٦ ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): الجامع الصغير ـ مصر ١٣٩٩.
٣٧ ـ نفس المؤلّف: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ـ مصر ١٢٩٩هـ.
٣٨ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ٣٩٦ ـ تاريخ.
٣٩ ـ الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ ١ ـ القاهرة ١٣٤٨هـ.
٤٠ ـ صفي الدين أحمد الخزرجي: خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، القاهرة ١٣٢٢هـ.
٤١ ـ صفيّ الدين عبد المؤمن: مراصد الاطّلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، ليدن ١٨٥٢ ـ ١٨٥٩م.
٤٢ ـ طاشگيري (أحمد بن مصطفى طاشگيري زاده): الشقائق النعمانيّة في أحوال علماء الدولة العثمانيّة، في حاشية كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلّكان.
٤٣ ـ طه عبد الباقي سرور: رابعة العدويّة والحياة الروحيّة في الإسلام، مصر.
٤٤ ـ أبو العباس أحمد المعروف بابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بولاق ١٢٧٥هـ.
٤٥ ـ عباس بن محمد رضا القس: هديّ الأحباب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب، العراق ١٣٤٩هـ.

٤٦ ـ عبّاس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة (ترجمة د. أحمد كمال الدين حلمي)، نشر جامعة الكويت، ١٩٨٤.
٤٧ ـ أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفيّة، كتاب الشعب ٩٢، القاهرة ١٩٦٠م.
٤٨ ـ عبد المجيد محمد الخاني الخالدي: الحدائق الورديّة في حقائق أجلّاء النقشبنديّة، (لم تذكر الطبعة).
٤٩ ـ عبد النعيم محمد حسنين (دكتور): نظامي الكَنجوي، شاعر الفضيلة: عصره وبيئته وشعره، مصر ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م.
٥٠ ـ عبد الوهاب الشعراني: تنبيه المغتربين، مطبعة محمد شاهين، ١٢٧٨هـ.
٥١ ـ نفس المؤلف: طبقات الشعراني (الطبقات الكبرى للشعراني).
٥٢ ـ أبو عبيد عبد الله البكري: معجم ما استعجم، القاهرة ١٢٦٤هـ.
٥٣ ـ إبن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة عثمانية ١٣٠٥هـ ق.
٥٤ ـ أبو علي الحسن بن علي التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ـ القاهرة ١٩٢١م.
٥٥ ـ علي بن حسين الواعظ الكاشفي الهروي: رشحات عين الحياة (ترجمة القزاني)، مكّة ١٣٠٧.
٥٦ ـ إبن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥١هـ.
٥٧ ـ أبو الفداء الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥هـ.
٥٨ ـ فؤاد عبد المعطي الصيّاد (دكتور): النيروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢م.
٥٩ ـ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيريّة ١٢٨٤هـ.
٦٠ ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود القزويني): آثار البلاد وأخبار العباد، جوتنجن ١٩٤٨م.
٦١ ـ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن القرشي الدمشقي): البداية والنهاية، القاهرة ١٣٥١هـ.
٦٢ ـ اللكنوي الأنصاري الأيوبي: الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية (مؤلف عام ١٢٩٢).

٦٣ ـ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري: المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، كتاب الشعب، مصر ١٩٦٠م.
٦٤ ـ محمد أمين الكردي الإربلي: المواهب السرمديّة في مناقب النقشبنديّة، مصر ١٣٢٩هـ.
٦٥ ـ محمد غلّاب (دكتور): التصوّف المقارن، القاهرة..
٦٦ ـ محمد غنيم: لب التاريخ، جـ ١، طبع مصر.
٦٧ ـ محمد غنيمي هلال (دكتور): مختارات من الشعر الفارسي، القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.
٦٨ ـ مصطفى بن محمد الصغير العروسي: نتائج الأفكار القدسيّة في بيان معاني شرح الرسالة القشيريّة، مصر، ١٢٩٠هـ.
٦٩ ـ نصر الله مبشّر الطرازي: نور الدين عبد الرحمن الجامي، فهرس بمؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة التي تقتنيها دار الكتب بمصر ـ ١٩٦٣م.
٧٠ ـ نظامي العروضي السمرقندي: جهار مقاله (ترجمة الدكتورين عزّام والخشّاب)، القاهرة ١٩٤٨م.
٧١ ـ أبو نعوم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥١ ـ ١٣٥٧هـ.
٧٢ ـ اليافعي: مرآة الجنان، حيدر آباد الدكن ١٣٣٧هـ.
٧٣ ـ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والعمار والسهل والوعر في كل مكان (ست مجلّدات، ليبزج)، (٨ مجلدات، القاهرة ١٣٢٣هـ).
٧٤ ـ يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ ٢، طبع دار الكتب بمصر.

٤٦ ـ عبّاس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة (ترجمة د. أحمد كمال الدين حلمي)، نشر جامعة الكويت، ١٩٨٤.
٤٧ ـ أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفيّة، كتاب الشعب ٩٢، القاهرة ١٩٦٠م.
٤٨ ـ عبد المجيد محمد الخاني الخالدي: الحدائق الورديّة في حقائق أجلّاء النقشبنديّة، (لم تذكر الطبعة).
٤٩ ـ عبد النعيم محمد حسنين (دكتور): نظامي الكَنجوي، شاعر الفضيلة: عصره وبيئته وشعره، مصر ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م.
٥٠ ـ عبد الوهاب الشعراني: تنبيه المغتربين، مطبعة محمد شاهين، ١٢٧٨هـ.
٥١ ـ نفس المؤلف: طبقات الشعراني (الطبقات الكبرى للشعراني).
٥٢ ـ أبو عبيد عبد الله البكري: معجم ما استعجم، القاهرة ١٢٦٤هـ.
٥٣ ـ إبن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة عثمانية ١٣٠٥هـ ق.
٥٤ ـ أبو علي الحسن بن علي التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ـ القاهرة ١٩٢١م.
٥٥ ـ علي بن حسين الواعظ الكاشفي الهروي: رشحات عين الحياة (ترجمة القزاني)، مكّة ١٣٠٧.
٥٦ ـ إبن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥١هـ.
٥٧ ـ أبو الفداء الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥هـ.
٥٨ ـ فؤاد عبد المعطي الصيّاد (دكتور): النيروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢م.
٥٩ ـ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيريّة ١٢٨٤هـ.
٦٠ ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود القزويني): آثار البلاد وأخبار العباد، جوتنجن ١٩٤٨م.
٦١ ـ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن القرشي الدمشقي): البداية والنهاية، القاهرة ١٣٥١هـ.
٦٢ ـ اللكنوي الأنصاري الأيوبي: الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية (مؤلف عام ١٢٩٢).

٦٣ - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري: المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، كتاب الشعب، مصر ١٩٦٠م.
٦٤ - محمد أمين الكردي الإربلي: المواهب السرمديّة في مناقب النقشبنديّة، مصر ١٣٢٩هـ.
٦٥ - محمد غلّاب (دكتور): التصوّف المقارن، القاهرة..
٦٦ - محمد غنيم: لب التاريخ، جـ ١، طبع مصر.
٦٧ - محمد غنيمي هلال (دكتور): مختارات من الشعر الفارسي، القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.
٦٨ - مصطفى بن محمد الصغير العروسي: نتائج الأفكار القدسيّة في بيان معاني شرح الرسالة القشيريّة، مصر، ١٢٩٠هـ.
٦٩ - نصر الله مبشّر الطرازي: نور الدين عبد الرحمن الجامي، فهرس بمؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة التي تقتنيها دار الكتب بمصر - ١٩٦٣م.
٧٠ - نظامي العروضي السمرقندي: چهار مقاله (ترجمة الدكتورين عزّام والخشّاب)، القاهرة ١٩٤٨م.
٧١ - أبو نعوم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥١ - ١٣٥٧هـ.
٧٢ - اليافعي: مرآة الجنان، حيدر آباد الدكن ١٣٣٧هـ.
٧٣ - ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والعمار والسهل والوعر في كل مكان (ست مجلّدات، ليبزج)، (٨ مجلدات، القاهرة ١٣٢٣هـ).
٧٤ - يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ ٢، طبع دار الكتب بمصر.

«المراجع الأوربيّة»

1 - Browne, E. G, A history of persian Literature under Tatar Dominion (A.D. 1265 - 1502). Cambridge. University Press 1920.
2 - Browne, E.G. A literary History of Persia-Vôl II, London, 1915; Vol, III, London, 1920.
3 - Encyclopaidia Britannica.
4 - Gibb. History of ottoman Poetry. Vol. II.
5 - Irani A. Khodaram, Beharistan of A.R. Jamy, Translated into English, Published by Homee, Bombay No. 2; June 1913.
6 - Lane Pool, Mohammedan Dynasties, London, 1894; Paris 1925.
7 - Lui Massignon, La passion d'Al Husayn ibn Hallaj paris 1922.

فهـرس